جامعة تونس الأولى

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم التاريخ

أطروحة

شهادة التعمق في البحث

الحركة اليوسفية بالجنوب التونسي

(1956 – 1955)

الجزء الأول

إعداد الطالبة :

عروسية البركي

إشراف الأستاذ :

محمد الهادي الشريف

سبتمبر 1996

الاهـــــــــداء

الـــى مـــن عـــشـــق الحـــريـــــة ، وآمـــــن بـــالحـــق ،

و ســعـــــى فـــــي طـلـــــب الحـقـيـقـــة .....

الرموز المستعملة في الحواشي

- المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية : مأ .ث.ح.و: I.S.H.M.N ,- خ .ح .ت : خزينة الحكومة التونسية

- وزارة الخارجية الفرنسية : (M.A.E)

- I.B.L.A : Institut des Belles Lettres Arabes .

- R.O.M.M. Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterrannée .

شقاق إ، خلافا، وبح تونس منهما

إذا لم نفكر في الخلاف دامـا

لماذا ؟ وما الخضراء إلّا لكلّنا

نجرّعها جاما يفيض سقاما

سعيد بوبكر

ـ الديوان ـ

كلمة شكر وتقدير

****

أرفع شكري و تقديري إلى كلّ من ساعدني من قريب أو من بعيد على إنجاز هذا البحث. و أول تشكراتي لأستاذي المحترم محمد الهادي الشريف الذي ما أنفك يدفعني إلى الأمام كلما بدأت عزائمي تفتر و يقل حماسي فيبدّد مخاوفي ساعة و يضغط عليّ ساعة أخرى بأنّ لا مجال ولا وقت للتأخير فيكون ذلك حافزا لي لأمضي لما عزمت عليه .

كما أشكر زوجي الأستاذ البشير العربي المتحصل على الدكتراه في علم الإجتماع و المؤمن بقدرات المرأة التي تتفجر عند ما تتاح لها الظروف الملائمة فيستفيد منها الجميع .

كما أشكر أمي التي وضعت القلم في يدي و اعتبرته سلاحي في مواجهة الصّعاب فتحدت المجتمع الذي كان رافضا تعليم البنت باعتبار " مآل المرأة المنزل "، كما أشكر إخوتي خاصة منهم محمد التركي وهو الآن أستاذ بالجامعة التونسية و الذي وقف بجانبي و ساعدني ماديا ومعنويا ، و أخي عبد الكريم رغم أنه لم يواصل تعليمه فقد كان لي خير عون يمنحني القوة و الإرادة عند ما يعتريني الشعور باليأس من إنجاز " رسالتي " أمام العراقيل و الصعوبات التي تواجهني .

و أشكر السيد الحبيب غومة و الآنسة مريم بنفرج اللّذين ساما برقن هذا البحث، و أخيرا أشكر كلّ الذين إستجوبتهم فمدوني بالمعلومات الصحيحة و حتى المغلوطة و أطلعوني على أسرارهم لا سيما في فترة كانت خطيرة و دقيقة .

و شكري إلى إدارة المعهد الأعلى لتكوين المعلمين بقابس على مساعدتهم و تشجيعهم لي ، كما أشكر اللجنة التي ستمنحني من وقتها لتقييم هذا العمل " و قل إعملوا فسيرى اللّه عملكم و رسوله و المؤمنون " . - صدق الله العظيم -

التوطئة

لقد دعا رجال الفكر بالمغرب العربي ،منذ الستينات الى تحرير التاريخ من الفكر الاستعماري ،حتى ان محمد عابد الجابري يذهب الى ان تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين لم يكتب بعد ، وما كتب فيه اما تاريخ وطني يبرز الوحدة والائتلاف ويهمل الصراع والاختلاف واما تاريخ لا وطني ـ ان لم يكن ضد التاريخ الوطني ـ كتبه مؤرخون فرنسيون واقعون بصورة او بأخرى تحت ضغط الفكر الاستعماري ،او على الاقل مشدودون الى المركزية الاروبية فيرون الأحداث بمنظار المراقب الأجنبي (1) ولكن اين المفر من الفكر الاستعماري في غياب النصوص الكافية وخاصة نصوص" الفكر المعارض" الذي هو اكثر عرضة للمصادرة والاقصاء من قبل السلطة المركزية اثناء الحماية او بعدها ؟

يقول محمد حرب : ان التاريخ هو الخادم للحكم" (2) بل منه تستمد شرعية السلطة لمن لا شرعية له فيها ولعل هذا ما جعل التاريخ وخاصة تاريخ الحركات الوطنية عرضة للتدليس والتعتيم والمغالطة الايديولوجية " حسب عبارة عبدالله العروي (3) بحيث التف السياسي برداء التاريخي فبرزت وقائع وثورات اخرى واختفت بفعل فاعل " وكانت الصرخة الداعية الى ضرورة إعادة كتابة تاريخ الحركة الوطنية فكتابة التاريخ تطرح دائما المسائل وبدون انقطاع (4) ولكن اعادة الكتابة في هذه المسألة الشائكة المتصلة بتاريخنا

---

(1) د: محمد عابد الجابري :تطور الانتليجانسيا العربية الاصالة والتحديث في المغرب، دراسات عربية، العدد 1 و 2 السنة 20 تشرين الثاني كانون أول بيروت 1983، ص.ص. 3 - 23 .

(2) 2)Harbi(M): Aux Origines du F.L.N:le Populisme Revolutionnaire en Algerie, Christion Bourgois Editeur,1975,P:61.

3)Laroui(A): L'Histoire du Magreb,un Essaï de Symthése,Paris: 1970,P:1.

4)Veyne(P): Comment on Ecrit l'Histoire:essaï d'epistemologie,Ed Seuil,Paris 1971.

القريب ليست بالامر الهين فهي تستوجب " عقلنة الواقع" (1) بل كما يقول الاستاذ محمد الهادي الشريف " لقد آن الاوان لدراسة الحركة الوطنية دراسة علمية مع ما يقتضيه الامر من تضييقات و دقائق و بنفس الطريقة الموضوعية التي درست بها بعض المسائل التاريخية الكبرى الاخرى كتاريخ الثورة الانقليزية في القرن السابع عشر و الثورة الفرنسية في 1789 " (2).

وهكذا يصبح من الضروري فتح ملفات ذات حساسية سياسية او تشكل خطورة على العلاقات الدولية " تجنب العقل المؤرخ " تفحصها لعدة سنوات . وقد حاولت الجامعة التونسية مذكورة منذ الثمانينات ان توجه عدة بحوث اكادمية نحو الخوض في اشكاليات من تاريخنا المعاصر القريب قد تسليط الضوء على اركان منه فما زالت غامضة اولم تستوف حظها من الدراسة والبحث و منها الحركة اليوسفية في الجنوب التونسي من 1955 الى 1956 " موضوع اطروحتنا النيل شهادة التعمق في البحث (دكتوراه مرحلة ثالثة) .

1) Triki Fathi: L'esprit Historien dans la Civilisation Arabe et Islamique, M.T.E, et Faculté des Sciences Humaines et Sociales, Tunis 1991.

2) محمد الهادي الشريف: "الحركة الاجتماعية والحركة الوطنية بتونس: مشاكل المناهج والمصادر بحوث الندوة الثانية لتاريخ الحركة الوطنية حول مصادر تاريخ الحركة الوطنية التونسية ومناهجه (ايام 27و 28 و 29 ماي 1983) ، نقلها الى اللغة العربية حمادي الساحلي ، منشورات المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية ، تونس 1991 ، ص ص 129 - 137 .

مقدمة عامة

ظل الاختلاف قائما والجدال حادا بين التيارات الفكرية والسياسية وحتى بين مناضلي الحزب الدستوري الجديد والمقاومين حول " الخلاف اليوسفي البورقيبي " الذي أفرز قطبين في صلب الحزب الدستوري الجديد : " الأمانة العامة والديوان السياسي " في وقت كانت فيه البلاد تدخل مرحلة ما بعد الاستعمار المباشر.

وقد ذلت مسألة اليوسفية طيلة سنوات من المسكوت عنه في شريعة الخطاب الرسمي التونسي، فلم يتحدث عنها الا مرة من خلال سلسلة المحاضرات التي عرضها الرئيس الحبيب بورقيبة في اواخر 1973 امام طلبة معهد الصحافة وعلوم الاخبار حول تاريخ الحركة الوطنية (1).

وبما ان "الممنوع" يكون اكثر اثارة "للفضول" وجلبا للاهتمام ومحطة للتساؤل، فقد كان ملف "اليوسفية" مطروحا في الكواليس ولا سيما كواليس الجامعة التونسية، وجاءت قراءة هذا الملف متباينة تباين المصادر الفكرية والمرجعيات الايديولوجية، بحيث جعل البعض هذه الحركة ناهضة للعصرنة والحداثة، وذات بعد وحدوي عربي، مصطبغ بالطرح الأصولي وحتى السلفي جذرته المزايدة السياسية واحتداد الصراع بينه وبين الشق البورقيبي " (2) في حين يضعها البعض الآخر موضع الريادة ذات التوجه الوطني الراديكالي، المناهض للاستلاب والاغتراب والداعي الى وحدة المغرب العربي، فهي طرح اكثر تقدمية بالنسبة للطرح الاقليمي الذي يمثله بورقيبة، وكان اكثر خطرا على مصالح الامبريالية العالمية في منطقة المغرب العربي . ولذلك ضرب هذا التيار المغربي بقسوة في تونس وفي المغرب الاقصى ثم في الجزائر " (3).

وقد ادت عملية التقييم " للحركة اليوسفية ببعض التيارات الفكرية

---

1) جمعت هذه المحاضرات في كتاب الحبيب بورقيبة "حياتي، افكاري، جهادي" شركة كتابة الدولة للاعلام، تونس 1977.

2) عبد الجليل بوقرة ولطفي عيسى "بورقيبة وبن يوسف: تهافت على الحكم ام تصادم اختيارات؟" المغرب العربي، العدد 167، الجمعة 8 سبتمبر 1989، ص ص 21 و 25.

3) احمد الخوارجي : وجهة نظر في رصد الازمة البورقيبية بعد الانتفاضة وفي الضرورة، العدد الاول ماي جوان 1978 بيروت/ لبنان / ص ص 132 ـ 157.

والسياسية الى السقوط في نفس الخندق مع خصوم هم في تناقض جوهري معهم وربما هذا ناتج عن ان المنطلق كان " السياسي " وليس "التاريخي" فكان لا يدلنا من التعامل مع هذه المسألة بوجهة نظر "التاريخي" وبروح نقدية متحررة من القيد الايديولوجي الصرف. ونحن نقر بأن طرقنا لموضوع الحركة اليوسفية بالجنوب التونسي من 1955 الى 1956 ، ليس محاولة للأجابة بقدر ما هو عملية طرح الاسئلة على الاخرين وعلى انفسنا ، كما اننا ندرك الصعوبة التي تنتظرنا خلال معالجة هذا الموضوع الذي ما يزال " بكرا " رغم بعض الاشارات والتلميحات قد وردت مقتضبة في كتابات ومؤلفات الذين درسوا المرحلة الاخيرة من صراع الحركة الوطنية مع نظام الحماية لنيل الاستقلال ، او الذين تعرضوا الى هذه المرحلة في "مذكراتهم" أو "كرباتهم" (1) وقد تعدد هذا النوع من الكتابات بعد 1987 (ازاحة بورقيبة عن الحكم) ولا اريد ان اكرر ما ذكره الاستاذ حسين رؤوف حمزة في مجلة المغرب العربي عن هذه المذكرات لرجالات السياسة في تونس (2) بل تجدر الاشارة الى ان هذه المذكرات رغم اهميتها التاريخية في إضاءة جوانب من تاريخنا القريب غير انها لم تتطرق بعمق الى الخلاف اليوسفي - البورقيبي ، فمثلا سرد علينا محمد بن سالم تواريخ أحداث جرت خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها بينما اكتفى محمد صالح مزالي بكلمة موجزة للغاية " اليوسفية صفحة حزبية من تاريخنا "(3) دون ان يفسر هذا " الحكم " على الأقل.

---

1) نخص بالذكر منهم : بريليي L.Perillier شارل اندري جوليان (Ch.A Julien) باوي دي لاتور (Boyer de la Tour) كوهين خضرية ، سليمان بن سليمان ، عزالدين عزوز ، محمد صالح مزالي محمد بن سالم وصومانيي (Le Saumagne)

2) انظر مجلة "المغرب العربي" عدد 110 الجمعة 22 جويلية 1983 ص ص 4 و 8.

3) Mzali(M.S), Aufil de ma vie, Editions H.M, Collection "Leon Africain", Tunis 1972.

أما سليمان بن سليمان فقد تغافل عن هذه المرحلة (1955-1956) عند سرد ذكرياته في حين أشار الحبيب عاشور الى هذا الخلاف في صفحة واحدة من كتابه (1).

وعموما فهذه المذكرات صادرة عن افراد ليس لهم أدنى إختصاص ولا صلة بكتابة التاريخ التي تتطلب أساليب بحث معينة يعرفها المختصون ، فهي مجرد ذكريات خاصة تتضمن سردا للاخبار ، وهي كثيرا ما تهمل التواريخ وذكر مصادر الخبر.

ومع هذا تبقى المذكرات رافدا هاما للمعرفة التاريخية .

اما المقالات التي اهتمت بموضوع " اليوسفية " فهي قليلة جدا تكاد تعد على الاصابع ، نشرت في مجلة المغرب العربي ومجلة اطروحات ، وصحيفة "الوطن" ... وتعتبر هذه المقالات محاولات جادة لنبش الموضوع واثارة النقاش حوله ولا سيما من قبل النخبة المثقفة .

ألم توجد مؤلفات إختصت بدراسة هذا الموضوع؟ لم توجد بعد دراسة ضافية حول الحركة اليوسفية وانما وجدت بعض المؤلفات وهي قليلة جدا اهتمت بزعيم الحركة صالح بن يوسف او تناولت في فصول منها " اليوسفية " مباشرة ، من هذه المؤلفات :

- صالح بن يوسف ، حياة كفاح ، المنصف الشابي ، وهو كتاب في 258 صفحة اهتم صاحبه من خلاله بصالح بن يوسف ودوره في النضال الوطني بتونس مبرزا توجهاته الفكرية ذات البعد العربي الوحدوي ويعتبر هذا الكتاب من صنف " كتب السيرة " ورغم أهميته الا انه يتوقف في 26 جانفي 1956 وهو تاريخ خروج صالح بن يوسف من البلاد التونسية والتحاقه بالتراب الليبي ، بمعنى انه يقف في منتصف الطريق بالنسبة لموضوعنا .

---

1) Ac hour(H), Ma Vie Politique et Syndicale, Enthousiasme et Deceptions(1944-1981); T_1, Alif, Tunis 1989, P: 51.

ـ تاريخ الحركة الوطنية التونسية : الاستقلال (1) ، والدولة الجديدة (2) وهما مجموعتا نصوص جمعها وقام بتحليلها محمد الصياح وهي لا تخلو من اهمية بالغة بالنسبة لموضوعنا رغم إن صاحبها أراد من ورائها تمجيد خصال بورقيبة وإدانة الأمانة العامة والمتعاطفين معها وهو لا يخفي انحيازه الى الطرح البورقيبي .

ـ الحركة الوطنية التونسية ، للطاهر عبدالله ، وهو كتاب اهتم اساسا بتطور الحركة الوطنية عموما لكنه اورد عدة تصاريح وبيانات هامة صادرة عن زعيم " اليوسفية " صالح بن يوسف كما اهتم بالحديث عن الكفاح المسلح بالجنوب التونسي طيلة فترة الحماية الا ان هذا الكتاب لا يخلو من بعد سياسي باتجاه " القومية العربية " .

ـ المسألة التونسية من 31 جويلية 1954 الى 30 مارس 1956 عبر جريدة الصباح وهي " شهادة كفاءة في البحث لمنيرة المحضي التي خصصت عدة فصول تحدثت فيها عن الحركة اليوسفية من خلال ما كتبته جريدة الصباح ، وحاولت الباحثة ان تلتزم بموضوعية البحث الأكاديمي ـ .

ـ الحركة الوطنية التونسية بين البورقيبية واليوسفية 1934 ـ 1961 ، وهي شهادة الكفاءة في البحث " لمحمد المختار ناصري الذي أبدى اهتماما بجذور الخلاف اليوسفي ـ البورقيبي اكثر من دراسة الحركة اليوسفية ذاتها التي وردت في آخر البحث بصفة مقتضبة جدا تميل الى السرد دون التحليل .

وعموما فان هذه " القطرات " المتناثرة في هذه المؤلفات حول الحركة اليوسفية لا تروي المتعطش الى الإلمام بالموضوع من كل جوانبه ولهذا لا بد من الالتجاء الى مصدرين للمعرفة :

---

1) Histoire du Mouvement National Tunisien, D X V, T3 L'Independance, Dal Amal, Tunis, 1978.

2) Histoire de Mouvement National Tunisien, Le Neo-Destour à l'epreuve du pouvoir, (3 Tome), Dal Amal, Tunis, 1982-1983.

اولا : الوثائق المكتوبة طبقا لمقولة " التاريخ يصنع من وثائق ، اذ لا بديل عن الوثائق ، وحيث لا وثائق فلا تاريخ " (1) ولهذا قصدنا المحفوظات " الأرشيف (2) حيث عثرنا على عدة تقارير هامة وتمكنا من الاطلاع على عروض تحليلية للصحافة التونسية والعربية الصادرة في الفترة التي ندرسها ، وهذه الوثائق الموضوعة من قبل الادارة الفرنسية لا تخلو من " الانتقاء " حسب ما تطلبه السياسة الاستعمارية العامة ، يقول البشير التليلي : " ينبغي التحري في استغلال المعلومات الواردة في التقارير الموضوعة من قبل مصالح الاقامة العامة الفرنسية بتونس او مصالح الكتابة العامة للحكومة التونسية او مكاتب الشؤون الاهلية وذلك على الأقل لانها ترتكز على بعض عناصر السياسة الاستعمارية العامة ولانها ترمي الى توجيه سياسة وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية (3) .

ـ ثانيا : الاستجوابات (او التاريخ الشفاهي) وهي عادة ما تستخدم لسد ثغرات التاريخ المكتوب ، وبما اننا بصدد معالجة موضوع يتعلق بالتاريخ القريب (التاريخ الحي) فان الأرشيف لم يوضع جميع وثائقه بين يدي الباحثين ، نظرا لعدم مرور المدة القانونية المحددة لفتحه .

ومن هنا ملت الى طريق الرواية الشفاهية وحاولت تدقيق الأخبار ونقدها وانتقيت المستجوبين باعتبار أن قيمة الرواية تستند إلى راويها

---

1) عبد الرحمان بدوي : النقد التاريخي ، شركة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الرابعة 1981 ، ص 5 .

2) فالي جانب " المحفوظات التونسية المعروفة فقد تأسس في 1990 المعهد الاعلى للحركة الوطنية بتونس ويعمل هذا المعهد على مواصلة البرنامج الوطني حول تاريخ الحركة الوطنية فيمكن الباحثين من الاطلاع على الوثائق المتعلقة بتاريخنا المعاصر والمحفوظة في خزائن الأرشيف الفرنسي (الوزارة الفرنسية للشؤون الخارجية Quori d'Orsay) الأرشيف الوطني لما وراء البحار في (Aix-En-Provence) وارشيف جيش البر في (Chatean de Vincennes) .

3) البشير التليلي عناصر لدراسة الحركة الوطنية 34 الى 54 بحوث الندوة الثانية لتاريخ الحركة الوطنية حول مصادر تاريخ الحركة الوطنية ومناهجه 1920 / 1954 ، ايام 27 و 28 و 29 ماي 1983 نقلها الى اللغة العربية حمادي الساحلي منشورات المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية ، تونس 1991 ، ص ص 25 و 72 .

من ناحية جديته وصدقه وصلته بالحادثة، ثم حاولت مقارنة الروايات فيما بينها ومع ما توفر لنا من وثائق مكتوبة حتى تكون لنا صورة متزنة عن الأحداث، كما حاولت أن أقدم بعض المعلومات الخاصة بالرواة قد تعطي فكرة ولو عامة عن انتمائهم السياسي ومكان وتاريخ ولادتهم، ومن خلال ما توفر لدينا من مادة تاريخية، حاولنا بناء موضوعنا حول الحركة اليوسفية في الجنوب التونسي من 1955 الى 1956 "، وما ذلك إلاّ محاولة أولية في نطاق دراسة جزئية لمرحلة فقط (55-1956) من مراحل تطور الحركة اليوسفية التي استمرت الى تاريخ إغتيال زعيمها صالح بن يوسف في 1961 وربما تواصلت بعد ذلك في أشكال أخرى من المعارضة .

فقد حاولنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة أن نساهم في ازاحة بعض الغموض والضبابية ظلاّ يكتنفان فترة مصيرية من تاريخنا وقد يكون ذلك نتيجة التشخيص المفرط للتاريخ " بحيث يصبح من صنع شخص واحد تسلط عليه الاضواء في حين يمكث آخرون في الظل، الا ان هذا الصمت وهذا التعتيم جعلا من الحركة اليوسفية " أسطورة إمتزجت خلالها الحقيقة بالخيال، وخزنتها الذاكرة الجماعية في صورتها المشوهة، وعند ما اختبرنا هذه الذاكرة عن طريق الاستجوابات الشفاهية كشفت لنا عن رؤى مختلفة ومواقف متباينة من هذه الحركة وحتى داخلها وبين أنصارها أنفسهم ؛ وكان الخلاف بين الزعيم واتباعه بل ظهر الخلاف في تنظيم الحركة نفسها بين جناحها السياسي المتمثل في صالح بن يوسف وجناحها العسكري بقيادة الطاهر الاسود، كما اطلقت تسميات مختلفة على نفس المسمى واذا بالحركة اليوسفية هي عند البعض فتنة يوسفية في حين عند الآخر "ثورة ثانية" أو

حرب اهلية وقد دفعتنا هذه الحيرة وحب الاطلاع الى البحث عن طبيعة الحركة وابعادها و مراحلها والوقوف على نتائجها دون ان ننسى تنزيلها في اطارها الزمني العام الذي يتعلق بمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية و ما عرفته من تحولات على الصعيد العالمي والداخلي وقد انعكس ذلك على الوعي السياسي التونسي و جعل الحركة الوطنية تستقطب اهتمام اغلبية فئات المجتمع التونسي تحت وطأة الازمة الاقتصادية والاجتماعية للنظام الاستعماري الكلاسيكي في منتصف الخمسينات، بحيث تجذرت الحركة الوطنية شيئا فشيئا واصبحت تطالب بالغاء نظام الحماية المباشر مستخدمة كل الوسائل بما فيها الكفاح المسلح لتحقيق الاستقلال ولكن ما هو هذا الاستقلال ؟ فهذه الكلمة هي السبب في خلق الاختلاف وزرع التباين حول تحديد مفهومها بين قادة الحزب الدستوري الجديد او بين الجانب التونسي والفرنسي اوحتى بين الاحزاب الفرنسية في المتربول ولا سيما من كانوا في السلطة الفرنسية .

يقع موضوع بحثنا بين 1955 و 1956 و هذه الفترة قد تستغرق سنتين أي من مطلع 1955 الى نهاية 1956 ،وقد تكون محصورة في بعض الأشهر فصلت بين حدثين هامين إتفاقيات جوان 1955 والإعلان عن بروتوكول الاستقلال في 20 مارس 1956،وعلى كل فهذه الفترة هي فترة تفاوض" بين تونس وفرنسا لايجادة صفة جديدة تحدد العلاقات التونسية الفرنسية في المستقبل ،فهي اذن فترة اختيار و من الأبيعي ان يكون الاختيار محل خلاف نظر الصعوبته و من ناحية المسؤولية التي تصاحبه ،خاصة ان الامر قد يتجاوز اطاره المحلي الضيق؛البلاد التونسية ليمس المغرب العربي وحتى حركات التحرر في العالم و رغم ذلك يحصرنا الموضوع في الجنوب التونسي

الذي يعتبر من اهم قواعد الحركة اليوسفية التي جرفت القسم الاكبر من السكان الى حضيرتها ،فالجنوب التونسي أرض خصبة للتوتر والثورات (١) .

كما انه يتمتع بموقع استراتيجي جعله محل خلاف في مفوضات الحكم الذاتي فهو نقطة عبور الاسلحة والكمندوس القادمين من الشرق باتجاه المغرب العربي ،اضافة الى ان جذور عناصر قيادية في الحركة اليوسفية من الجنوب : القائد الطاهر الاسود (الحامة) وصالح بن يوسف (جربة) .

ولمعالجة هذا الموضوع اعتمدت منهجية تعتمد تتبع الاحداث والوقائع و مقارعة الافكار المتقابلة قصد اثارة الملاحظات والفرضيات ثم الخلوص الى محاولة التفسير والتحليل وخلق علاقة بين الاحداث والافكار في منظومة فكرية حرصت على ان تكون متكاملة مستنجدة بعلوم اخرى غير للتاريخ كالجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والاحصائيات (الاثنيان) وحتى قانون العلاقات الدولية ...

وأخيرا لا أدعي انني وصلت الى الحقيقة التامة رغم طموحي الى ذلك بل سأحاول ان ارسم بعض المامح وأشير بعض الجزئيات كمساهمة متواضعة اتمنى ان تنظم الى غيرها من المساهمات الساعية الى الرفع ما علق بالحقائق التاريخية من غشوات و ملابسات حتى تتشكل حقائق اكثر اهمية واكثر شمولية وأقف عند القول " الدهر يكشف والتاريخ يسجل " .

---

١) "الثورات" في الجنوب التونسي ليست بالمعنى الغربي للكلمة أي تغيير جذري في جميع الميادين ،وانما هي انتفاضات منعزلة و متكررة ضد الحضور الفرنسي بتونس ،تعتبر استمرار الممارسة الرعية او الغزوة المشاعة في النمط القبلي بالمغرب العربي .

الفصل الأول

الإطار المكاني والزماني:

(الجغرافيا الفرنسية منتصف القرن العشرين)

مقدمة الفصل الاول

بما ان بحثنا يتعلق بالحركة اليوسفية بالجنوب التونسي من سنة 55- 1956 رأينا من الاوكد دراسة الاطار المكاني ولا سيما خصوصياته الجغرافية والتاريخية التي جعلت من الجنوب التونسي أرضا للمنفى وبؤرة توتر مستمر، هذا في الباب الاول .

اما في الباب الثاني فقد تطرقنا لدراسة الظروف العالمية والداخلية بعد الحرب العالمية الثانية التي افرزت تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وحتى ثقافية جديدة ادت الى ازمة النظام الاستعماري الكلاسيكي منذ مطلع الخمسينات وقد انعكست هذه الازمة على الحركة الوطنية التونسية فتكسرت التحالفات القديمة في صلبها وبدأت تتشكل ملامح مرحلة جديدة في تاريخ البلاد التونسية .

الفصل الاول

الباب الاول : الجنوب التونسي : ارض للمنفى وبؤرة توتر.

الجنوب التونسي اقليم جغرافي يقع جنوب البلاد التونسية بين خط العرض 32 و 34°5 درجة شمال خط الاستواء وهو منطقة فقيرة الموارد الطبيعية وقاسية المناخ ومع ذلك لها اهمية كبرى من حيث :

- موقعها الاستراتيجي البالغ الخطورة " بوابة الصحراء ومفتاح للشرق" وهذا ما جعل السلط الاستعمارية تفرض على الجنوب التونسي نظاما متميزا عن بقية البلاد التونسية باعتباره ترابا عسكريا ازدادت اهميته بعد الحرب العالمية الثانية " خط مارث " وبعد استقلال ليبيا 1951 واكتشاف حقول النفط بالصحراء الجزائرية في 1952 واندلاع الثورة الجزائرية مما جعل فرنسا تتشبث به اكثر وتستثنيه في مفاوضات الحكم الذاتي (1954 - 1955).

- استعداد اهلها الدائم للتمرد والعصيان واحتداد هذه النزعة اثر حرب العالمية الثانية وانعكاساتها المجحفة عليهم ولا سيما انها تزامنت مع التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والادارية الناتجة عن السياسة الاستعمارية بعد حضور قارب 3/4 القرن .

1) - الاطار الطبيعي : الجنوب ارض للمنفى :

يمتد الجنوب التونسي جنوب خط التساقطات 200مم ويحتوي على نصف مساحة البلاد التونسية لا سيما انه يبدأ بسلاسل جبال قفصة وينتهي بالحدود الجنوبية وبذلك يقع بين الحدود الجزائرية من الغرب والحدود الليبية من الشرق . ويعتبر هذا الموقع موقعا استراتيجيا هاما فهو مفتاح الصحراء وممر للشرق وقد تفطن له الرومان منذ القديم وتبهوا الى اهمية هذا الموقع واقاموا به مراكز عسكرية متقدمة .

و منطقة الجنوب هي جزء من الهضبة الصحراوية (1) . وتنقسم تضاريسها الى مجموعتين متباينتين :

*- مجموعة شمالية : تقع شمال الشطوط (الفجيج والجريد والغرسة) وتعرف بجبال قفصة وهي سلاسل اطلسية حديثة لذلك تتركب من مقعرات تتوسطها محدبات تصل الى ارتفاع 1163م وتمتد من الغرب الى الشرق ومن اشهر جبل العيدودي وجبل عرباط ...

*- مجموعة جنوبية : وهي جزء من القاعدة الافريقية القديمة لذا تبدو منبسطة عموما وينهض وسطها "الظهر التونسي" ويقسمها جغرافيا الى منطقتين .

+ منطقة الجنوب الشرقي : وتتكون من سهلين ساحليين :

- الاعراض في الشمال ، وهو سهل يمتد من وادي ودران شمالا على عرض 40 كم الى وادي الزاس جنوبا على عرض 80 كم .

- جفارة الجنوب ويصل الى الحدود الليبية .

وينحدر هذان السهلان نحو البحر وقد عرفا ترسبات اوجدت تربة خصبة قرب مجاري الاودية وخارجها قد تكونا تربة فقيرة لكثرة النفادية والملوحة وعلى يسار هذين السهلين يمتد الظهر التونسي "الجبل" وهو عبارة عن "كويستا" تبدأ من جبال مطاطة الى الحدود الليبية تنحدر بلطف نحو الغرب "جبال مطاطة - جبل دمر - الجبل الابيض" . وقد كان بروز هذه المرتفعات نتيجة حركات ثانوية للقاعدة الصحراوية ويبلغ ارتفاعها 715م . ويسود المنطقة مناخ شبه صحراوي اذ تتراوح التساقطات بين 100 و200مم سنويا ويؤثر البحر على المدى الحراري ويصل الى 16 درجة وهذا الجفاف النسبي جعل النباتات قليلة اغلبها شوكية مثل الحلفاء والشيح والنجم وبعض الشجيرات الشوكية مثل السدر والرمث والرتم والسكوم .

+ منطقة الجنوب الغربي : وتمتد غرب الظهر التونسي في شكل هضاب منبسطة يغطيها العرق الشرقي الكبير في معظم مساحتها مما جعل تربتها ضئيلة الخصوبة .

---

1) أنظر خريطة التضاريس رقم : 2 .

في ظل قلة الامطار أقل من 100 مم / سنويا وأكثر من 20 درجة المدى السنوي مع هبوب رياح السموم " الشهيلي " قرابة الاربعين يوما في السنة (1) .لذلك يقل الغطاء النباتي ويتضاعف خطر الانجراف والتعرية الريحية . ولكن وان قلت المياه السطحية فقد توفرت المياه الباطنية خاصة العميقة الراجعة الى المائدة الجوفية القارية .

وخلاصة القول أن الجنوب التونسي يتمتع بموقع جغرافي متميز على تخوم الصحراء وهو بمثابة البوابة بين الشرق والغرب لذا جعلته فرنسا ترابا عسكريا لا يمكن التفريط فيه خاصة بعد اكتشاف حقول النفط بمرمادة وبحاسي مسعود بالجزائر .

كما ان المناخ الصحراوي والشبه صحراوي المخيم على هذه الربوع جعلها قاسية في الصيف وفي الشتاء حيث ترتفع درجات الحرارة الى ما يزيد عن 35 درجة صيفا وتنخفض إلى أقل من 10 درجات في الشتاء وحتى إلى درجة الصفر اثناء الليل وهذا ما جعل الجنوب التونسي يخصص كمنفى لرجالات السياسة والمعارضين فقد أحتضن بعض من شاركوا في الاحداث التالية :

* حادثة الماء بالحامة التي اندلعت في 13 أفريل 1885 أثر رفع سعر استهلاك الماء مع تجديد قيمة الاستهلاك اليومية بمتر مكعب في اليوم (2) .فاحتج سكان الحاضرة ضد هذه الاجراءات ونظموا مظاهرة امام قصر الباي فحولت السلط الاستعمارية تهدئة الأوضاع بنفي منظمي المظاهرة ومنهم محمد السنوسي الذي نفته الى قابس التي كانت تتبع التراب العسكري .

---

(1) الحرفة الفنية بقابس .

2)Mahjoub(A);l'Etablissement du Protectorat Francais en Tunisie; Publication de l'Université de Tunis, 1977,P: 371.

حادثة الترامواي التي اندلعت في فيفري 1912 اثر مقتل طفل تونسي داسته عربة الترامواي التي كان يقودها ايطالي فأضرب العمال التونسيون عن العمل وعاضدهم الاهالي التونسيون بمقاطعة ركوب الترامواي والقت السلط الاستعمارية المسؤولية على اعضاء حركة الشباب التونسي فأرغمت الباي محمد الناصر على اصدار امر مؤرخ في 13 مارس 1912 ينص على عدة قرارات منها نفي بعض عناصر الحركة اما الى الخارج (عبد العزيز الثعالبي - علي باش حامبه - محمد نعمان حسن القلاتي)أو الى الجنوب التونسي وبالتحديد الى تطاوين بالنسبة للصادق الزمرلي والشاذلي درغوث ...

* 3 سبتمبر 1934 : القت السلط الاستعمارية القبض على مجموعة الحزب الحر الدستوري الجديد وتنفيهم الى قبلي التي كانت مكان نفي خليفة بن عسكر قبيل الحرب العالمية الاولى .

وفي جانفي 1935 : القت السلط الاستعمارية القبض على اعضاء الديوان السياسي الجديد الذي تكون اثر الفراغ الذي احدثته اعتقالات سبتمبر 1934 وقامت بنفي بن يوسف ومجموعته الى الجنوب التونسي .

جانفي 1952 : اثر حالة التوتر التي سادت البلاد قامت السلط الاستعمارية بحملة اعتقالات في صفوف التونسيين وزجت بهم في السجون والمعتقلات خاصة معتقل تطاوين ...

فهو يعني ذلك ان المنطقة خالية من البشر ؟

الاطار البشري : الجنوب بؤرة توتر .

1) - السكان وتنوع نمط عيشهم :

يتمتع الجنوب بمساحة شاسعة وقد حاول الانسان منذ القديم التكيف مع تلك المعطيات الطبيعية القاسية وقد اختلف نمط العيش من جهة الى اخرى داخل الجنوب التونسي، وان ساد النمط الرعوي الانتجاعي فلا يعني انتفاء النمط الزراعي المستقر ولكن في كلتا الحالتين تسود الفلاحة على بقية الانشطة الاقتصادية الاخرى .

أ ـ النمط الرعوي الانتجاعي : ويتمثل في تربية الماشية (الاغنام ـ الماعز ـ الابل) وهي حيوانات يمكن ان تتأقلم مع المناخ الجاف والشبه صحراوي، وكانت تعتبر اساس الثروة بالنسبة للقبائل وعادة ما تكون هذه الثروة عرضة الى الغارات او الى الانخفاض في سنوات الجفاف والجدب ...

وكانت قبائل الجنوب تنتجع بماشيتها شمالا وقل ما تتجه شرقا . وتبدأ الرحلة في بداية فصل الربيع في قالب فرق تختار مكان الاقامة على اساس مصدر مائي قريب، كما يشترط ان يكون المكان محميا من الرياح الباردة الآتية من الغرب وتكون الخيام قريبة من بعضها البعض وتقام في شكل نصف دائرة تسمى بالدوار الذي يجمع عائلات عديدة من نفس العشيرة (1).

ويكون تقاسم العمل بين افراد المجموعة رجالا ونساء واطفالا بحيث يقوم الرجال برعاية الاغنام ومداواتها وحمايتها من غارات القبائل المعادية ويقوم الاطفال باخراجها الى المرعى، اما النساء فيتكلفن بعملية حلب الحليب وتحويله الى " لبن " ثم اذابة الزبدة الى " سمن " يقع خزنه لوقت الحاجة (2).

ومن الملاحظ ان هذا الانتقال نحو الوسط التونسي او الشمال الغربي " افريقيا " ليس الى الأبد بل في نطاق الانتجاع، اذ تدوم الرحلة الى فصل الصيف حيث تعود هذه القبائل الى مضاربها لجزّ الصوف في " مطامير " تحت الأرض بالنسبة لقبيلة بني يزيد أو في القصور بالنسبة لقبيلة ورغمة كما يقوم افراد القبيلة بجمع التين وتحويله الى " شريح "

1) Valensi (L): Fellahs Tunisiens, économie rurale et la vie des Campagnes du 18e et 19e Siecle; Paris 1977; P: 319.

2) البشير العربي : التحولات الاجتماعية والبناء القبلي ومستويات التنمية في حامة بني يزيد بالجنوب التونسي : أطروحة الحلقة الثالثة كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ـ جامعة تونس (1) 1991 ص 139.

وهو غذاء للانسان والحيوان في انتظار موسم جني التمور فقد استطاعت بعض العشائر المستقرة بالجبل خاصة اقامة حواجز " صوابي " على سفوح المرتفعات لتجميع مياه الامطار القليلة وبالتالي امكانية غرس الاشجار المثمرة بطريقة بعلية ...

وتمارس بعض القبائل النمط الرعوي الانتجاعي في ارض خاصة لملكية جماعية وبالتالي كل الافراد لهم حق الانتفاع بها واستغلالها دون ملكيتها وهذا ما يحول دون بيعها والتفريط فيها فالارض تحتضن رفات الاجداد والاسلاف فلا يجوز التخلي عنها بأي شكل من الاشكال حتى بعد ما فقدت خصوبتها . فيمكن التحول الى قطعة اخرى جديدة كل ما فقدت القطعة الاولى خصوبتها كما ان الفرد يمكنه ان يبيع الزرع الذي ينبت فوق قطعة الارض ولكنه لا يستطيع بيع الارض وذلك لانها تعد ملكا لجميع افراد القبيلة (1) .فهي الارض " العربي " المستغلة على وجه الانتفاع (2) .وعند نزول الامطار تتسابق العروش على خدمة الارض التي تزرع قمحا وشعيرا وقليلا ما تزرع البقول ولا ينتفع بالمحصول الا من قام بالعمل . وبعد الحصاد يصبح حق الرعي لكل افراد القبيلة ... وعند ما حلت السلط الاستعمارية بالبلاد التونسية ووضعت يدها على اراضي الشمال والساحل حسب قانون افريل 1890 وقانون جانفي 1896 اصطدمت بالاراضي الجماعية التي هي ملك للقبائل فاصدرت قانون 14 جانفي 1901 يخول لقبيلة او لبعض افرادها ملكية جزء من الاراضي الجماعية (3) . والغرض من ذلك هو تخصيص الاراضي الجماعية حتى يمكن بيعها وشراؤها فيما بعد وبالتالي اتساع رقعة الاستعمار الفلاحي والسيطرة على هذه الاراضي وموارد ها الباطنية .

---

(1) مصدر سابق : البشير العربي : التحولات ... ص 181 .

(2) Cherif (M.H): Pouvoir et Société dans la Tunisie de Hussein ben Ali .

(3) Mahjoubi Ali: les Origines des mouvement National en Tunisie, 1904-1934, Publication de l'Université de Tunis, Facultée de Lettre 1982. P: 28

لذا تكونت لجان محلية تهتم بتحديد الاراضي " الاشتراكية"، تتركب كل لجنة من قائد وقاضي واثنين من الاعيان وتكون تحت رئاسة المراقب المدني . وقد بدأت هذه اللجنة اعمالها بالجنوب يوم 8 مارس 1902 ...

لقد اثبتت هذه اللجنة ان معظم الاراضي هي جماعية فمثلا اراضي الاعراض اغلبها اراضي " اشتراكية" ما عدى 39 قسطا اعتبرت ملكية حوزية (1) ...

وبمقتضى قانون 1901 تتحول ملكية هذه الاراضي الى الدولة ويبقى للقبائل حق التصرف فقط لا تبيع ولا تنرهن ولا حتى تهيئ هذه الاراضي كملكية أساسية (2).

وسمحت الدولة هذه الاراضي التي تعتبر اراضي اموات بما انها ليست ملكا للأروبيين الذين استغلوها خاصة بصفة المغارسة اذ تمنح الارض الى الفلاحين التونسيين فيغرسونها اشجارا (زيتون - كرم - لوز ...) وبعد 15 سنة تقسم القطعة على اثنين : جزء للتونسي وجزء للاروبي الذي يحصل عليها جاهزة دون عناء .

وبفضل قانون جانفي 1901 تحصلت الدولة على 1،290،000 هك من اراضي قيادتي الاعراض وقفصة ، والهمامة والفراشيش وماجر .. وبالجنوب والوسط حيث تمد اهم الاراضي الجماعية .

كما تحصل الاروبيون على اراضي " الملك" عن طريق الشراء بما قدره 10 فرنك للهكتار مثلا تحصلت شركة السكك الحديدية وفسفاط قفصة على ارض تفوق مساحتها الثلاثين الف هكتار بعشر فرنكات للهكتار من الارض الجرداء و 15 فرنك للهكتار المشجر مع تسهيلات في الدفع. (3)

1)Rapport Adressé le 12 Juillet 1902 a M le Resident Generale par M. Luret.
2)Poncet(J)La Colonisation et l'Agriculture Européenne en Tunisie depuis 1881.Paris,1962, P: 188.

Mahjoubi Ali; Les Origines... .p,27.

لقد تواجد الاروبيون بهذه الجهة الشبة قاحلة سواء في منطقة قفصة المنجمية او منطقة الجنوب الشرقي او على التراب العسكري باعداد ما انفكت ترتفع كلما زاد التغلغل الاستعماري تعمقا ففي سنة 1889 التحق بالجنوب التونسي 2000 عسكري برتب مختلفة اضافة الى 268 مستوطن فرنسي و 526 أروبي بجهة قابس وحدها . وقد ارتفع عدد المستوطنين ما بين 1946 و 1956 من 1336 الى 2186 (1) . ولكن مقارنة الشمال تبقى اراضي الجنوب غير مغرية للتواجد الاستعماري المكثف ما عدا منطقة قفصة الغنية بالثروات الباطنية كالفسفاط حيث سيؤدي هذا التواجد الى تحولات في صلب التركيبة الاجتماعية التقليدية بظهور فيئة جديدة وهي عملة المناجم .

ب ـ النمط الزراعي " المستقر" :

ونعني به النشاط الزراعي الذي يقوم به المستقرون وينقسم الى نوعين :

ـ الزراعة السقوية المتواجدة بالواحات المتناثرة بالجنوب التونسي حول عيون المياه النابعة من باطن الارض عبر الانكسارات ومن اهم الواحات نذكر على سبيل المثال واحات قبفصة والجريد وفزاوة بالجنوب الغربي وواحات قابس بالجنوب الشرقي ويسود الاستغلال المباشر معظم الواحات ما عدا الواحات التي بها اراضي على ملك قبائل شبه رحل مثل واحة دوز بالنسبة للمرازيق وواحة الحامة بالنسبة لبني زيد . او على ملك اشخاص لهم مهن اخرى . وتتمتع الواحة بانتاج متنوع رغم هيمنة النخيل ، فالتمر الانتاج الرئيسي لمنطقة الجريد خاصة وكان في بداية الاستعمار حوالي 200 او 300 الف قنطار ، يدفع القنطار الواحد 15 ، 11 فرنك (2) . فيحسب النخيل بالقطعة

1) وزارة الخارجية الفرنسية علبة 24 سلسلة تونس م1 و 394 .

2) Mahjoubi Ali; l'établissement du Protectorat Français en Tunisie, Publication de l'Université de Tunis, 1977, P: 31.

المزروعة وتبتعد النخلة عن الاخرى بمسافة 4 أو 6 امتارا ونجد بينها أشجارا أخرى اقل ارتفاعا مثل الرمان والمشمش وكرم العنب ... في حين خصص وسط القطعة لمزروعات اخرى كالخضر والمزروعات الصناعية (التبغ والحناء) وأخرى علفية (الفصة والقصيبة) وهو ما ذكره المؤرخ بليبنوس (1) .

2) ـ زراعة بعلية : وهي زراعة الاشجار المثمرة خاصة الزيتون والنخيل والتين وهي اشجار تصمد امام قساوة المناخ وفقر التربة وتتحمل قلة الامطار وتذبذب كمياتها من سنة الى اخرى وتنتشر غابات الزياتين خاصة بالجنوب الشرقي في جرجيس وجربة ومطماطة ...

والى جانب الغراسات يتعاطى المستقرون زراعة الحبوب (القمح ـ الشعير) بطريقة بعلية ايضا في المنخفضات وفي أودية الوديان . ولتكميل حاجياتهم يعمدون الى تربية الماشية باعداد قليلة مثلا سكان مطماطة .

وعادة ما تكون الارض في هذه المساحات ملكا خاصا ينتقل بالوراثة من جيل الى آخر وهذا ما جعلها عرضة للتفتت والتجزئة يزداد من حدة نتيجة البيوع والمعاوضات والشركات وارتفاع عدد الورثة . وقد تصبح الارض موردا ثانويا بالنسبة للبعض من اهل الحضر فيهملها او يتنازل عنها بمقابل ضئيل (2) . ولو رغب الاروبيون في الاستيلاء على هذه الاراضي " الملك " لأمكنهم ذلك بسهولة لغياب الوثائق التي تثبت الملكية ...

ولكن الاروبيون كانوا لا يطمعون كثيرا في ارض انهكها الاستغلال المكثف والبري المستمر مما زاد في ارتفاع ملوحتها ونفاذية تربتها وبالتالي قلة مردودها . ومن خلال استعراضنا لهذه الانماط قد يتبادر لذهننا ان الجنوب التونسي لم يعرف النمط الحضري ...

---

1) Valensi; Fellah ... Op.Cit. P: 206.

1) مصدر سابق :

2) محمد بن حسن : القبائل والارياف المغربية في العصر الوسيط : دار الرياح الاربعة للنشر ـ تونس 1986 / ص 36 .

ج ـ النمط الحضري : ونعني به نمط عيش سكان المدن والقرى أي " البلدي " نقيض " العربي " وكلمة بلدي مشتقة من بلداي مكث بالمكان، واقام به، فهو المستقر بالبلدة . اما " العربي " فيعني به " الاعراب " وهو ساكن البادية، وكانت النظرة الاحتقارية متبادلة بين الطرفين، والعلاقات بين البلدية والبدو علاقة توتر وصدام وتعارض وغزو وهي ناتجة عن تلك المفارقة بين المدينة والريف، بين الحضر والبدو، ففي المدينة تغلغلت الحضارة العربية الاسلامية ، اما الريف فقد بقي الاقرب للطبيعة قائما على القوة رافعا شعار النخوة والفروسية (1) .

وبالرغم من احتقاره للبلدي فالبدوي لا يستطيع الاستغناء عنه، وهذا يعكس اجباارية المشاركة في تقاسم العمل بين الطرفين بحيث يختص الحضر في الاعمال التجارية وتعاطي الحرف والقيام بالزراعة السقوية في الواحات داخل المدينة، بينما يختص البدو بالرعي وفلاحة الارض والزراعات البعلية .

وفي الحقيقة تصل المدن بالجنوب التونسي ما عدا بعض التجمعات السكانية التي استقرت حول موارد المياه منذ امد بعيد وهي تنحدر من القبائل سواء من اصل بربري لوبي كسكان جرجيس وجربة الذين ينحدرون من قبيلة ورغمة او من قبائل من اصل عربي كسكان الحامة الذين ينحدرون من قبيلة بني زيد او سكان قابس الذين ينحدرون من الحزم ...

وتضم المدينة نسبة هامة من اليهود كانوا يهيمنون على بعض الحرف كصناعة الحلي والحرير، وكثيرا ما يلتجيء اليهم المسلمون لاقتراض الاموال عند الحاجة الملحة بفائض "الربا"، مع رهن عقار أو اشجار زيتون أو ذهب، مقابل المال المقترض، وفي بعض الاحيان يصبح الرهن ملكا لليهودي امام عجز الدائن على تسديد دينه، ذكر شيخا مارث وعرام أمام اللجنة المحلية لتحديد الاراضي الاشتراكية التي باشرت عملها بالجنوب في مارس 1902 : "وحتى في سنوات الجدب لا نغرط في الارض بل نتوجه الى يهود قابس فيقرضوننا بفائض 50٪ مع رهن، وقد يقضي الدائن هنا اكثر من خمس سنوات بالجزائر حتى يفك ارضه وينفذها ." (2)

(1) 1)Bouhdiba (Abdelwahab); Culture et Societé, Publication de l'Université de Tunis, 1978, P: 179.

انتصاب الحماية تعززت سيطرة اليهود والاروبيون على الانشطة التجارية وخاصة
جارة الخارجية فتقهقرت التجارة التقليدية إمام المنافسة الاجنبية نظرا لعدم
ان التجار المسلمين اللغة الفرنسية والطرق الحديثة في التصرف فهم لا
تطيعون الاتصال بالغرف التجارية الاروبية لتمثيلها بتونس (1).
نتيجة لطبيعة الاستعمار الفرنسي الاستطانية وللحد من نفوذ الجالية الايطالية
فع عدد الفرنسيين بالبلاد التونسية مثلا من 46 الف سنة 1911 الى 54 الف
ة 1921 في حين تراجع عدد الايطاليين في نفس الفترة من 88 الف الى 85 الف
ع ذلك يبقى التفوق للجالية الايطالية (2).
حلول هؤلاء الاجانب بالبلاد التونسية اقاموا احياء جديدة تخضع لتصميم هندسي
بق بها طرقات واسعة معبدة تصتف على جانبيها منازل ذات طابق اوطابقين
علوها سطح محدب في اغلب الاحيان من القرمود الاحمر على شاكلة البناءات الاروبية
نتال لذلك حي باب البحر بقابس .. وتدريجيا بنيت مدينة جديدة تنافس المدينة
عربية الاسلامية وتتحداها وتجلت الفوارق واضحة بين "الرومة" اي الاروبيين
العرب اي الاهالي .
وهكذا نلاحظ ان العوامل الطبيعية فرضت انماطا من العيش تعكس المفارقات
ين البدو والحضر ولما جاء الاستعمار الفرنسي لم يقلص من هذه التناقضات
زادها تعميقا بخلق مفارقة اخرى بين "المتفوقين" اي الاروبيين و"العرب"
السكان المحليين .

الوضع الاجتماعي بالجنوب التونسي : بين التمرد والخضوع.

التركيبة الاجتماعية :

كن ان نتحدث عن سكان الجنوب بمعزل عن المجتمع التونسي ككل لانهم
وا نفس التطورات والتحولات التي مرت بها البلاد التونسية من عهد اللوبيين
سطاجيين فالرومان والبزنطيين مرورا بالعرب والنورمان والاسبان ثم
تراك واخيرا الفرنسيين .
يمر اي عهد من هذه العهود دون ان يترك شواهد على وجوده حفرت
ي "ذاكرة الزمن" وانعكست تنظيماتها على التركيبة الاجتماعية بالايجاب او
سلب فانقسم المجتمع الى طبقتين حسب ملكية وسائل الانتاج ومصدر
ثروة .
طبقة الاعيان : وهي الطبقة الغنية استطاعت ان تكسب حظوة لدى "السلطة
حاكمة" .
طبقة شعبية "او العامة" : وهي تمثل الاغلبية في المجتمع كثيرا ما كانت عرضة
هب عبر الضرائب المجحفة او مصادرة ممتلكاتها وتجنيد ابنائها من طرف
سلطة الحاكمة وهذا ما جعلها متحفزة "الى الثورة" والعصيان والتمرد
م ان المجتمع في الجنوب التونسي يتكون اساسا من قبائل رعوية غير مبالة

(1) Mahjoubi (A); Les Origines... P: 56.

2) Goldestein (D) : Liberation ou annexion aux Chemins Croisé de l'Histoire Tunisienne; 1914-1922, M.T.E. Tunis 1978, P:56

لحياة الاستقرار وحياة الحضر فقد ظهر بها التمايز الطبقي بين شيوخ القبائل والعامة وقد تدعم هذا التمايز بتفشي الملكية الخاصة لقطعان الاغنام او لملكية الارض او بالدخول في خدمة السلطة المركزية كقبائل مخزن ...

كما ظهرت المفارقة بين هذه القبائل ذات النمط الرعوي الانتجاعي والقبائل المستمرة في الواحات التي تكون عرضة لغزوات البدو خاصة ايام الجدب والقحط ومن هنا نلاحظ ان المجتمع بالجنوب يخضع قبل حلول الاستعمار الفرنسي الى نظام قبلي يصنف السكان حسب الانتماء الى "الصف".

1) ـ صف شداد (الصف الباطني) ويضم [1]

ـ في جهة الاعراض : بني زيد ـ الحزم ـ الغرائرة ـ الحمارنة ـ العلايا جارة ـ وذرف .

ـ في نفزاوة : المنشية ـ المنصورة ـ قبلي .

ـ في الجبل : مطماطة ـ زراوه ـ تاوجوت ـ بني عيسى .

2) ـ صف يوسف (الصف الحسيني) وهو ضد شداد ويضم في جهة الاعراض اولاد عقوب ـ الشارب ـ المنزل ـ المطوية ـ شنني ـ وورغمه (التوازين ـ القصور ـ عكاره).

في نفزاوه : المرازيق ـ نقه .

في الجبل : توجان ـ بني زلطن ـ تامزرط ـ تلمين ...

وقد حدد هذا الانتماء الى "الصف" علاقات القبائل فيما بينها اذ خلف "حماة" و"اعداء" فمثلا يعتبر اولاد ماجر والفراشيش واولاد عيار والمثاليث والسواسي (في التراب التونسي والنوائل (في التراب الليبي) حماة لقبيلة بني زيد التي هي بدورها حامية لهم اما الهمامة وجلاص وورغمه فهم في صف الاعداء . والعكس بالعكس.

ولهذا يبدو ان الوعي الطبقي ضعيف والصراع يستند الى جذور قريبة من اصل اثني تجسده وحدة الصف والانقسامية فالانقسامية انجبت "العداوة" التي توارثتها الاجيال وهي تجهل مصدرها واسبابها مثلا التنافر بين جاره والمنزل بمدينة قابس الذي مازال الى اليوم قائما ونلمسه من وراء بعض الامثال الشعبية "اقل المعارف صحبتك في جاري" زي اللي محضر للشتاء "سفساري"(1) او "المنزل بلاء نزل".

كما ولدت الانقسامية الحروب والثورات اما داخل القبائل وعندها يسود السلم بين القبائل والسلطة المركزية او العكس. فعند اندلاع الحرب ضد السلطة المركزية تتضامن القبائل فيسود الامن بينها .

ومن الملاحظ ان الجنوب التونسي قد عرف العديد من الثورات عبر تاريخه لاسباب مختلفة ولكن كانت في الواقع كرد فعل تجاه السلطة الحاكمة او تجاه غزو اجنبي.

---

1) Martel(A): Soulevement et Ingerences étrangères dans les Steppes Tunisiennes 1854-1943, Actes du VIIe Colloque International sur la Resitance armée en tunisie aux XIXe et XX Siecles P.P: 141-154.

II ـ اهم الثورات التي خاضها الجنوب التونسي :

1) ـ فيما قبل الاستعمار الفرنسي :

تزخر كتب التاريخ بثورات الجنوب ولكن سنقتصر على بعضها ففي العهد الروماني تعتبر ثورة "تكفارينـاس" (17ـ23م) رد فعل البربر تجاه الغزو الروماني الذي صادر الاراضي الخصبة وقلص من مناطق تجوال النوميديين ووطد المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان اقدامهم في كل مكان بينما دحر السكان الاصليون الى اراضي ضحلة قليلة الانتاج وصار املهم الوحيد في المقاومة المسلحة وكان هدفهم الرئيسي من الحرب استعادة ارضهم (2) وامام هذا الخطر اتخذ الرومان تدابير حربية منها تركيز الكتيبة الثالثة الاغسطوسية بحيدرة مع ربط المنطقة بواسطة شبكة من طرقات استراتيجية بقفصة (Capsa) وقابس (Tacapae) مع شن حملات حربية عنيفة ضد القبائل المتمردة اوالتي تهدد بالتمرد (2) .

اما في عهد الدولة الفاطمية فقد اندلعت ثورة صاحب الحمار (3) (944ـ947) كرد فعل عن الاوضاع الاجتماعية المتدهورة والتي لخصها ابن عذاري بقوله "وفي سنة 307هـ / 916م كان بافريقية طاعون شديد وغلاء سعر مع جور شامل من الشيعة والتعلل عن اموال النـاس "(4) .

ولبست هذه الثورة لباس الدعوى الاباضية وانتشرت في صفوف القبائل ذات النزعة الاستقلالية والناقمة على الحكم الفاطمي في الاوراس والزاب وكادت ان تسيطر على العاصمة المهدية لولا مساندة صنهاجة للفاطميين وتشتت كلمة الخوارج الا ان المذهب الخارجي قد استمر بالاماكن النائية والوعرة كجبل نفوسه والجريد وجربة ، ويقول "التيجاني" في رحلته عن سكان جربة "وهم ينقسمون الى فرقتين فرقة تعرف "بالوهبية" ورئاستهم في بني "اسمومن" وارض هذه الفرقة من الجزيرة الجهة الغربية فما ولاها من جهة الشمال وفرقة تعرف "بالنكارة" ورئاستهم في بني "عزون وارضهم الجهة الشرقية فما ولاها من جهة الجنوب. "(5)

---

1) ـ عمار محجوبي : الاحتلال الروماني ومقاومة اهالي البلاد ، تاريخ افريقيا العام المجلد الثاني مجون افريقيا ، اليونيسكو ، 1985 ، ص 475ـ412 .

2) ـ محمد الهادي الشريف : تاريخ تونس ، الطبعة الثانية ، سراس للنشر ، تونس ، 1985 ، ص 27 :

3) ـ وهو مخلد بن ... مخلد بن كيداد النكاري من الجريد (انظر تاريخ ابن خلدون ، بيروت 1968 مج 7 ص 22) .

4) ـ عائدة الهاني : اضواء على اصول الشعب التونسي العرقية وظروف استعرابه ، بيرم للنشر تونس ، 1988 ، ص 57 .

5) ـ ابو محمد عبدالله بن محمد بن احمد التيجاني : رحلة التيجاني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1981 ، ص 123 .

ويعني هذا تواصل المذهب الخارجي في بعض المواقف من الجنوب التونسي حتى بعدها فرض الحفصيون المذهب المالكي على كامل البلاد .

اما في اواخر العهد الحفصي وامام التنافس الأجنبي الإسباني التركي من أجل الاستلاء على سواحل شمال افريقيه في فترة ضعفت فيها السلط المركزية واصبحت تبحث لها عن حلفاء من صفوف القوى الاجنبية المتنافسة لتطيل عمرها تعددت الثورات بافريقية ومن اهمها الثورة "الشابية" وهي حركة دينية انفصالية قامت ما بين 1525/1558 وجمعت القبائل الثائرة في الوسط والجنوب وسعت الى تاسيس "امارة بالقيروان" بزعامة "الشابية" ويقول ابن ابي دينار صاحب المؤنس "والشابون اصلهم من الشابه وهي بادة قبالة المهدية كان يقول له قبوديه "وقد قامت الشابية ضد السلطان مولاي الحسن الحفصي بعد ان تحالف مع الاسبان "الكفار" لابعاد خطر الاتراك "المسلمين" .

وقد تزعم هذه الحركة الشيخ عرفة بن مخلوف حتى سنة 1542 تاريخ وفاته ثم أخلفه ابن اخيه محمد بن ابي الطيب وسيطرت الشابية على اراضي شاسعة من افريقية في الجنوب والوسط والغرب وبالتالي قطعت طريق التجارة الصحراوية واستاثرت بنسبة هامة من الضرائب كانت تجمعها الدولة الحفصية كما اصبحت تمثل قوة عسكرية يضمها فرسان من البدو(1). وخشي الحفصيون هذه القوة التي تهدف الى ازالتهم من الحكم الافريقي باعتبارهم " خونة" وقاتلوها بضراوة في سنة 1535 و 1536 و 1540 لكن الانتصار كان حليف "الشابية" واثناء هذه المرحلة كان التقارب بين الحفصيين والاسبان من جهة والتقارب بين الشابية" والاتراك من ناحية ثانية خاصة وقد كشف هؤلاء (الاتراك) من تواجدهم بالحوض الغربي المتوسط بعد سيطرتهم على الجزائر سنة 1517 والاستلاء على حلق الواد سنة 1531 . . .ويفسر هذا التحالف بالرباطات الدينية التي تربط الطرفين بالدين الاسلامي الذي يمر بفترة حرجة اذ كان عرضة لمطاردة عنيفة من طرف المسيحيين اشتدت بعد سقوط غرناطة سنة 1492 فكثفوا جهودهم لتضييق الخناق على منطقة شمال افريقية "المسلمة" لذلك تكالبت القوى المسيحية (البرتغال ـ الاسبان ـ جنوة ـ نابولي . .) على غزو مواقع بسواحل شمال افريقية قصد الحد من خطر القرصنة .

وفي سنة 1543 افتك السلطان احمد بن الحسن الحكم من والده الخائن الذي القى البلاد في احضان الاسبان(2)ولاعادة وحدة المملكة حاول السلطان احمد التصدي للاتراك "والشابية" لكنه يفتقر الى قوة عسكرية والى دعم مادي ومعنوي وهذا ما جعله ينهزم امام الشابية التي استعصى عليه التغلب عليها وفي ذلك يقول ابن ابي دينار في كتابه المؤنس "ولم يزل "محمد بن ابي الطيب"خليفة الشيخ عرفه) يحارب السلطان احمد

1)Masmoudi (A) et Smida (M),Tunis au XVI S de la Chute(1 des H afsides à l'Installation des Turcs, Histoire de la Tunisie les Temps Moderne, S.T.D, Tunis 1983, P: 10.

الى ان اخذ القيروان من يده درغوث باشا بارسال اهل القيروان الى درغوث وهو يهديه طرابلس فيسلموا له البلاد لما جاءهم وانحرفوا عن ابي الطيب وذلك لقبح سيرته في الناس وكان يحارب السلطان أحمد مدة حياته وبينهم عدة وقائع وكان ذلك في 3 جانفي 1558 . كما عجز السلطان احمد على ازاحة الاتراك عن افريقية وانسحب امام علي سنة 1569 ليحتمي بالاسبان المقيمين بحلق الوادي (1).

وآلة البلاد الى الاتراك سنة 1574 رغم محاولة مولاي محمد اخ الحسن التصدي للتواجد التركي بالاعتماد على الاسبان وعلى بعض قبائل الجنوب بعد ان نزل على الساحل بين صفاقس وجرجيس وسار على تونس العاصمة لكنه انهزم وفر الى الجنوب التونسي حيث عاش متخفيا الى ان القي عليه القبض سنة 1592 (2).

- في العهد المرادي ، لم تهدأ ثورات العربان التي تواصلت منذ اواخر العهد الحفصي واستمرت في العهد العثماني الاول ولما تقلد مراد الاول خطة " الباي " بعد وفاة مولاه رمضان باي في 1612 اظهر قدرة فائقة على كسر شوكة " الاعراب" خاصة " اولاد سعيد " الذين يقول عنهم ابن ابي دينار في كتابه المؤنس : "عاثت الاعراب في

---

1) نفس المصدر السابق : ص 20

2) // // // ص : 21

غالب الاقاليم خصوصا منهم زريعة الخبث والاصل اللئيم اولاد سعيد لا اسعدهم الله لان طبعهم الفساد في البلاد ويهلكون الحرث والنسل والله لا يحب الفساد " . ومقابل اخضاعه القبائل المتمردة كتب مراد باي للدولة العثمانية طالبا خطة " باشا " نائب السلطان فاستحقه بذلك (1) ولما توفي مراد باي في 1041 هـ / 1631 م تولى الحكم ابنه حمودة باشا الذي سلك سياسة والده فتهادى في سياسة الأداءات وأحكم قبضته على البلاد فوجه جهوده لاخماد ثورات القبائل فطارد " اولاد سعيد " المهيمنين على القيروان فالتجؤوا الى بلدة الحامة وتحصنوا بها .

وكانت الحامة قد استعصت على الحكم التركي منذ سبع سنوات (2) وفي 1045 هـ / 1635 كان هجوم حمودة باشا على الحامة برا وبحرا بحيث قدم الجيش من البر في حين جاءت التموينات من البحر ثم وضعت المدافع على جراراتها وصوبت نيرانها نحو المدينة وقبل بداية المعركة طلب محمد باشا (ويسمى ايضا حمودة باشا) من السكان الاستسلام فرفضوا ذلك (3) فاحكم المهاجمون الحصار على البلدة وشيدوا حولها سورا اتخذوه منطلقا لمناوشاتهم التي اسفرت عن خسائر في الرجال من الطرفين . اما المبعوثون من طرف حمودة باشا الى المحاصرين لاقناعهم بضرورة الاستسلام فكانوا

1) مصدر سابق : محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب. . .ص 236.

2) نفس المصدر : . . .ص 237.

(3) I.B.L.A: Le Beni Zid et loasis d'El Hamma, Revue Tunisienne, 1903, P.P: 424-436.

يعودون خائبين رغم ان حمودة باشا كان يختارهم من بين " الثقاة " والذين لهم مكانة في بني زيد(1). وقد صمدت " المدينة " المحصنة بنخيلها وبخندق كان يحيط بها من كل الجهات (2) ودافع عنها اهلها ببسالة ولا سيما انهم على دراية بفنون الحرب والقتال وكر حمودة باشا على المدينة المحاصرة بقوة لكنه فشل فتراجع عنها ورفع حصارها وعاد الى صفاقس. وارتفعت اصوات البنادق تعبيرا عن الفرح تعم الحامة التي تناست نكبتها وآلام الحصار ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد اصيب احد الاعيان وهو المسمى " بن عواجه " الذي كانت بيده مفاتيح المدينة " الثمانية " في ابنه او اخيه الذي قتل اثناء الاحتفالات فتختلف الرواية بحيث يذهب البعض الى ان حادث القتل وقع اثناء احتفال المدينة برفع الحصار عنها فاصيب ابن عواجة على سبيل الخطأ برصاصة من بندقية احد المحتفلين في حين يذهب البعض الاخر الى ان اخاه قد قتل غدرا قرب بئر "شانشو" على يد بعض اعداء صفه الذين قاموا بقطعه الى أشلاء جمعت في ثياب (3) القتيل وربطت الى جواده وهكذا عاد الى اهله (4) وربما تكون هذه الحادثة من حبك حمودة باشا " المهزوم" ليجد منفذا للمدينة الصامدة . فبعث برسالة الى محمد باشا يدعوه للمجيء ولاكتساح الحامة. وفي احدى الليالي تمكن محمد باشا من ادخال جنوده المدينة بعد ما تسلم من بن عواجة مفاتيحها وعاث الجنود في الارزاق والرجال والنساء والاطفال فسادا سالكين طريق النهب والسلب والتقتيل

---

1) حدثنا عن ذلك السيد الطاهر لسود عند لقائنا به في ماي 1986.

2) I.B.L.A:Le Beni-Zid et l'oasis d'El Hamma...Op,Cit; P: 432.

3) يقول البعض وضعت في سروالـه .

4) مصدر سابق I.B.L.A:Le Beni Zid...Op,Cit; (4) P:432.

حتى ان المنازل قد طليت بدماء سكانها الذين اجبروا على اخلائها بعد هدمها وتعرف هذه الاحداث عند سكان الحامة اليوم " بعام خلاء الحامة " . فقد تمكن حموده باشا من تشريد اولاد شعيد واجلائهم الى طرابلس كما تمكن من تخريب الحامة وكسر شوكة بني زيد واستوجب ذلك لاسترجاع القوة حتى لا نكاد نلمس مشاركة هؤلاء في النزاع الدائر بين البايات والدايات او بين افراد العائلة المرادية في الربع الاخير من القرن السابع عشر " خاصة بعد ان توفي مراد باي الثاني ثبت 1086 / 1675 وترك ابناء تنازعوا على السلطة بعده وأوقعوا قلاقل زعزت عرش بني مراد (1)

ومن الملاحظ ان المتصارعين على السلطة اقحموا عناصر قريبة من الحاضرة مركز الثقل السياسي وان استعانوا ببعض القبائل مثل " الحنانشة او جبل وسلات فذلك بانهم كانوا يعتبرونها قادرة اذاك على ترجيح كفة الصراع . اما قبائل الجنوب فقد غفلوا عنها نسبيا وربما ذلك لضعفها نتيجة ما نالها من تنكيل على يدي مراد باي الاول وابنه حموده باشا ولكن دون نسيانها في استخلاص الضرائب .

- الفتنة الحسينية الباشية : (1728 - 1740) .

وهب مواصلة لما عرفه المجتمع التونسي في العهد المرادي من تطاحن على السلطة وقد نشبت هذه الفتنة بين حسين بن علي وابن اخيه حول ولاية العهد والخروج بالمحلة وقد عهد حسين بن علي بهذه المهمة التي اصبحت رمز ولاية العهد منذ العهد المرادي لابن اخيه

1) حسن حسني عبد الوهاب . خلاصة تاريخ تونس الدار التونسية للنشر تونس 1976 ، ص 1969 .

علي بن محمد التركي ثم سحبها منه والأها ابنه محمد الرشيد بن حسين التركي ولكي يسترضيه التمس له في 1725 لقب الباشا من الباب العالي وهو لقب شرفي بدون مهمة واغتاظ علي باشا من هذا الاجراء والتحق في 1728 بجبل وسلات خفية واخذ يجمع الانصار للثورة ضد عمه حسين بن علي الذي خرج بدوره يطلبه . واشتعلت الحرب بين الطرفين بعد محاولات (مكاتبات وسفراء من رجال الدين والاعيان) لم تنجح في تجنب الحرب . وجد حسين بن علي وابناؤه محمد وعلي في مطاردة ابن اخيه الذي تسلل من جبل وسلات واخذ ينتقل من مكان الى آخر وكان اينما حل حلت الفتنة ونزلت النقمة بمن اتبعه من اعرب جبل وسلات والساحل والكاف والقيروان واضطر علي باشا تحت ضغط الحملات المتوالية الى الهروب والتحصن بالصحراء (1) وبالحامة التقت جموع علي باشا وقوات حسين بن علي يقودها الصباغ آغة زواوة (2). ودارت المعارك فاضطر علي باشا الى الدفاع عن نفسه والى البحث عن سبيل ينجو به من الاندحار (3). فخرج من الحامة ومنها الى الزاب مارا بقفصة وفي الجزائر حاول علي باشا ان يحصل على مساندة صاحبها مقابل العديد من الضمانات لابراهيم باشا الذي جهز علي باشا بقوة عسكرية اجتاح بها البلاد التونسية في سنة 1735 فاضطر حسين بن علي بعد معركة سمنجة الى التراجع الى القيروان حيث طالته يد ابن اخيه سنة 1740. وقتلته .

---

(1) مصدر سابق: محمد الهادي: "تاريخ المغرب العربي". ص272.

(2) محمد الحبيب بالخوجة: الورغي، سلسلة أدباء المغرب العربي، الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس، 1961، ص 15.

(3) نفس المصدر: ص 16.

وقد ادت هذه الفتنة الى تعمق الانقسامية داخل المجتمع التونسي بحيث انقسمت البلاد الى مؤيدين لعلي باشا وهم الباشيون والى مؤيدين لحسين بن علي وهم الحسينيون ،وقد كانوا عرضة لحملة علي باشا الانتقامية بعد ما استولى على الحكم .

وبعد ان آل الحكم الى ابني حسين بن علي في 1756 ابطنت الباشية معارضتها لسلطتهما الى حين عودة اسماعيل بن يونس بن علي باشا من طرابلس سنة 1759 ليطالب بالحكم بعد وفاة محمد الرشيد . (1)

* ثورة غومه المحمودي . 1856/1558.

نشأت هذه " الثورة " بولاية طرابلس التي اعادها الاتراك من العائلة القرامنلية الى حكمهم المباشر منذ 1835 كصراع مبكر بين الاتراك والعرب وبدايات ظهور القومية العربية التي ستتبلور قبيل الحرب العالمية الاولى (2) اذ يقول غومة في احد رسالاته لباي تونس بتاريخ جويلية 1855 : " نحن قادة العرب نعرق قيمة السلطة وباستطاعتنا ان نرجع لها هيبتها ونحن لا نرضى لبلادنا ان تبقى بدون سلطان ولكن ان يكون سلطانا تركيا عديم المعرفة بالرتب الاجتماعية وتوجهات النامر خاصة واننا نعتبر الاتراك من صنف والعرب من صنف ثان .فهنا يمكن عدم التفاهم" (3)

وقد تزعم هذه الثورة غومة المحمودي من قبيلة المحاميد القاطنة شرق طرابلس وبعد وقائع عنيفة ضد الاتراك تمكن هؤلاء من القاء القبض عليه ونفيه الى تركيا ولكنه

---

(1) 1) Guellouz(E) La Tunisie Husseinite au XVIIIe Siecle;Histoire de la Tunisie. les Temps modernes S.T.D. Tunis.1983 P: 206.

(2) عبد المجيد كريم "غومة المحمودي بين العصبية و التبحيرة (1856_1958) أعمال الندوة الدولية السابعة حول المقاومة المسلحة في في تونس في القرنين التاسع عشر و العشرين (18_19_20 نوفمبر 1993)، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية تونس 1995 ص.ص : 17_42 .

3) مصدر سابق : البشير الحربي ، التحولات الاجتماعية... ص 273

تمكن من الهرب والرجوع الى طرابلس لمواصلة الكفاح الا انه التجأ الى الجنوب التونسي بعد ان كان قد لجأ الى صوف بالجزائر . ولعل المضايقات التركية بطرابلس والمضايقات الفرنسية بالجزائر جعلته يتحول الى الجنوب التونسي حيث ناصره بنو زيد وجزء من جبالية مطماطة وقسم من نفزاوه (1) ولو نعود الى ترتيب " الصف" . فهؤلاء يعودون الى صف شداد والذين يعتبرون حماة " المحاميد " الذين هم من نفس الصف ويقطنون طرابلس وترتبطهم بهني زيد خاصة صلات القرابة ونزعة شداد (2). واشتعلت الثورة في الجنوب خاصة وان تاريخ دخول غومة البلاد يوافق احداث ضريبة جديدة " الاعانة " في جانفي 1856 وهي التي تحولت الى ضريبة المجبى القارة بعد ان كانت احداثها بصفة مؤقتة لتسديد العجز المالي في خزينة الدولة .

وقد رفضت القبائل دفعها ولاخماد الثورة واجبار القبائل على الدفع أمر محمد باي قائد الساحل محمد خزندار بالتحرك نحو الجنوب سنة 1857 مما ادى الى التحام بين صف شداد وصف يوسف (3). ولكن محمد خزندار سرعان ما نجح في تفكيك هذه اللحمة اذ تحالف صف يوسف مع " عسكر الباي " ضد " العدو التقليدي " الصف الباشي مما سهل على الباي اعادة سلطانه على الجنوب وتراجع غومة الى الصحراء ولعله لذلك لقب . "ببطل الصحراء" (4). وهناك قتل!

(1) Cherif (M.H) les Mouvements Paysans dans la Tunisie du 19e S Revue de l'occident Musulmens et de la Mediterranée 17mes 1980 P. 31.

(2) محمد المرزوقي "الدغباجي" مكتبة النار الطبع / تونس.

(3) Cherif (M.H) Le mouvement... op. cit., p 35

(4) وهو عنوان كتاب " غومه بطل الصحراء لعلي مصطفى."

× ثورة علي بن غذاهم : 1864 لقد كانت منطقة الجنوب في ربيع 1864 وهياءة للتمرد والعصيان فهي ما زالت تحت وطأة نتائج ثروة غومه المحمودي . ولم تتحرر بعد ممارسات " عسكر الباي " القمعية بقيادة محمد خزندار الذي قتل الرجال وصادر الاملاك في نفزاوة والاعراض وجرد 23 شخصا من اعيان بني زيد من املاكهم وحتى من نسائهم (1) . وعند ما قرر الباي في سبتمبر 1863 مضاعفة المجبى وتعميمها . وانتشر الخبر في البلاد واتفق الاعراب على عدم الدفع وفي 10 مارس 1864 جان مائي العون القنصلي بصفاقس : " اتفق كل القبائل على عدم الدفع فقبائل بني زيد رغم وجود المحلة التي يقودها " سي سليم " قائد الاعراض رفضت الدفع وهم مستعدون لدفع 36 ريالا فقط (2) فقد امتنعت قبائل الاعراض عن دفع الضريبة الجديدة وامتثلت لدفع الاداء حسب مبلغه الاول ولكن امام انتشار نبأ عدم دفع سكان البلاد للضرائب وثورتهم على عمالهم اغتاضت جهة الاعراض على الجنرال سليم الذي التجأ الى الصرايا " بجارة " واستعدت جاره للدفاع عنه ، واصبح سهل قابس في 26 ماي 1864 كخلية النمل والعربان يتوافدون اليه من كل حدب وصوب وشاع في الناس قرب قدوم عووش ماجر والفراشيش (3) باشبه الغرب وطالب الثوار برد ما استخلص منهم متوعدين : "

(1) Cherif (M.H) Les Mouvements...P: 35.

(2) Ganiage (J): Les Origines du Protectorat Français en Tunisie (1861-1881); Maison Tunisienne de l'edition (M.T.E); 1968; 2eme Edition; P: 193.

(3) د سلامة : ثورة بن غذاهم الدار التونسية للنشر 1967 ص 66.

"ان لم يرجع الينا الوالي المال الذي اخذه منا فانه لم يخرج من قابس وسنذبحه هو وصغاره (1) لقد اصبح القائد سليم وابناؤه وممثلوا السلطة بصفة عامة مستهدفين من طرف الثوار وتراجعت جاره عن مساندة القايد امام جحافل "عرب الاعراض" الناقمة عليه وربما خشيت على نفسها بعد ما شاع خبر عزم الجنرال سليم على الفرار على متن باخرة ارسلها الباي لانقاضه كانت قد ارست بقابس في 28 ماي 1864 وانضمت جاره الى الثوار واضطر الجنرال الى ان يعيد مال الجباية الى اصحابه قبل مغادرة قابس في اتجاه باردو وعند ذهاب الوالي صارت قرى الاعراض وقبائلها تحكم نفسها بنفسها .(2)

ورغم ان قائد الثورة علي بن غذاهم كان يسعى في سبيل توحيد العمل و ينكر تجاوز الحد ويعاقب عليه ويعد باحترام المسيحيين واليهود (3) حتى يتجنب التدخل الاجنبي بتعلة فرض الامن وحماية الجاليات الاجنبية ، فقد انفجرت قلاقل في جربة منها ان الحارة الاسرائيلية غارت عليها عكارة وورغمة بالنهب والسلب مرتين الاولى في اكتوبر 1864 والثانية في جانفي 1865 دون ان تبدي السلط حراكا لمنعها ونجدة المنكوبين بها (4).

ويمكن ان يفسر ذلك بالوضع الاجتماعي بجربة وبالبلاد عامة اذ كانت بجربة وكذلك بقابس نسبة هامة من اليهود تتعاطى التجارة وصناعة الحلي وتقوم بالمضاربة المالية مما جعل هؤلاء "اليهود المرابين" ينعمون بالثروة والمال في حين كانت عامة المسلمين تعاني الفقر والحاجة

(1) نفس المصدر :ص 66
(2) رواية سيكار الى ابيه 23 ماي 1864 راجع فرانشان اعدد 149 جاءت بكتاب سلامة "ثورة بن غذاهم" ذكر سابقا ص 66.
(3) رسالة دي بوفال الى درويين دي لويس وردت بكتاب ثورة بن غذاهم المذكور ص 86 .
(4) نفس المصدر . ب). سلامة : "ثورة بن غذاهم "ص 227.

وهذا ما جعلها عرضة لنقمة القبائل الثائرة عند ما اختل الامن وتقلص نفوذ السلطة المركزية على جهة الاعراض . ولا سيما بعد ما رفعت عن اليهود " التضييقات " فاصبحوا يلبسون " الشاشية الحمراء " كالمسلمين كما ان تحركات اساطيل الدول الاجنبية المتنافسة في عرض السواحل التونسية خاصة أثناء ظهور الأسطول الفرنسي العتيد يوم 24 ماي 1864 قد احدث اضطرابا كبيرا (1) داخل البلاد التونسية واصبح الناس يتساءلون عن مصيرهم فقد كتب " سيكار " من قابس في 21 افريل 1864 يقول انه يجيب من يسأله من العرب : لماذا لا ياتي الفرنسيون ؟ " ان هذا الوقت الذي طالما وقع تمنيه ربما اصبح غير بعيد " (2) الا ان هذا التمني لاحتلال تونس كان صادرا عن الفرنسيين والقناصل الفرنسيين في كل مدن الايالة وليس صادرا عن التونسيين الذين دفع بهم خوفهم من التدخل الفرنسي وشعورهم بظلم الباي الى الاستنجاد بالباب العالي " حامي حمى المسلمين " بما ان السلطان هو خليفة المسلمين اين ما كانوا في انحاء العالم الاسلامي وقد ترجمت مظاهرة 1 جوان 1864 بجربة صراحة عن العداء للفرنسيين حيث اسرع الناس احمل اسلحتهم وانتفعت الجماهير من كل ناحية رافعين الرايات هاتفين صارخين الحرب والموت للفرنسيين المغيرين الذين يريدون الاستلاء على بلادنا "(3).

فأمام الخطر الاجنبي (الفرنسي والايطالي) طارت عقولهم (الناس) وتجاهروا بان طاعتنا لا تجب الا للسلطان العثماني (4) باعتبار ان تونس ايالة عثمانية تتمتع بالاستقلال الداخلي وان حماية الباب العالي هي خير ضمان لانقاذ البلاد ولكن

(1) نفس المصدر ص 151 .
(2) نفس المصدر ص 115 .
(3) عن أ. ديسانت ماري ترجمان قنصلية فرنسا 5 جوان 1864 ورد بكتاب "ثورة بنس غذاهم"
(4) ابن ابي الضياف اتحاف أهل الزمان ج 5 ص 163.

العائلة الحسينية كانت تخشى على استقلالها ازاء الباب العالي وترى في الاستنجاد به من ظرف مدن الساحل خطرا عليها ولهذا عمدت الى سياسة الترغيب والترهيب لكن تلك " الوحدة " التي ظهر عليها السكان لاول مرة تفصلت بين القائد والثوار بالتلويح بخفض الجباية والعفو العام. ... ومن ناحية اخرى جهزت حملات عسكرية انتقامية انتشرت في مختلف المواقع الثائرة وتكفلت محلة زروق باخماد الثورة بالساحل والاعراض وابت مدينة قابس ان تدفع الغرامات الحربية المطلوبة منها وتمسكت بمعلوم 10 ريالات واربع وبيات على الماشية حسب ما وعد به الباي فذهب اليها علي بن خليفة كاهية الاعراض والعضد الايمن لخزندار في 500 من عساكر زواوه تابعين لمحلة زروق لكن المدينة ثارت في وجهه (1) اما غالب عربان الاعراض احفلوا الى منجاتهم بظهرهم وكراعهم ولم يبق الا من اعتز بالامان (2) ففي حين هربت قبائل بني زيد والحزم وورغمة الى طرابلس وذلك لان وطن الاعراض مختلط بوطن طرابلس وبين عرب الجهتين خلطة (3) وهذا ليس بجديد فلقبيلة بني زيد مثلا " عادة " اللجوء الى صحراء طرابلس عندما لا تكون قادرة على رد هجومات سلطة البليات وذلك ان هذه السلطة لا تستطيع دخول المنطقة الا باستعمال القوة والتدخل العسكري (4) اما قبائل الجنوب الغربي ومنها " الهمامة " فقد التحقت بالمناطق الصحراوية (5) هروبا من وجه المحلة التي يقودها علي باي ولي العهد والذي اطلق يديه في اموال القبائل حسب " اوامر الباي ".

1) مصدر سابق : ب . سلامة " ثورة بترغذاهم " ص 22.
2) مصدر سابق : ابن ابي الضياف " اتحاف اهل الزمان " ج 5 ص 184.
3) نفس المصدر.
4) مصدر سابق : Mahjoubi(A):l'Etablissement... P: 19.
5) مصدر سابق : ابن ابي الضياف " اتحاف اهل الزمان " ج 6 ص 53.

ولم يغنم احمد زروق من جهة الاعراض بما غنم من جهة الساطي ولم يبق له من حيلة سوى التسلط على اهل المدن والقرى بحيث سلطت على جربة غرامة قدرها 5 ملايين ريالا (1) واحكم علي بن خليفة خليفة الاعراض من 1861 الى 1820 قبضته على الجهة التي اخضعها من جديد لنفوذ البيات الحسينين واعاد نفوذ "القائد" على خليفة بني زيد الذي كان يتبع الباي مباشرة ويتمتع بالاستقلالية عن عمالة الاعراض لمدة اربع سنوات في عهد الخليفة صولة بن سعيد (1849-1868) . الذي كان على رأس بني زيد كشيخ "للشغل" ثم خليفة يتبع الباي (2) وفي 1867 فرض عليه علي بن خليفة الدخول تحت نفوذ "قائد الاعراض" وثارت قبائل بني زيد وقتلت في شانشو ثمانية من شيوخهم المناصرين لهذا الامر .

وارسل علي بن خليفة الباي يطلعه على الوضع فامره بتأديب المتمردين بطريقة تجعلهم عبرة لمن لم يعتبر .وانجده بفرقة من العساكر تحت قيادة حسين آغا (3).

وزحفت قوات علي بن خليفة على جهة الحامة التي استعدت للقائها والتقى الفريقان في مكان يعرف بتوامة وكانت معركة دامية سقط فيها عدد كبير من الطرفين وان يقول بني زيد انهم فقدوا اقل مما فقد علي بن خليفة من الرجال (4). ومع ذلك فقد انسحب بنو زيد في اتجاه جبال مطماطة وجبل عيسى وكان يوم قيض تهب فيه رياح "الشهيلي" مما ادى الى مقتل 6000 شخص عطشا وتعبا (5).

(1) مصدر سابق : ب / سامة " ثورة بني غذاهم "ص 227.
(2) مصدر سابق : 2)I.B.L.A: Les Beni Zid...Op,Cit ,P: 435.
(3) نفس المصدر : 3)Les Beni-Zid...Op,Cit ;P: 435.
(4) مما اكده بعض المستجوبين من الحامة (الطاهر لسود - حسن الخيلوفي)
(5) مصدر سابق : 5)Les Beni Zid...OP,Cit P: 435.

وزاد ذلك في اشتعال روح الانتقام في صفوف الثائرين وضيقوا الخناق على علي بن خليفة وقوته فجاء أحمد زروق (وزير الحرب) بنفسه وغزى الحامة بعد ما فر سكانها ومع ذلك بقيت السلم مطمح بعيد الى ان قرر الخليفة محمد بن شرف الدين (1868 ـ 1874) مع جمع من اعيان الحامة الاستسلام لاحمد زروق الذي فرض غرامة حرب هامة تقدر بمليون فرنك (1).

وهكذا نلاحظ وخلافا لما هو شائع بان الثورة اندلعت في صفوف قبائل " الباشية " في الغرب (2). يبدوان الثورة قد انطلقت في صفوف " الباشية" في الجنوب منذ مارس 1864 اذ رفض عرب الاعراض دفع الزيادة في "المجبى" وانتشرت في بلاد الجريد ثم القيروان فالجهات الغربية حول الكاف لتصل في شهر افريل سهول مجردة (3). وتشتعل في ماي وجوان في مدن الساحل ولعل الثورة قد اتبعت مسلك الانتجاع بين الجنوب والشمال وهو نفس المسلك الذي اتبعته ثورة 1952.

كما نلاحظ ايضا ان قائد الثورة علي بن غذاهم ينحدر من قبيلة ماجر من الوسط الغربي للبلاد التونسية وهذه القبيلة لعبت دورا هاما في ثورة 1952 ولم يستجب عدد من ثوارها لنداء " تسليم السلاح " في 1954 وفضلوا مواصلة الثورة بالجزائر تحت قيادة الطاهر لسود مع الاشارة الى ان هذا الاخير قد تزوج أحد بنات هذه القبيلة في مطلع الخمسينات وهي الزوجة الثانية له.

1) نفس المصدر : ص 435.

2) مصدر سابق 2 Smida (M) : La Tunisie Husseinite au 19si, op,cit, p 392

3) ganiage (J): Les origines.... op,cit, p 193 مصدر سابق /.

ومن الملاحظ ايضا ان ثورة 1864 جمعت سكان البلاد التونسية الذين تناسوا الى حين انقساميتهم وعداوتهم ضد الضريبة وضد العمال ونحو مراجعة نظام جبائي مجحف ونحو حق اختيار القوم لعمالهم بأنفسهم ونحو تحوير العدالة (1). دون رفض سلطة الباب مع رغبة في تجنبهم الدولة العثمانية من الخطر الاجنبي. وهذه الرغبة في حماية الدولة العثمانية ستكون من ضمن العوامل التي مدت في عمر مقاومة الاحتلال الفرنسي للجنوب التونسي في 1881.

2)- الثورات بالجنوب في عهد الحماية : 1881- 1956.

* الثورة ضد انتصاب الحماية :

اصبحت الثورات في هذه الفترة خروجا عن طاعة الباي وفي الآن نفسه رفضا للتواجد الاجنبي "الكافر" الفرنسي مع الكفار" وسرح الجيش الذي كان يقوده ولي العهد علي باي الثالث والذي كان على اهمية الدفاع عن البلاد وفضل امضاء معاهدة باردو في 12 ماي 1881 وبالتالي التسليم بالحضور الفرنسي بالمراكز التي تراها القوات الفرنسية العسكرية صالحة لاستتباب النظام والامن بالحدود والسواحل. ويزول هذا الاحتلال عندما تتحقق السلطتان الحريتان - الفرنسية والتونسية - وتقرران معا بان الادارة المحلية قد اصبحت قادرة على المحافظة على استتباب الامن العام (2).

---

1) مصدر سابق : ب. سلامة، ثورة بن غذاهم، ص 66.

2) البند الثاني من معاهدة باردو (12 ماي 1881).

لقد عمق محمد الصادق باي بموقفه الاستسلامي عزلته عن رعيته " التي اذاقها الوان القهر والظلم اثر ثورة 1864 وكسر جناحيها بقتله الرجال ومصادرة الاملاك والاموال وها هو اليوم يسلم البلاد الى "الرومة" ويعهدها للفرنسيس "فازدادت كرها له ولبطانته من المماليك بعد ما ظهر في مظهر المتواطي" بتسريحه الجيش النظامي وامره عماله بالاستكانة والهدوء امام هجوم القوات الفرنسية على البلاد التونسية انطلاقا من ثغر الغرب الكاف وثغر الشمال بنزرت ونلمح ذلك من خلال رسالته الى القنصل الفرنسي بتاريخ 2 ماي 1881 لقد اصدرنا الامر الذي من شانه ان يمنع المواجهة بين جنودنا وجنودكم كما قلنا للقائد بألاّ يدمر بالقوة الجنود الفرنسيين الذين نزلوا بالمدينة (بنزرت) ورفعوا العلم الفرنسي على حصونها (1). وعمل الباي على اخفاء حقيقة ما يجري بالبلاد على السكان بنشر اخبار " زائفة " عن حالة الهدوء والسلم على الحدود التونسية الفرنسية عبر صحيفة الرائد التونسي من 6 افريل 1881 الى 27 منه في حين كانت تجري احداث خطيرة هناك تهدد البلاد وحتى العرش الحسيني نفسه ولكن محمد الصادق باي فضل الموقف المعتدل المفرط في السلبية على امل ان تتراجع فرنسا (2) عن قراراتها .

1) رسالة الباي الى " روسطان " بتاريخ 2 ماي 1881 الارشيف الوطني كارتون 215 ـ ملف 300 ذكرها الاستاذ صالح المثلوثي في مداخلته في الندوة الاولى لتاريخ الحركة الوطنية : (29 و30 و31 ماي 1881).

Reactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881-1983, PP: 329-351.

وهكذا فانه اذا لم تلتق قوات الاحتلال مقاومة من قبل جيش الباي فقد كان عليها ان تواجه المقاومة العنيفة التي قابلها بها سكان الايالة (1). في مواجهة عسكرية غير متكافية فالقوات الفرنسية تعداكثر من 35 الف جندي (2). وهي مجهزة باحدث التجهيزات اما من الجانب التونسي فبعض المتطوعين الذين ليس لهم في هذه الحرب سوى حماسهم وشجاعتهم واستعدادهم للتضحية بعد ما يلتحقوا من "الباي الخائن" الذي قبل الامضاء على معاهدة باردو واتبعته اغلبية من اعيان المدن وشيوخ القبائل امتثالا لأوامره وايمانا بعدم جدوى المقاومة التي هي بمثابة الانتحار في ذلك الظرف التاريخي.

* المقاومة بمدينة قابس:

تناقلت الافواه ما يجري في البلاد لا سيما ما يحدث في مدينة صفاقس التي تربطها بمدينة قابس علاقات تجارية وادارية، وانتشر الفزع في صفوف "القوابسية" واصبحوا يتوقعون قدوم الفرنسيين اليهم خاصة بعد ما سقطت مدينة صفاقس في 16 جويلية 1881 (3) في يد الفرنسيين فاتجه بعض الاعيان من البدو يتقدمهم

1) علي محجوبي "مقاومة السكان التونسيين للاحتلال الفرنسي" المجلة التاريخية المغربية، السنة 11 عدد 33/34 جوان 1984 ص 111/124

2) فهي تبلغ 40 الف جندي حسب علي المحجوبي، "انتصاب الحماية" ص 46 وهي 38 الف حسب حسن حسني عبد الوهاب "خلاصة تاريخ تونس" ص 213.

(3) Ayachi (T), L a Ressitance Sfaxienne à l'Occupation Colonial en 1881; Reactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881; Actes du 1er Seminaire sur L'Histo du Mouvement national, (29-30 et 31 Mai 1981); Tunis, 1983 P P 161-191.

الحاج صالح بن خليفة شقيق قائد نفات (علي بن خليفة) نحو قابس لتنظيم المقاومة بهذه المدينة (1).

وعلاقة " نفات" بجهة الاعراض قديمة فنتيجة نمط الانتاج الرعوي الذي تعيش عليه القبيلة في مضاربها بجهة " ودران " قرب الصخيرة تحتاج القبيلة في معاشها الى خلق علاقات تكميلية مع جهات اخرى من الايالة ومنها جهة الاعراض (2). وخاصة واحة قابس التي تتوافد عليها القبائل في فصل الخريف لجمع صابة التمور ، فتحل قبائل " المهاذبة و " نفات " القادمة من ودران بالتخوم الشمالية والغربية للواحة خاصة قرب " شط الفاريك " وهو صبخة تركد بها المياه وتكثر على جوانبها الاملاح وتمتد بين النخال وشنني ولذلك فهي مهملة وعادة ما تستقطب الى اليوم النازحين الى قابس للعمل . في حين تنزل قبائل ورغمة " بكتانه " جنوب قابس ويبيع هؤلاء " النازحين الموسميين " لسكان الواحة الدجاج والبيض والصوف ، ويضربون حول الواحة الخيام (3) ويقدم البعض منهم مؤقتا وبصفة دورية عند بعض القوابسية الذين جمعتهم بهم علاقات صداقة ومصلحة مشتركة و تدريجيا تمكن بعض " النفاتية " من امتلاك قطع من الواحة حيث بلغ عدد الملاكة منهم في سنة 1840 بشنني 101 لهم 1/8 من النخيل اي 2679 شجرة((4). الا ان هذا الحضور قد تدعم بعد ان اصبح علي بن خليفة "

---

1) مصدر سابق : علي محجوبي : مقاومة السكان التونسي ص 116 .

(2) Kraiem (A): Ali Ben Khalifa An - naffati , avant 1881;Reactions à l'occupation Française de la Tunisie en 1881, Tunis, 1983, P P 145 - 156.

3) انظر ملحق الصور .

4) مصدر سابق : Kaiem (A) : Ali Ben Khalifa ...op, cit; P 149

خليفة على عمالة الاعراض التي يقيم قائدها بالحاضرة وبالتالي يكون النفوذ الحقيقي بيد "الخليفة" و قد خلف الباي علي بن خليفة النفاتي بان يفرض الامن ويقضي على الانتفاضات هناك وينقذ البلاد من الخراب (1). لذلك مارس علي بن خليفة شتى انواع التعسف والقهر على سكان الاعراض فصادر الاملاك وخص نفسه واهله ببعضها خاصة القريبة من شط الفاريك "(2) حيث شيد علي بن خليفة مقرا لاقامته (3) رغم ان دار الخليفة توجد بمنزل قابس و يمكن ان نفسر ذلك بانه كان يرغب في ان يكون في حماية نفات المستقرين بشنني لا سيما انه اصبح يواجه موجة احتجاج عن سياسته القهرية في جميع الضرائب من " مبعاد " جاره وشنني والمطوية الى ان اضطر البعض الى التداين من اليهود والمسيحيين (4) بالاضافة الى استعماله القوة العسكرية لكسر شوكة قبائل الاعراض المتمردة على السلطة المركزية .

ولعل هذه السياسة قد جلبت له الكره بالاضافة الى كونه ينتمي الى صف " يوسف" عدو صف "شداد " ومن ناحية ينحدر من عائلة "مخزينية" تتوارث خدمة البايات منذ العهد المرادي مقابل اعفائها من الضرائب وهذا ما جعلها تتمتع بنفوذ اقتصادي ونفوذ اداري ولكن " بازد راء " العامة ويمكن ان نلمس ذلك من خلال هذا المثل الشعبي المتداول في "قابس" "صحبتك في الثلاثة عار :وصيف ومخازني وجزار"

---

1) مصدر سابق : Garriage (J), Les Origines...Op.Cit,P 122.

2) مصدر سابق : البشير العربي ، التحولات الاجتماعية ... ص 274

3) مصدر سابق : Kraiem (A), Ali Ben Khalifa...Op,Cit.P 154.

4) نفس المصدر ، ص 155.

(1)ومن ناحية اخرى يعتبر القوابسية وخاصة سكان شنني ان " النفاتية " المتواجدين بينهم هم " دخلاء " و"برانية " ومهما بلغوا من ثروة وجاه فهم " منبتين " مما دفع بعضهم الى الزواج من بنات شنني ولو بصعوبة ويمكن ان نذكر علي بن خليفة نفسه الذي تزوج باحد بنات شنني " ضرة " لزوجته النفاتية .اعتقاد/ منه بان رابطة النسب يمكن ان تقلص من عوامل الرفض والكره ويخفف من شدة التوتر بينه وبين من نصب عليهم كخليفة .

ومع هذا فاننا نلاحظ ان علي بن خليفة الذي قاد المقاومة في صفاقس قد تجنب قيادة المقاومة في مدينة قابس وفضل بعد انسحابه من صفاقس المرور بعقارب ثم الشعال ومنها الى وادران ثم الحامة فالمطوية وبعدها الى ما بعد واد الزاس في طريقه الى طرابلس (2). بينما دخل اخوه صالح بن خليفة بقابس لتنظيم المقاومة بها ويبدو ان المدينة قد اتخذت هذا القرار حتى قبل مجيء الاسطول الفرنسي الى سواحلها يوم 24 جويلية 1881 فبعدها ارست اول باخرة حربية فرنسية بهذه المدينة يوم 21 جويلية 1881 بعث قائدها برسالة يطلب فيها من الاهالي توضيح موقفهم تجاه القوات الفرنسية ، وانعقد لهذا الغرض اجتماع عام في دار الخليفة بمنزل قابس ضم اعيان وشيوخ المدينة ومنهم القاضي والمفتي ووكيل جمعية الاحباس وغيرهم(3) .

وكانت مدينة قابس في اواخر القرن 19 تتكون من نواتين سكانيتين (المنزل وجاره) وحي باب البحر (4) الذي يسكنه

1) ويفسر هذا المثل على ان الوصيف هو عبد اسود يعمل بالمنازل ولا تستحيي النساء منه ويلقب بكلمة "باك علان" وهي تحمل الكثير من الميز العنصري والنظرة الدونية .
المخازني : وهو من باع نفسه للباي واصبح عصاه التي يضرب بها الرعية لذلك فهو مكروه
الجزار : وهو الذي كان يقوم بذبح بعض الماشية ويبيع لحمها في السوق

2) مصدر سابق :
3) = = : علي محجوبي : مقاومة السكان التونسيين ص : 116
4) Hayder(A)L'Industrialisation à Gabès et ses Consequences, Publications de l'Université de Tunis, 1986,P 55.

2)Ayadi(T):La Resistance...OP,Cit,P 185.

الاروبيون وبعض اليهود لان عدد منهم كان يقيم في حارتهم داخل المنزل او جاره .

وكان رد السكان متباينا حسب الاحياء السكانية والانتماء الطبقي .

- اليهود وكان عددهم في مدينة قابس سنة 1860 حسب (Ganiage) يتراوح ما بين 325 - و 350 يهودي (1)

فاليهود امام ما اقتلعوه من حقوق في عهد احمد باي ومحمد باي من رفع المظلمة عنهم بفضل جهود القناصل الاروبيين - اصبحوا يعتبرون انفسهم في حماية الدول الاروبية وليسوا رعايا الباي ولا ابناء تونس . فالبرجوازية اليهودية انتقلت اقتصاديا وثقافيا الى معسكر الدول الاروبية المغربية (2) . من قبل المجيء الفرنسي الى تونس .

ولهذا سيكون اليهود اول من انظم الى الفرنسيين من سكان قابس بعد ما ارست سفنهم عرض البحر قبالة الشاطيء ووجهت افواه مدافعهم في اتجاه المدينة .

بلدة جارة : كانت المحطة الثانية في طريق الفرنسيين العازمين على غزو المدينة وكان موقفها من الحضور الفرنسي متناقضا تناقض مصالح سكانها فمنذ اجتماع دار الخليفة بالمنزل الذي حضره جمع من اعيان جاره يتقدمهم وكيل جمعية الاحباس الحاج احمد بن جراد الذي دعا الجماعة الى الخضوع لقوات الاحتلال (3) دعا الاغنياء من اعيان جارة كما يرى في سائر مدن الايالة - الى قبول الامر الواقع والامتثال لارادة الباي ولذلك عند ما حل الاسطول الفرنسي بمناء قابس خرج اعيان جارة لاستقبال الجنود الفرنسيين في مدخل البلدة ويمكن ان نفسر هذا بالنظرة الواقعية

---

1) Ganiage(J): La Population de la Tunisie vers 1860,Essai d'Evaluation,d'Aprés les registres Fiscaux! Impopulation,Sept-Oct,1966,N P:879.

2) Cherif(M.H):Les Reactions Citadines à l'Ocupation Française de la Tunisie en 1881 et leurs limites,Reactions à l'Occupa Op,Cit,P.P: 227-238.

ي المحجوبي : مقاومة السكان التونسيين للاحتلال الفرنسي عن المجلة التاريخية المغربية سنة الحادية عشر العدد 33-34 جوان 1934 تونس ص: 116 .

للموقف فقد وصلت اخبار عملية الجنود الفرنسيين التي مارسوها في صفاقس من تنكيل وتخريب وقتل نتيجة رفض الحضور الفرنسي . ومع ذلك ورغم صمودها فقد سقطت في يد الفرنسيين الذين هم اكثر عدة وعتاد ولم تات بعد الدولة العثمانية لنجدتها . ولذلك كان يخشى هؤلاء على انفسهم واملاكهم من التلف فهم لا قدرة لهم على المواجهة بالاضافة الى ان موقف الاستسلام قد يحسب من صالحهم وبالتالي يضمنون بعض المراكز والنفوذ في ظل النظام الجديد .

اما العامة وخاصة فقراء جارة الذين ليس لهم ما يخشون عليه فقد انضموا الى المقاومة غيرة على بلادهم التي اجتاحها " الكفار".

بلدة المنزل لقد رفض ممثلوها في اجتماع "دار الخليفة" الحضور الفرنسي " وازداد هذا الموقف تصلبا بعد ما جاءت اخبار تقول بان جيش السلطان قد نزل بطرابلس وعما قريب سيصبح بقابس.(1).

ومن جديد انقسمت المدينة الى شقين شق مؤيد الباي وينادي بالخضوع للقوات الفرنسية ويضم اغلبية من "جارة " و شق رافض الامتثال لاوامر الباي وللحضور الفرنسي و يعلل النفير بنصرة الباب العالي له . ويضم اغلبية المنزل وعلى راسهم المفتي الحاج " الجيلاني الحبيب" وهو من شيوخ العلم والدين بقابس ومن عائلة عريقة في القضاء ولد بقابس في 1835(2).

وقد عارض دخول الاستعمار بشدة إذ كان يعتقد ان فرنسا لو

---

(1) 1)Mahjoubi(A) et Karaoui Hachmi:Quant le Soleil s'est levé à l'Ouest:Tunisie en 1881; Imperialisme et resistance, Tunis,1983 P 108.

(2) السجل القومي لشهداء الوطن.

انتصبت بتونس فسوف لن تخرج منها ولهذا اوصى بان يعلموه بخروجها حتى وهو في القبر (1) ولم يكتف الجيلاني الحبيب بالرفض الذي ابداه خلال اجتماع " دار الخليفة " بل امتطى جواده وتزعم ثوار " المنزل " ونادوا بالجهاد ويوم 24 جويلية 1881 وصل الاسطول الفرنسي الى قابس وقصفت البارجة " " المنزل وسيدي ابي لبابه (2). والبرج الذي كانت اقامته سلطة البيات لتحول دون المصادمات الدامية التي كانت تندلع من حين الى آخر بين جارة والمنزل فانصب البرج على خط التماس ليحتل موقع استراتيجيا لمراقبة التحركات سوى في بلدة جارة او في بلدة المنزل اللتان تكونان المدينة . ويوم 25 جويلية تمكن الجنود الفرنسيون من اقتحام البرج والانتصاب به ليطلق النار على الثوار المجتمعين بالمنزل .اذ اصبحت المنزل مركزا للمقاومة يقبل اليها المقاومون من جميع قرى واحة قابس مثل شنني وغنوش وبوشمخة وو ذرف والمطوية والحامة وكذلك من قبائل نفات وبني زيد والحزم وورغمة كما التحق بصفوف المقامة جمع من فقراء جارة (3) :ورغم القصف فقد هاجم الثوار يوم 25 جويلية سوق جارة ويتقدمهم المفتي الجيلاني الحبيب (4). ودارت معركة بينهم وبين الجنود الفرنسيين انسحب بعدها هؤلاء الى الشاطيء حيث اقاموا معسكرهم وتمركزوا في موقعهم الهجومية ويوم 26 جويلية اجتاحت القوات الفرنسية بلدة جارة بقيادة " الكولوثيل " " جامي " " واحتلتها كما قصفت المنزل من جديد

---

1) حسب رواية الحاج الشيخ التهامي التركي مناضل ودستوري كان كاتب عام شعبة المنزل ما بين 1950 و1952

2) Bechraoui(A):La Vie Rurale dans l'Oasis de Gabes Université du Tunis, 1980,P:216.

3) = = : المحجوبي علي :مقاومة السكان ص 116.

4) استجواب " عمر السراي" من طرف جمعية البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بقابس ماي 1985

4)Mahjoubi et Karaoui;Quand le Soleil...Op,Cit..1985 P: 108.

فتهدم جزء من البرج والعديد من المنازل وتحصن الثوار بالجامع الكبير بالمنزل . وفي يوم 27 جويلية هاجمت القوات الفرنسية بلدة المنزل بعد قصف شديد من الابرج في اتجاه الثوار المجتمعين بالجامع الكبير وقد اصابت احدى القبائل المسجد فتملك الغضب بالحاج الجيلاني الحبيب فخرج من المسجد كارها ان يموت دون ان يصيب احدا او اثنين جنود العدو . وقد التقى بفرقة من القوات الفرنسية قرب حمام المنزل ودارت معركة بينه وبينهم فنال منهم ونالوا منه (1). واستشهد يوم 27 جويلية 1881 (2). وتراجع الثوار الى الواحة في حين قام العديد من الاهالي خارج المدينة يحملون معهم ما خف حمله وغلا ثمنه من اموال وذهب واجتاحت القوات الفرنسية بلدة المنزل التي اصبحت عرضة للنهب والسرقة . ولما عاد الهاربون فيما بعد لم يجدوا ما تركوه من مؤونة وملبس وادواة فاضطروا الى عرض " الذهب" الذي فروا به على التجار اليهود لبيعه الا ان هؤلاء كانوا يغرونهم برهنه لديهم وبعد زمن استولى اليهود على ذهب سكان المنزل لأنهم لم يقدروا على فكه من الرهن (3).

اما المقاومون فقد التجؤوا الى الواحة التي شكلت ملجأ حصينا لهم ومنها انطلقت غزواتهم ضد سكان جارة الخاضعين للعدو وكذلك القوات الفرنسية التي كانت تقوم من حين لآخر بعمليات تنشيط بالواحة وكثيرا ما تقع في يد الثوار فينكلون بها ، فمثلا في 22 جويلية 1881 اسر رجال المقاومة ثلاثة جنود فرنسيين واعدموهم حرقا ببطحاء بلدة شنني بحضور الحاج صالح بن خليفة (4).

1) حسب رواية الشيخ التهامي التركي . ذكر سابقا .
2) وثيقة معلقة بجدار "الجامع الكبير" بالمنزل .
3) استجواب عمر السراي ذكر سابقا .
4) مصدر سابق : علي المحجوبي : مقاومة السكان التونسيين ص 117 .

وصمد الثوار لمدة تزيد عن اربعة اشهر بفضل بعد المسافة وحرارة الصيف (1). مما جعل السلط الاستعمارية تتهاون في اقتحامها الى نهاية شهر نوفمبر 1881.

لماذا نفسر هذا الموقف ؟

ويفسر الدكتور محمد الهادي الشريف هذا التصدي الذي ابدته مدينة قابس للحضور الفرنسي في 1881 لان تسرب التأثيرات الاروبية الاقتصادية والسياسية والثقافية الى مدينتي صفاقس وقابس الواقعتين على الساحل الجنوبي كان قليلا بالمقارنة مع مدن الساحل والشمال وهذا ما جعلهما تنفتحان اكثر بحكم مصالحهما على الشرق الاسلامي (الاسكندرية اسطنبول - سميرن) بالاضافة الى بعد منطقة الجنوب عن مركز الحكم مما جعلها تشهد العديد من التوترات (2).

كما تمكن الاجابة بان مدينة قابس هي اقرب الى القرية منها الى المدينة بحكم سيطرة النشاط الفلاحي بها وعلاقة سكانها بالبدو (3). (نفات - مهاذبة - ورغمة - بني زيد فهؤلاء عادة ما تكون لهم مصالح مشتركة مع سكان المدينة حسب الانتماء الى "الصف" فمثلا يتعامل بني زيد مع جارة في حين يتعامل نفات مع شنني والمنزل الى ان تمكن بعضهم من الاستقرار وامتلاك النخيل بالواحة (4).

كما ان عددا كبيرا من الفلاحين "القوابسية" يقومون بالحرث في اراضي العروش خارج الواحة لتوفير حاجياتهم من القمح والشعير. ولهذا لا بد من توفر علاقات صداقة بين سكان المدينة ومن جاورهم ولا سيما ان بعض الفلاحين القوابسية

1) مصدر سابق : 1)Cherif(M.H): Mouvements Paysans dans la Tunisie du XIX Siecle...Op,Cit, P 39

2) مصدر سابق :2)Cherif(M.H):Les Reactions Citadines...Op,Cit,P 234

3) عروسية تركي :المقاومة المسلحة بجهة الاعراض (1952-1954) شهادة الوفاء في البحث زكلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامة تونس 1 - 1989ص38.

4) مصدر سابق : 4)Kraim (A):Ali Ben Khalifa...Op,Cit, P 154.

كانوا يمارسون تجارة التبغ الممنوعة (الكنترا) مع البدو الذين يستخدمون التبغ لمداواة لغنامهم من مرض "الجرب" او يستعملونه للتدخين كسجارة ملفوفة مختلطة بحشيش الجبل "العرعار" او نفة "".

ورغم هذا التكامل بين سكان المدينة والريف فان القوابسية كانوا يرفضون "البراني" حتى ولو كان تنسي فما بالك اذا كان اجنبي و خاصة فرنسيا ؟ فهؤلاء لم ينسوا احتلال فرنسا للجزائر منذ خمين سنة وربما هذا ما عمق الشعور بضرورة الجهاد والمقاومة والنقمة على الفرنسيين دون غيرهم من الاروبيين ولعل امام تواطوء الباي مع الفرنسيين "الكفار" حتى على بعض عناصر من جهازه الاداري ومن حكومته التمرد عليه والعصيان ومن هؤلاء نذكر باش مفتي الاعراض "علي الحبيب بن الحاج الحبيب بن عيسر" الذي خرج عن طاعة "اولياء الامر" ونادى بطاعة السلطان خليفة للمسلمين "ويؤيده في ذلك قائد نفات وخليفة الاعراض سابقا "علي بن خليفة" الذي ارتد عن مساندته التقليدية للباي وخرج عنه لانه قبل بمعاهدة 12 ماي 1881 وبالتالي "باع البلاد الى الفرنسيين وفقد نفوذه على البلاد والعباد وانفلت منه زمام الحكم واتخاذ القرار فاصبح ذلك من مشمولات السلط الفرنسية. اما صمود المدينة امام قوات الاحتلال فيمكن تفسيره بعدة عوامل :

1) دعم قبائل نفات وبني زيد للمنزل التي صمدت لاكثر من اربعة اشهر و لم تتمكن الجيوش الفرنسية من فرض رقابة فعلية على واحة قابس الا في موفى شهر نوفمبر 1881 (3).

---

1) وهو الاسم الذي اورده اندري مارتال لزعيم المتمردين بالمنزل انظر كتابه (Les Confins...) p.231,

2) مصدر سابق : Cherif (M.H) : Mouvements Paysans...OP, Cit, P 43

3) مصدر سابق : علي محجوبي . مقاومة السكان . . . ص 111 وص 112 .

2)- احتضان الواحة للمدينة وانفتاح هذه الاخيرة عليها مما جعلها ملجأ للثوار وحصنا دفاعيا هجوميا تخشى القوات الفرنسية غير المسلمة بمتهات هذه الادغال التوغل داخل الواحة المؤدية بدورها الى ربى واحراش مرتفعة نسبيا بها كثير من المغاور (رأس الوادي) تشكل مخابي طبيعية للمتمردين وتسمح بشن حرب عصابات ضد قوات الاحتلال .

فالواحة بالاضافة الى كونها توفر حاجيات السكان للعيش فهي توفر لهم الحماية ولهذا كانت القوى المهاجمة للمدينة قديما تلجأ الى قطع نخيل الغابة او حرقها حتى تجبر السكان على الخضوع ويمكن ان نستشهد بما ذكره الرحالة "التجاني" عما فعله يحي بن اسحاق الصورفي عند اقتحامه قابس في القرن الثاني عشر ميلادي : " فلما انقضى اجله الذي حد (وهو ثلاثة ايام) ولم ير منهم اجابة ولا انصرف منهم انابه ، زحف بجموعه فحاصرها حصارا شديدا وقطع جميع غاباتها فيقال انه لم يبق منها الا نخلة واحدة تركها عبرة لهم ، فأنابوا له بعد ان اشترطوا عليه مسالمة واليهم " ابن تافراجين " وان يتوجه باهله وماله في البحر ، فاشترط لهم ذلك ورفض به واغرمهم ستين الف دينارا عقوبة لهم (1) .

3)- بعد المسافة وحرارة الصيف (2) جعل السلط الاستعمارية تترقب في ارسال مزيد من الجنود لارغام المدينة على الخضوع واكتفت باحتلال جارة والمنزل دون الواحة وقراها . وما ان خف القيض وتراجعت الحرارة في الخريف حتى شنت

1) ابو محمد عبدالله بن محمد بن احمد التيجاني " رحلة التيجاني "الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 19 81 ، ص 106 .

2) Cherif (M,H) : Mouvements Paysans...P 39 مصدر سابق :

هجماتها من جديد على كافة انحاء الايالة فاقتحمت القيروان وقفصة وقابس التي اكتسحتها في هذه المرة جيوش البر في 28 نوفمبر 1881 واستسلمت الواحة في 29 نوفمبر بعد ما تراجع عنها الثوار نحو اقصى الجنوب في اتجاه وادي قفصة ومنه الى طرابلس (1) وبعد سلسلة من المعارك اندلعت منذ اواخر اكتوبر حتى شهر نوفمبر .

4) اندلاع اضطرابات في الجزائر " المستعمرة الفرنسية " تضامنا مع الشعب التونسي وتنديدا بالاستعمار الفرنسي خاصة بالحدود التونسية الجزائرية مما ادى الى تشتيت القوى العسكرية الفرنسية في فترة ينادي فيها البرلمان الفرنسي بعدم الاسراف في التمويلات العسكرية .

وهكذا ادت هذه العوامل الى اطالة فترة الصمود والمقاومة بقابس الى اكثر من اربعة اشهر ينسحب بعدها رجال المقاومة في اتجاه الجنوب ويفضل بعض سكان المنزل "الهجرة" عن الخضوع للاستعمار لما للهجرة من دلالة دينية في التاريخ الاسلامي، وعلى أمل مساعدة الدولة العثمانية لهم على استرجاع "الوطن المسلوب" ومسقط رأسهم .

*مقاومة قبائل الجنوب للاحتلال الفرنسي :

ما عدا مدينة قابس حيث تحالف البدو مع المستقرين على المقاومة وحول مبدإ الجهاد، فان معظم سكان الجنوب المستقرين بقفصة والجريد وجربة وجرجيس قد استسلموا لقوات الاحتلال دون مقاومة تذكر خوفا من اعمال البدو "الهائجين" فقد فضل سكان جربة وسكان جرجيس النظام الفرنسي على فوضى البدو كما اسرع أعيان جربة والسلط المحلية بها رمز الثورة والجاه الى الخضوع دون خوف

1) مصدر سابق : 1) Martel (A) Les Confins ... T 1 , P 247

من معارضة جادة من طرف بقية السكان وانما خوفا من البدو مما عزز الجانب الفرنسي(1). على حساب المقاومة التي انحسرت بعد سقوط القيروان في جهة الجنوب التي تحولت الى " معسكر" للقبائل الرحل او شبه الرحل من كافة انحاء البلاد .

اما قبائل الجنوب مثل الهمامة وبني يزيد وورغمة فقد انتفضت حال انتشار خبر اقتحام القوات الفرنسية التراب التونسي وتواطؤ الباي معها بقبوله الامضاء على معاهدة باردو التي "تسلم البلاد للفرنسيين" فوقعت التعبئة العامة وانعقدت "الحلقة" و"البيعاد" في نطاق ضيق محلي وفي نطاق واسع على مستوى القبائل وشارك الهمامة وبنو يزيد الى جانب نفات في اجتماع زاوية سيدي حسن بالحاج ما بين صفاقس واللجم "بالحنشة" يوم 6 جوان 1881 واتفقوا على الا يغفروا للباي ما اقترفه في حق الرعية وذهبوا الى ارسال ثلاثة الاف فارس الى " خمير" لتحريرها من الفرنسيين الا ان هذا القرار يستوجب استشارة شيوخ القبائل (2).

وتسرب خبر مساندة القبائل لمدينة صفاقس فألهب " الثورة " . كما زاد التحام القبائل الثائرة بالمتمردين في مدينة قابس المقاومة عزما وصمودا .

الا ان هذه الحشود من القبائل الثائرة والعاصية التي ليس لها من السلاح سوى بعض البنادق اليدوية "كمكحلة الصوان" تراجعت ودحرت امام هجومات القوات الفرنسية المدججة بالسلاح الآلي المتطور والتجأ من رفض الخضوع منها الى الجنوب في طريق هجرتها الى طرابلس.

---

1) مصدر سابق : 42 Cherif(M.H):Mouvements Paysans...P: 42.

2) مصدر سابق : 167 Ayadi(T):La Resistance sfaxienne...P:167.

ومن هنا يبدوان مقاومة قبائل الجنوب والقبائل التونسية ككل لم تلتزم بالدفاع عن جهة دون اخرى او بقيادة احد دون آخر ، بل نجدها مجتمعة في صف واحد في مواجهة الاحتلال والتعرض للذين خضعوا له .

وهذه القبائل كانت قد اكتسبت خبرة عسكرية نتيجة تصادمها في ما مضى بالقبائل المعادية في نطاق " الصف" او بالمستقرين في نطاق "الغزو" او بالسلطة المركزية في نطاق التهرب من دفع الضرائب ، فهذه القبائل كانت تعيش حكما ذاتيا " في مواطنها البعيدة عن السلطة المركزية التي ما انفكت تطاردها لاجبارها على دفع الضرائب الى درجة ان سيعاد بني يزيد هدد الباي في 1869 بالاستنجاد بالفرنسية وحمايتهم (1). نظرا لما لاقوه من تعسف واضطهاد مارسه عليهم علي بن خليفة الذي كان اداة فعالة في خدمة البيات الحسينيين لقهر قبائل الجنوب الثائرة واجبارها على دفع الضرائب والخضوع للسلطة المركزية منذ 1840 .

فكيف سيكون قبول هذه القبائل المضطهدة السيء وراء " جلادها بالامس " علي بن خليفة لمقاومة من كانوا بالامس يهددون باللجوء الى حمايته ؟

لقد كان لسقوط القيروان في اواخر اكتوبر 1881 تأثير كبير على انعطاف البدو نحو الجنوب الذي لم يسقط بعد في يد الفرنسيين .

---

1) مصدر سابق : Cherif(M.H): Mouvements Paysans...Op,Git, P 40.

بحيث انضم الى نفات جلاص المقيمين بجهة وذرف والمساهمين في معارك قابس جمع من الثالث واولاد عزيز بينما حلت اغلبية من السواسي والعقارية بالحامة حيث التجأ اولاد سعيد الى اخوتهم في صف شداد بني زيد (1). اما الهمامة الذين كان يقودهم احمد بن يوسف فقد قطعت شط الجريد وحطت بالمقيطع (2). في انتظار ان تلتحق بهم بقية العربان الا ان نزول الامطار بغزارة عطل بعضها وجعل اخرى تتردد في مغادرة الديار لان المطر تعني الخير والصابة ولكن القوات الفرنسية التي اصبحت بمقتضى معاهدة باردو مسؤولة عن استتباب النظام والامن بالحدود والسواحل اصبح من واجبها تطهير الجنوب التونسي الذي انحسرت به المقاومة واحتشد به المناوؤن للحضور الفرنسي فانعدم الامن وانتشر الفزع والفوضى .

ولذلك ما ان سقطت قابس " بوابة الصحراء " في يد الفرنسيين حتى اسرعت عدة مناطق مجاورة بتشكيل لجان تقوم باعلان خضوعها لدى" الجنرال الليقروا حتى قبل حلول القوات الفرنسية بارضها مثل ما فعل سكان مطماطة والحامة التي دخلها الجيش الفرنسي يوم 3 ديسمبر 1881 بدون صعوبة بعد ما غادرها معظم بني يزيد الى سيدي " قناو "في طريقهم الى المقيطع حيث سيكون لقاء القبائل الثائرة في اتجاه طرابلس ،وفي سيدي قناو احتد الجدل بين افراد بني زيد لاتخاذ القرار الصائب في مسألة شائكة للغاية

1) مصدر سابق : البشير العربي : التحولات . . .ص 237 .

2) المقيطع : تشكل على الحدود التونسية الليبية منطقة رعي لقبائل ورغمة وكذلك للقبائل الطرابلسية (النوائل والمحاميد) وهي بمثابة اقليم مستقل عن تونس وعن طرابلس اذ بالنسبة للقوات الفرنسية يعتبر وادي " قابس " هو الحد الفاصل بين البلدين وبالنسبة لطرابلس وادي " مقيطع " هو الحد (Mahjoubi (A) : l'Etablissement...OP,Cit,P,11)

فهل يغادرون اراضيهم بعد ما نزلت الامطار بغزارة ويفرطون في صابتهم ليعيشوا لاجئين متشردين في طرابلس ؟ وهل يواصلون مقاومة الاحتلال الفرنسي تحت راية علي بن خليفة متناسين ما فعل بهم اثناء ثورة غومه المحمودي او اثناء ثورة 1864 وهل يقبلون ان يخوضوا معارك ضد فرنسا جنبا الى جنب مع اعدائهم التقليديين صف يوسف وعلى ارض ورغمة .

وساد التردد بني زيد فكانت القرارات الفردية بحيث اتخذ البعض قرارا " الخضوع" بينما اتخذ البعض الآخر قرار "الهجرة" ومواصلة الكفاح .

بقيت اغلبية من بني زيد من اجل الحرث في حين هاجرت مجموعة من عروشهم بزعامة بلقاسم بن سعيد مع علي بن خليفة في اتجاه طرابلس. وفي 6 ديسمبر 1881 ، التقى محمد بن شرف الدين زعيم بني زيد بقائد القوات الفرنسية الجنرال " ليقرو" وبلغه خضوع بني زيد واستسلامهم وكان مقابل ذلك حصولهم على الامان المطلق مع اطمئنانهم بعدم التتبعات لما ارتكبوه اثناء الثورة كما تلقوا وعدا باستثنائهم من دفع غرامة الحرب(1)

اما محمد شرف الدين فقد اعتبره الفرنسيون من ذلك الوقت مساعدا مخلصا وأحد زعماء القبائل من اهل البلاد الذين يمكن للسلطة العسكرية الفرنسية الاعتماد عليهم (2) ولهذا عين خليفة من جديد لبني زيد والحامة تحت سلطة عامل الاعراض ، وقد ساهم محمد شرف الدين في عمليات اخماد حركات المقاومة بالجنوب الى جانب الجيش الفرنسي فقد جاء في مراسلات قائد حامية قابس الى القيادة العامة لجيش الاحتلال

---

1) محمود فروة : المقاومة المسلحة في تونس خلال القرنين التاسع عشر والعشرون مثال قبيلة بني زيد (جهة الاعراض) ، اعمال الندوة الدولية السابعة حول المقاومة المسلحة في تونس في القرنين التاسع عشر والعشرين ، المنعقدة ايام 18 و 19 و 20 نوفمبر 1993 بتونس ، منشورات المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية ، تونس 1995 ص ص 43 ـ 65.

2) نفس المصدر : ص 60 .

بتاريخ 20 مارس 1383 : " ان مصالح عسكرية و سياسية ذات اهمية قصوى حتمت علينا العمل من اجل وقوف قبيلة بني زيد الهمامة الى جانبنا ، وقد تم الحصول على هذه النتيجة واعتقد انه يحق لنا ان نبتهج لذلك خاصة في وقت نرى فيه عدد قوات الاحتلال يتناقص بصفة جلية ... ان هذه القبيلة دعيت على سبيل المثال خمس مرات منذ سنة لأستنفار قواتها من فرسان و مشاة (1) .

و من ذلك مثلا انه في 5 اكتوبر 1382 هاجم فرسان بني زيد و على رأسهم محمد شرف الدين حوالي 30 فارسا من قبيلة الحوايا المناهضة للوجود الفرنسي ، بالقرب من مدينة تمزرط و قتلوا 15 رجلا و غنموا 191 جوادا . (2)

يبدو ان السلط الاستعمارية قد عمدت الى ما كانت تعمد اليه سلطة البايات الحسينيين من استغلال عداء " الصف" لضرب القبائل بعضها ببعض قصد ان تتمكن من تحقيق الهدوء والاستقرار و لو لحين ، بينما يتبادر الى ذهننا ان تخلف قسم هام من بني زيد عن مواصلة الرحلة الى طرابلس لم يكن فقط بقصد الحرث مثلما هو معلن وانما تعلة لمداراة خوفهم من اجتياز اراضي ورغمة ، اتباع صف يوسف و تحت راية علي بن خليفة و هو ايضا من صف يوسف ، و مع ذلك فقد هاجر جزء من بني زيد نحو اراضي ورغمة رغم ان فرنسا قد لوحت بالامان مكتفية في البداية باعتبار وادي فسي حدّا شرقيا لرقعة تواجدها في تونس وكان على الجنيرال الليقرو اخضاع هذه المنطقة و تركيز

---

(1): 1)M.A.E(Ministére des Affaires Etrangères)Fonds de la Residence, Tunisie,Notices de Tribus, carton 115 , P 56.

2) تقرير المقيم العام الى الوزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 12 اكتوبر 1382 (ورد بمداخلة محمود فروة في الندوة الدولية السابعة حول المقاومة المسلحة في تونس ... مصدر ذكر سابقا ص 50) .

التواجد الفرنسي بالساحل الشرقي منعا لكل محاولة لإ نزال عثمانية او مد المقاومة التونسية بداية مساعدة عسكرية خاصة امام الاشاعات التي كان يروجها اعوان السلطان في هذا الباب وقد تحدث اندري مارتيل عن هؤلاء الاعوان بانهم يعملون باسم " سر الخليفة" المتباين عن سياسة الباب العالي الرسمية فهم يجعلون الناس يعتقدون في ان القوات العثمانية المتمركزة في طرابلس ستدعم المقاومة ولكن هذه القوات في الواقع غير قادرة عن مواجهة القوات والاسطول الفرنسي بمفردها لذلك لم تحرك ساكنا (1) فتونس قد ضاعت في نظر العثمانيين مثلما قد ضاعت الجزائر من يدهم في 1830 وعليهم انقاذ طرابلس حتى لا تقطع يدهم نهائيا ويزول نفوذهم من بلاد المغرب غير ان التونسيين " الرافضين" الذين وقعوا فريسة " الاشاعات " توهموا ان " خليفة المسلمين " بامكانه التصدي لحضور الفرنسيين " الكفار" بتونس فكانوا مصرّين ومتحمسين للمقاومة على امل وصول " الامدادات" وكانت القوات الفرنسية تدفع بهم امامها في اتجاه الحدود التونسية الطرابلسية وراء وادي فسّي .

وهكذا اصبحت مجالات نجع ورغمة محط انظار السلطات العسكرية الفرنسية والسلطات العثمانية بطرابلس واسطنبول فضلا عن زعماء المقاومة ولم تلبث هذه المنطقة ان تحولت الى بؤرة للقلاقل والفوضى (2) ، ولا يعني ان كنفدرالية ورغمة (3) لم تتحرك الا بعد لجوء القبائل "العاصبة اليها فيعد سقوط صفاقس وقابس وجربة في جويلية 1881 في نطاق المخطط الفرنسي الرامي الى السيطرة على اهم المواني بالجنوب اي الواجهة البحرية الشرقية للحيلولة دون ما قد يعزز المقاومة التونسية، تجمّع ما يفوق 800 رجل من فرسان ورغمة

1) André Martel"Soulevements Tribaux et ingerences etrangères dans les Steppes Tunisiennes 1954-1943;Actes du VIIe Colloque International sur la resistance armée en Tunisie au XIXe et XXe Siècle ,Publications de L'I.S.H.M.N;Tunis 1995.P,P:141-154.

2) فتحي ليسير :نجع ورغمة تحت الادارة العسكرية الفرنسية 1939-1919 اطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث جامعة تونس الاولى كلية العلوم الانسانية والاجتماعية قسم التاريخ ماي 1991 ص 76 .

3) تتكون ورغمة من اربعة اقسام هي الخزور والتوازين والودارنة وعكارة .

بجرجيس لشد ازرها امام هجوم القوات الفرنسية الزاحفة بحرا على المدينة يوم 28 جويلية 1881 بقيادة مالارمي (Mallarmée) لكن خليفة جرجيس رحومة بلهيبة الذي وجد نفسه بين بنادق ورغمة العازمة على اجبار السكان على المقاومة وبين مدافع الفرنسيين العازمين على افتكاك المدينة لعب هذا الخليفة دورا مزدوجا بين القائد الفرنسي والثوار فطمأن الاول بانه يضمن له الخضوع ورجاه الابتعاد عن جرجيس حتى يتسنى له اقناع فرسان ورغمة بالنكوص على اعقابهم ومن جهة اخرى طمأن ثوار ورغمة بان القوات الفرنسية غير راغبة في المكوث بجرجيس ورجاهم الانسحاب فامتثلوا لطلبه (1) ويرى اندري مارتال ان ورغمة لم تنطل عليها الحيلة وانما فضلت المحافظة على منفذ بحري قد تحتاج اليه رغم شكهم في صدق الخليفة (2) وفي 3 أوت قدم اعيان جرجيس استسلامهم للجنرال الليقرو مثلما فعل من قبلهم الكثير من سكان الجنوب المستقرين ولا سيما صف " شداد " ولم تستثن بعض عروش ورغمة من عملية الاستسلام فرغم ان مهمة الجنرال الليقرو الاولى لم تكن تستهدف مجالات ورغمة فان قسمين من الخزور ممثلين في عدد من اعيان التمارة والحوارزة قدما الى معسكر الجنرال للبرهنة على حسن نية العرشين (3) وفي افريل 1382 قدمت الى معسكر الجنرال جامي Jamais وفود من الجالية (غمراسن وبني بركة وقرماسة والدويرات وشنني كي تعلن استسلامها (4).

فما هي اذن العروش التي قاومت الاحتلال وكيف كانت هذه المقاومة

---

1) محمد العيادي العوني: " منصور الهو شرو مقاومته للحماية "، ملتقى مصباح الجربوع للمقاومة الشعبية، ايام 14 و 15 و 16 مارس 1986 بمدنين، 33 صفحة.

2) مصدر سابق: ( ) André Martel: Les Confins...Opcit, Tl, P: 249.

3) نفس المصدر: ص 160.

4) مصدر سابق: فتحي ليسير: نجع ورغمة ... ص 82.

يبدو ان فرنسا في سنتها الاولى من تواجدها بالبلاد التونسية من افريل 1881 الى مارس 1882 لم تدرج في مخططها التوسعي ضم المنطقة الحدودية بين تونس و طرابلس و ربما كان ذلك خشية تصاعد توتر العلاقات الدولية ،فاكتفت مؤقتا بحدود وادي فسيّ و لعل بقصد اوغير قصد وفرت مقصد و ملجأ لوفوفود القبائل التونسية الرافضة " حكم الروامة الكفار" التي حطت الرحال بهذه المنطقة ما بين الحدود الطرابلسية ووادي فسي في انتظار" الامدادات المزعومة " التي سيرسل بها السلطان عبد الحميد . وقد توزعت القبائل كما يقول "لوبوف" على اربع مجموعات واحتلت اربعة مراكز رئيسية : أم التمر و مدنين كانتا بايدي أولاد رضوان بينما احتل الهمامة الجبل الابيض جنوب فم تطاوين ،اما ورغمة فقد تمركزوا برمادة من جهة والضفة الشرقية لوادي فسي (1) وبدأت تتضح قيادة علي بن خليفة لهذه الجموع المغادرة لأوطانها ومعها نساؤها واطفالها و مواشيها و ما تملك من ذهب وفضة و بعض "الزاد" .

وطال انتظار نجدة السلطان" وتساءل اللاجئون" عن اسباب التأخير الم يرسل الباب العالي ببرقية احتجاج الى الممثلين العثمانيين في الدول الغربية عند ما وقع الباي معاهدة باردو و جاء فيها :

" وللباب العالي ان يقوم بحقه باحتجاج صارم و بشكل علنيّ ضد شرعية هذه المعاهدة معلنا ان ذلك قد تم في ظروف غير عادية و معتدية على حقوق السلطان وبالتالي فان السلطان و باشا تونس و الشعب التونسي التابعان (هكذا) للباب العالي يعتبرون هذه المعاهدة لا قيمة لها ولا يستند أي بند منها على القانون ..." (2) ؟

1)Le Boeuf(Jules):"Historique de la Conquète Pocifique des Territoires Militaires de Tunisie"; Revue Tunisienne,1907;P:121.

2)عبد الرحمان تشائجي :المسألة التونسية والسياسة العثمانية (81-1913)ترجمة عبد الجليل التميمي دار الكتب الشرقية تونس 1973 ص 134 .

فهل كانت هذه البرقية مجرد احتجاج شديد اللهجة وكان تأويلها بانها تعبير من الباب العالي على استعداده للتدخل الى جانب التونسيين في مقاومة الاستعمار، كان تأويلا خاطئا ؟ ولكن ما تعني هذه التحركات العسكرية بين طرابلس واسطنبول ؟

ولسبر نوايا السلط التركية ارسلت ورغمة وفدا الى طرابلس في اوائل نوفمبر 1881 (1) وقد وجد الوفدان " ناصف باشا " الذي شجع كثيرا على المقاومة في البداية قد وقعت اقالته من الولاية العامة لطرابلس فأصيب الوفد بخيبة امام ما هو مقصود من هذه الاقالة (2) بعد انتظار دام أشهرا، نفذت خلاله المؤونة ونقص الزاد " فانتشرت الفوضى واختل الامن وتكونت فرق " الجياشة " (3) بقول " لوبوف " يوم 9 فيفري 1882 تكون جيش " أي فرقة من الفرسان الجياشة) بمدنيين متركبا من 215 فارسا من مختلف القبائل واخترن بجرأة المناطق التي تم اخضاعها د خلة بني زلطن في جبال مطماطة مرورا بواحة الحامة ووصل الى قمودة شمال قفصة يوم 17 فيفري " (4) وقد اسندت قيادة هذه الفرقة الى داود بن التواتي لمعرفته بالمنطقة المقصودة، ويشرع هؤلاء " الجياشة " اعمالهم ضد الخاضعين لحكم " الكفرة " (الفرنسيين) بما جاء في كتاب الشيخ " عليش " : " فتوى العلي المالك في الفتوى على مذهب الامام مالك " وهي فتوى خلاصتها التحريض على مقاومة الكفرة او عدم البقاء معهم على ارض واحدة وكل من يتعامل معهم يعتبر كافرا مثلهم يحل رزقه على الغزاة (5) ونجد في شعر منصور الهوش

---

1) Le Boeuf, Historique...Op,Cit. P 125.
1) مصدر سابق : (
2) مصدر سابق : محمد العيادي العوني : " منصور الهوش " ... ص 9.
3) الجياشة : مجموعة مسلحة تستعمل العنف " لاجبار الناس عن التنازل عن اراقها وحتى مواقفها.
4) Le Bouuf, Historique...Op,Cit. P 246.
4) مصدر سابق : (
5) محمد المرزوقي : صراع مع الحماية دار الكتب الشرقية تونس 1973، ص 263.

تدعيما لذلك اذ يقول :

انتم رزقكم على قولي * في كتاب سيدي عليش حلل مولي

وامام هذه الاعمال العدوانية التي تهدف الى اجبار الخاضعين على الانضمام الى المتمردين ادرك الجنرال ليقرو ضرورة ظهور القوات الفرنسية في اقصى الجنوب (1) .

يبدو انه بالاضافة الى المشكل الامني احترزت فرنسا مما كان يتردد من وجود اتصالات بين زعماء القبائل العاصمة والسلطات التركية التي كان بعض اعوانها يعنون هذه الحشود بنجدة السلطان حتى بات عندهم مقام اليقين بأن عساكر السلطان والبوارج الحربية بلغت الى طرابلس والمقصود بذلك الدخول لا يالتنا (2) ولذلك مرت السلط الاستعمارية الى المرحلة الثانية لاحتلال ما بقي من اراضي الجنوب خارج سلطانها بعد ما باتت متيقنة من عجز الامبراطورية العثمانية عن استرجاع ما سلب منها أي نفوذها على تونس ولو كان شكليا فقد خيبت لندن وبرلين أملها في التدخل ضد باريس ولم تجد تشجيعا على المقاومة الا من روما (3) ولكن لا تخفى على السلطان العثماني نوايا وخلفيات هذا التشجيع ،فكان عليه انقاذ طرابلس من الايطاليين ولو بمساعدة الفرنسيين (4) وربما لم تكن له الثقة الكاملة في الفرنسيين الذين قد تساورهم انفسهم بالاستيلاء على طرابلس لذلك كان يرغب في الابقاء على القبائل التونسية المتمردة على الحدود كدرع بشري في مواجهة أي هجوم فرنسي محتمل على طرابلس فكان تعليلها بالنجدة في حين كان السلطان يعزز قواته للدفاع

1) مصدر سابق : Le Boeuf; Historique... Op,Cit,P 246.

2) مصدر سابق : عبد الرحمان تشائجي : المسالة التونسية ،ص 159 .

3) مصدر سابق : André Martel: Soulèvements Tribaux...Op,Cit,P 149.

4) نفس المصدر : ص 150 .

عن طرابلس .

فهل تفطن التونسيون الذين يأملون في مساعدة السلطان الى هذا المخطط ؟ او انهم لم يدركوا ذلك فبقوا متعلقين بهذا الامل مما يفسر هجرتهم الى طرابلس و هجرة علمائهم الى اسطنبول وتأييد بعضهم للامبراطورية العثمانية ابان الحرب العالمية الاولى وتمسكهم بالخلافة الاسلامية ؟

*- المقاومة السلبية بالجنوب التونسي :

اتخذت المقاومة السلبية شكلين : هجرة الاوطان "الهربة" (1) او مقاطعة " الغزاة" وعدم الاعتراف بحكمهم مع معاداة من تذيل لهم وقبل الخضوع اليهم .

فأثر تدخل القوات الفرنسية في البلاد التونسية غادر من رفضوا اوطانهم في اتجاه طرابلس منذ الايام الاولى للاحتلال ، الا ان الهجرة تكثفت كلما تقدمت الحاميات العسكرية الفرنسية و توغلت في التراب التونسي ،وقد رسم اللاجؤون التونسيون خطا يمر من منطقة الاعراض فوادي الزاس ثم وادي فسي و منه الى طرابلس (ليبيا) .

وسرعان ما أصبحت طرابلس تعج بوفود اللاجئين التونسيين وقد اختلفت التقديرات لتحديد عددهم فبينما قدرت الصحافة بليبيا عددهم 231،367 شخصًا أي ما يقارب 1/5 السكان (2) .

اما تقديرات السلط الفرنسية فهي تعطي ارقاما تتراوح بين 25 و 30 الف بما فيهم الاطفال والنساء (3) اما المؤرخون التونسيون المعاصرون فانهم اما يقرون ما جاء في تقديرات القنصل الفرنسي فيرود (

---

1) الهربة : كلمة يستعملها سكان الجنوب للتعبير عن الخروج القسري والاضطراري من الديار .

2) Mahjoubi (A) et Karoui(H):"Guand le Soleil s'est élevé à l'Ouest...Op,Cit,P:145.

3) تقديرات بول كمبون و فيرود (Feraud) انظر نفس المصدر ص ص 145 و 146 .

في سنة 1884 الذي يتحدث عن تنقلات 120 الف شخص (1) وهذا الرقم نفسه يرد في مقال لمحمد الهادي الشريف حيث يجعله يقارب 10/1 سكان البلاد التونسية انذاك (2) ولا يبتعد عن هذه التقديرات كل من علي المحجوبي والقروي بحيث يقران ما ذهب اليه مارتال من ان نسبة المهاجرين تتراوح ما بين 120 و 140 الف شخص (3).

وعموما قد مست الهجرة نسبة كبيرة من سكان الايالة (4) ولا سيما البدو منهم ولا تعني جميعهم كما انها مست بعض المستقرين ايضا مثل سكان المنزل و سكان مطماطة وقد شملت ايضا الاعيان مثلما شملت الفقراء ولم تكن هذه الهجرة في وقت واحد بل على فترات متتالية وفي شكل جماعات فمثلا كانت الهمامة من ضمن الاوائل الذين تحولوا الى طرابلس اثر سقوط مدينة القيروان في 29 اكتوبر 1881، اما ورغمة فلم تغادر اراضيها الا اثر الحملة الفرنسية التي استهدفت ربوعها في مارس 1882. فقد انطلق فيلقان عسكريان الاول من قابس والثاني من قفصة على ان يلتقيا في تراب ورغمة، وبالفعل انطلق يوم 30 مارس الفيلق الاول من رأس الواد قرب قابس بقيادة الجنرال (جامي (Jamais)) مكون من عساكر فرنسيين و من فرقة من "القومية" الذين وقع انتدابهم من بين القبائل الخاضعة. ولما وصل الجنرال جامي الى

---

1) ورد ذكره في كتاب المحجوبي والقروي: عندما تشرق الشمس من الغرب (ذكر سابقا) ص 146.

2) مصدر سابق: (2)Cherif(M.H): Mouvements Paysans...Op,Cit,P 40

3) مصدر سابق: 3)Mahjoubi et Karoui:Guand le Soleil...Op,Cit,P 146; Martel:Les Confins...OP,Cit,T 1,P 290.

4) تذكر المصادر التي اعتمدها المحجوبي والقروي في كتابهما "عندما تشرق الشمس من الغرب" (ورد ذكره سابقا، ص 147) عدد اللاجئين إلى طرابلس حسب الانتماءات القبلية لهؤلاء المهاجرين الذين جاؤوا خاصة من الوسط والجنوب وقلة من الشمال فهم: همامة و جلاص ونفات و فراشيش واولاد سعيد والسواسي ومهاذبة ومثاليث واولاد سيدي عبيد وماجر وهني زيد، ورغمة وجبالية ودريد واولاد دعيار ...

قصري مدنين وأم التمر في 2 افريل 1882 وجدهما خاليين وغرفهما فارغة (1) لقد سارع الخزور بنقل محاصيلهم الى المنطقة الجبلية للحوايا وقام التوازين بوضع ما تبقى من مدخراتهم جنوب وادي فسي وبقصر الموانسة القريب من جرجيس. (2)

اما الفيلق العسكر الثاني بقيادة الجنرال "فيولبار" (Philebert) فقد تلقى الاوامر من الجنرال ليقرو" بالتحول من نفزاوة الى ورغمة بحيث وصل الى بني خداش في 3 ماي 1882 وبدأ بالهجوم بواسطة القومية (بني زيد وفراديش) على قصر دمر وقصر الجوامع وبني خداش ثم قصد تطاوين اما الجنرال "جامي" فقد خيم قرب " النفاتية ...

وفي 7 ماي التقت القوتان قرب وادي بوحامد غير بعيد من وادي فسي وكان قد التحق بالمنطقة في 2 ماي الجنرال ليقرو الذي اعطى اوامره بنهب قصور الحوايا وحرقها . كما حرقت مزروعات الودارنة الذين كانوا قد اخلوا ربعهم من السكان ، فما هو رد فعل ورغمة على هذه الانتهاكات يبدو ان قبائل ورغمة لم تتصدى فعليا للحاميات العسكرية الفرنسية بل سارع بعضها لتقديم الولاء والخضوع مثل الجبالية ، اما الحوايا والخزور وبعض اقسام الودارنة فقد حاولت خلق الفراغ حول الغزاة (3) ويتحدث بعض الرواة عن بطولات منصور الهوش (4) . غير انها لا تخلو من المبالغة .

كما ان هذه المعارك هي في الحقيقة غزوات خاطفة خاصة على القومية

---

1) مصدر سابق : 1)Le Boeuf(J): "Historique"..Op,Cit,P 248.

2) مصدر سابق : 2) Martel(A): Les Confins...Op,Cit, T 1,P 276.

3) مصدر سابق : فتحي ليسير : نجع ورغمة ... ص83 .

4) منصور الهوش : ينحدر من سلالة سيدي علي بن عبيد قد يكون ولد حوالي 1834 قاد المقاومة بمدنين اثناء الاحتلال الفرنسي ، انظر مداخلة محمد العيادي العوني " منصور الهوش" مصدر ذكر سابقا ص ص 5 و 6 و 10 و 11 .

وعلى اهاليهم الخاضعين للحكم الاجنبي وعلى الذين يعملون لحساب الاستعمار الفرنسي" القوادة" عموما ولم يسلم حتى اعوان البريد من المداهمة والسلب يقول " لوبوف" : " اضطر الجنرال فيلوبار الى مغادرة فم تطاوين يوم 13 ماي 1882 بامر من الجنرال الليقرو وذلك قصد مطاردة المتمردين في وادي النفاتية الذين كانوايقطعون الطريق وتمكنوا من اغتيال عدد كبير من حاملي البريد" (1).

ويمكن ان نلاحظ ان هذه الغزوات قد انطلقت منذ مطلع 1882 ولم تقتصر على قبيلة دون اخرى هل اشتركت فيها معظم القبائل الاجنبية الى وادي فسي وقد تكثفت منذ شهر ماي ربما تحت تأثير الاحداث الجارية في الشرق بحيث اندلعت بمصر ثورة عرابي باشا. كما قامت الثورة في السودان بقيادة محمد بن احمد المعروف بالمهدي" فكانت صحوة الاسلام" وليست المقاومة ثوبا دينيا،(السنوسية مثلا) وانتشرت في الجزائر و موريطانيا والسينغال والنيجر(2) ويذكر مارتال مراسلة رسمية جاء فيها : " ان الجنوب التونسي يعلق بتفاؤل على انتصارات المهدي (3). فمن الطبيعي ان تثير هذه التحركات مشاعر النخوة وروح الانتقام لدى القبائل التونسية اللاجئة عاقدة العزم على استرجاع الوطن المغتصب وكان الاستعداد باشتراء الاسلحة المتطورة من الاروبيين وارسال فرق مسلحة (الجياشة) الى التراب التونسي في اتجاه ذويهم الذين خضعوا للسلط الفرنسية وربما كان ذلك الاعلام بأن المقاومة ما زالت مستمرة وعليهم الالتحاق بها وتوفير مراكز التمويل والملاجيء الامنة للثوار. كما يبدو لنا ان هذه الغزوات التي قامت بها فرق انطلقت من وادي فسي وتوغلت

---

1) مصدر سابق : Le Boeuf(J)," Historique...OP,Cit,P 255.

2) Mahjoubi et Karoui, Quand le Soleil...Op,Cit,P.P 155-156

3) مصدر سابق : Martel(A), Les C onfins... Op,Cit, T 1,P. 284.

في التراب التونسي الى حد مدن الوسط مثل قفصة والقيروان (1) وسطت على قوافل للمرازيق والسوافة (2) كانت بمثابة الرحلات الاستكشافية ، وتلمس مواطن ضعف العدو، وتحسس الطريق الآمنة دون ان ننسى ما توفره عملية السلب والسطو من أموال كان اللاجؤون التونسيون في أشد الحاجة اليها نتيجة الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها على الحدود او داخل طرابلس .

ومن ناحية اخرى نرى محمد صالح بن خليفة (ابن اخت زعيم المقاومة علي بن خليفة) يلتحق بالقسطنطينية في ماي 1882 قصد التيقن من نوايا الباب العالي فيما يتعلق بنجدة التونسيين (3).

ولكن الاجابة كانت تبدو سلبية بحيث سلم محمد صالح بن خليفة نفسه الى القنصل الفرنسي " فيرود " اواخر جويلية 1882 ، حالما عاد من القسطنطينية الى طرابلس في 28 جويلية .

فهل كان عمل محمد صالح بن خليفة عملا فرديا ؟ اوكان مجرد عملية تقليد لمن سبقوه في " الاستسلام " ؟ فهل شمل "الاستسلام" فقط الوجهاء والاعيان من اللاجئين التونسيين في طرابلس ؟ ثم ما هي الاسباب الدافعة اليه رغم انه لا يخلو من الاحراج " والعار" لصاحبه ؟

*- بداية رجوع المتمردين :

ان الرجوع الى تونس وهي تحت حكم النصارى " يعني الاستسلام والخضوع للفرنسيين وهذا ما كان قد رفضته هذه الجموع الثائرة بالامس والتي ابت ان تعيش على ارض واحدة مع المستعمر اذ يقول منصور الهوش :

---

1) مصدر سابق : Mahjoubi et Karoui: Quand le Soleil...Op,Cit,P 160

2) نفس المصدر : ص 161 .

3) نفس المصدر : ص 164 .

سيـــروابـــرا * خـش الفـيافـي والبـــلاد الحـــرة

ولا قـعـدتـك فـــي الـكـفـــر عـيـشـــة مـــره

يحـكـم عـلـيـنـا الـليقـرو بكـلابـة * غـيـر ارحلوابا للمة

و مـا تـقـعـــدوا للـكـفـــر تـحـــت الـذمـــة

مـدنـيـن جـمـلـة اخـو تكـم و رغمة * ربـي كـريـم يفتح عليكم بابه.

ولكـن مـا كـان يـامـلـه الـلاجـؤون التـونـسـيـون فـي طـرابلـس مـن نجـدة العـثـمـانيـيـن لـم يتحـقـق فـدب فيهـم المـلل تحـت وطـأة البـؤس والظروف الاقتصادية الصعـبـة فـقـد كـانـوا يعـانـون الفقـر والجـوع حـتى ان بعـضهـم اضطـر لبيـع دوابـه والتـجـأ آخـر للتـسـول وانتـشـرت النـسـاء والاطـفـال فـي شـوارع المـــدن يبحـثـون عـن عـمـل لكـسـب قـوتهـم بـدون جـدوى (1) وخجـلا مـن بـــؤس هـؤلاء الظـاهـر امـام اعـيـن الاروبيـيـن والنـصـارى وخـشـيـة عـليهـم مـنهـم عـمـد حـاكـم طـرابلـس الـى تـوزيـع بعـض المـال عـلى هـؤلاء المـهـاجـريـن طـالبـا مـنهـم الارتحـال عـن المـديـنـة نحـو القبـائـل الليبيـة والتـي هـي لا تقـل عـنهـم خـصاصـة (2) وعـلى الحـدود كـان الـوضـع اكـثـر بـؤسا وقد أدّى ذلـك الـى مـصـادمـات بيـن القبـائـل التـونسيـة فـيمـا بينهـا اوبينهـا وبيـن القبـائـل الليبيـة (3).

وفـي الاثـنـاء كـانـت رسـائـل "الامـان المبعـوثـة مـن تونـس" تتـسـرب الـى طـرابلـس بكـثـافـة حـاثـة الـلاجئيـن عـلى الخـضوع ،كـما كـان القنصـل العام الفرنسي "فـيرود" يعـمـل جـاهـدا عـلى اقنـاع اعـيـان القـبـائـل المتمـردة عـلى الاستسلام هـذا فـي طـرابلـس ،امـا عـلى الحـدود وفـي وادي فـسّي قـصـد عـمـلية الاقنـاع عـلى طـريقتيـــن :

---

1) من رسالة بعث بها "فيرود" الى وزارة الشؤون الخارجية بتاريخ 24 افريل 1882 وردت بكتاب المحجوبي والقروي : غدما تشرق الشمس... مصدر سابق : ص157.

2) نفس المصدر : ص152.

3) مصدر سابق : محمد المرزوقي : صراع مع الحماية... ص327.

الاولى : اعتمد فيها الجنرال الليقرو بمساعدة رحومة باللهيبة خليفة جرجيس ، اسلوب اغراء القبائل بالتخلي عن موقف التمرد والعودة من الهجرة والرضا بالحماية الفرنسية (1) .

ويبدو انه قد نجح الى حد انه كاتب المقيم العام مفتخرا : انا اتكفل برجوع كل المتمردين " (2) .

اما الطريقة الثانية فكانت في شكل حملات عسكرية متعاقبة (حملة جامي وفيلوبار : مارس جويلية 1882 ، حملة " لاروك" Laroque ديسمبر 1882 فيفري 1883 ، حملة لا روك وقارلود Varloud خريف 1883 .) وذلك لان ورغمة كانت تشكل وضعا خاصا محيرا للقيادة العسكرية الفرنسية المنصبة في قابس فورغمة ليست من الثائرين ولا هي من المهاجرين فهي تقيم في ميادينها ، غير منقادة (3) . بل كانت بعض عروشها تمنح الدعم لفرق " الجياشة" التي تسطوا على ارزاق الخاضعين " . ولذلك هاجمت القوات الفرنسية مجالات ورغمة ، مجالات كانت سابقا مستعصية على البايات الحسينيين . كما اقتحمت وادي فسي واستهدفت مضارب القبائل المتمردة وثروتهم الحيوانية ، فجاءت المواقف متناقضة بحيث خضع جزء من أولاد خليفة وتبعتهم مدنين في حين تمرد القسم الآخر من أولاد خليفة وأيدهم اولاد حامد الذين دخلوا طرابلس في 2 نوفمبر 1883 ، رافضين الانضمام الى ضو بن ضو وحسن بن ناجي (4) وهما مكلفان من قبل "لاروك" بتهدئة الوضع . ولاستتاب الامن في منطقة حدودية (ما بين وادي فسّي والمقيطع) هي محل اتفاق بين فرنسا والسلط التركية على ان تكون محايدة ومنزوعة السلاح ترى السلط الاستعمارية

---

1) مصدر سابق : محمد العيادي العوني ، منصور الهوش . ص14 .

2) مصدر سابق : Martel(A), Les Confins...OP,Cit,Tl,P 297.

3) مصدر سابق : ليسير ، نجع ورغمة . . ص85

4) مصدر سابق : Martel(A), Les Confins... Op,Cit, T 1,P: 305.

ان الحل الامثل هو " ضم ورغمة داخل قبائل مخزن " وهو مقترح قد كان نصح به القنصل الفرنسي بطرابلس " فيرود " منذ جويلية 1881 (1) وذلك لحفظ الامن على التخوم الجنوبية في غياب سلطة حقيقية .

وهكذا وجد الجميع ضالته في ذلك الحل "المحلي" فوزارة الحرب كانت مرتاحة للفرسان الاهليين الذين لا يكلفونها اية مصاريف فضلا عن تواجدهم في تلك المنطقة المحايدة سيجنبها مخاطر تشتيت غير ناجع - وربما خطير - للفرق العسكرية جنوب قابس(2) في حين يرى " اندري مارتال " أن الفرنسيين وجدوا في ورغمة ما كان وجدوه لدى الشعانبة بالجزائر أعدا ؛ التوارق (اتباع العثمانيين) من مساعدة لأحباط المخططات العثمانية بالمنطقة الصحراوية في شمال افريقيا (3) وفي الوقت نفسه قبلت ورغمة ان تدخل "اللعبة" اعتقادا منها ان اتباعها الفرنسيين سيمكنونها من "السلاح" قصد حماية حقول ومحاصيد "الخاضعين" ومن خلال ذلك ستسترجع القبائل البربرية المستعربة ما سلبها "العرب" من هيمنة ونفوذ في ما قبل انتصاب الحماية (4) ولا سيما التخلص من الاتاوات (5) ولكن من المجازفة التسليم بذلك لأن الاصول الاتنية لورغمة معقدة جدا فهي تضم مجموعات بربرية مثل الخزور والتوازين وعكاره وأخرى عربية مثل مدنين والمهبل والتمارة والمخالبة والذهيبات ... الى جانب مجموعات أخرى غير متجانسة اجتمع فيها العرب بالبربر المستعربين مثل الودارنة وغمراسن(6) وربما هذا يحيلنا الى التفكير في النمط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية داخل ورغمة او بمن جاورها ، كعوامل دافعة لورغمة بقبول التعامل

1) مصدر سابق : Martel(A); Les Confins...Op,Cit,T 1,P 327.
2) مصدر سابق : (فتحي ليسير نجع ورغمة ... ص92 .
3) Martel(A); "Soulèvements Tribaux"...Op,Cit,P P 150 - 151
4) نفس المصدر : ص 151
5) مصدر سابق : ليسير نجع ورغمة ص 58
6) نفس المصدر ص 26 .

مع السلط الاستعمارية " كمخازنية" وقومية" ،فهي اهل نجعه وفي حاجة الى السلاح لحماية نفسها وقطعانها كما هي في حاجة ايضا لتأمين مسالك الانتجاع ،ومن ناحية اخرى كانت ورغمة تعيش على غزو وزغب القبائل المجاورة (1) وخاصة اعداء " صف يوسف" التقليديين كالنوائل في التراب الليبي والحزم وبني زيد بجهة الاعراض ،كما كانت تمارس عمليات تهريب البضائع والبارود والاسلحة (2) بحكم موقعها الحدودي ولهذا لابد لها من التخلص من مراقبة السلط المركزية وبذخولها ضمن قبائل " المخزن" ستحقق فائدتين : التحرر من المراقبة ثم التخلص من الادائات .

فهل ستتمكن قبائل ورغمة من فرض الامن بالمنطقة الحدودية وتضمن سلامة للعائدين عبرها ؟ وهل ستحول هي نفسها الى مصدر قلق للسلط الفرنسية والتركية بمساهمتها في اختلال الوضع الامني بالحدود ؟

من الطبيعي ان يختل الوضع الامني بالحدود اثر ايواء حشود الرافضين " للاستعمار الفرنسي" اليها وبعد تفاقم موجة العائدين منهم من طرابلس سنة 1882 ،اذ تدهورت معنويات اللاجئين التونسيين بعد فشل ثورة عرابي ،وموقف السلطان منها ،فلم تعد وعود السلط العثمانية تلهب حماسهم ،بل يئسوا من امكانية استرجاع بلادهم من يد النصارى الذين كشفت الاحداث عن قوتهم وعن مدى تفوقهم العسكري على " الرجل المريض" ،فهم يتقاسمون تركته :فبالامس افتكت منه الجزائر ثم تونس وها هو اليوم يتخلى عن مصر التي انتصبت بها انقلترا .

---

1) Edouard Blanc: "Le Sud de la Tunisie" Société de Géographie; Paris. 16 Avril 1889, P 517.

2) مصدر سابق :فتحي ليسير :نجع ورغمة ، ص 65 .

فماذا ينتظرون ، وقد استحالت عليهم مواصلة حياة "الهربة" ؟

وهكذا عادت خلال النصف الثاني من عام 1882 خمسون خيمة من جلاص عشرون عائلة من قابس ، عشرون خيمة من دريد ، اربعون خيمة من الحزم ثم 330 دوارا من الهمامة و دريد و جلاص ونفات... أي ما بين 25 و 30 الف نسمة (1) منهم الاعيان والفقراء وكانت العودة برا وبحرا وما نفك العدد يرتفع الى ان بلغ 120 الف عائد في سنة 1884 (2) تلك السنة التي توفي فيها علي بن خليفة رمز مقاومة انتصاب الحماية .

غير انه يمكن ملاحظة اربعة نقاط :

اولا : لقد شهدت الحدود التونسية ـ الطرابلسية خلال 1882 و 1985 تيارين من التحركات : احدهما في اتجاه تونسي وقد رسمه اللاجئون العائدون من طرابلس ومن وادي فسي ، اما الثاني فكان في اتجاه طرابلس وقد خطته بعض عروش ورغمة هروبا من الحملات العسكرية الفرنسية على ترابها .

ثانيا : كثيرا ما كان العائدون برا عرضة لعمليات " غرق الجبائنة " أو عنف رافضي " الاستسلام " مما تطلب تكثيف الرحلات البحرية بين تونس وطرابلس بفضل الرحلات الاسبوعية للباخرة " شارلكان " اضافة الى رحلات الزوارق الحربية (3) كما اقامت السلط الفرنسية لأول مرة معسكرا جنوبي وادي فسي (المنطقة المحائدة) في اكتوبر 1883 ، (4) لوضع حد لانخرام الامن بالحدود .

ثالثا : استغلال ورغمة ظروف الفوضى لتدخل في عمليات نهب ضد العائدين اوضد المستسلمين من ذويها للسلط الاستعمارية ، ومن ناحية اخرى

---

1) حسب القنصل الفرنسي بطرابلس ورد هذا بكتاب المحجوبي والقروي عند ما تشرق الشمس من المغرب ص 146

2) مصدر سابق : Mahjoubi et Karoui, Quand le Soleil...Op,Cit,P 146.

3) نفس المصدر : ص 164 .

4) مصدر سابق : ليسير نجع ورغمة ص 89 .

شن حرب ضد النوائل اسفرت عن سقوط العديد من القتلى فمثلا خلال سنة 1884 و 1885 قتل 500 شخص (1) .

ولعل هذه المصادمات كانت وراء فرض النظام العسكري على اقصى الجنوب ، ورسم الحدود بين تونس و طرابلس 1910 .

رابعا : لم تشمل العودة كل المهاجرين الى طرابلس بل استقر البعض منهم بالتراب الليبي وقد وفروا السند والملجأ للفارين من الاضطهاد الاستعماري بعد ما احكم قبضته على البلاد التونسية ، كما ان هؤلاء على استعداد للمشاركة في مقاومة الاستعمار سواء في ليبيا ضد " الطليان " اوفي تونس ضد الفرنسيين فكانوا مصدر قلق ، تحالفت السلطتان في ليبيا وفي تونس على تطويقه .

وهكذا نقف على ان فرنسا كانت خلال الفترة الاولى لانتصابها بتونس (اواخر القرن التاسع عشر) تتحسس طريقها لفرض هيمنتها على الجنوب التونسي طبقا لمخططات توسعية اخضعت لسياسة المراحل " احتسابا لرد فعل الاهالي بالجنوب وللرأي العام الدولي خاصة الامبراطورية العثمانية المتمركزة بطرابلس ، ولكن يبدو ان مخاوفها كانت اكبر مما هو في الواقع والدليل انها لم تجد صعوبة كبيرة في اقتحام مناطق الجنوب ما عدا نسبيا - مدينة قابس التي صمدت لمدة اربعة اشهر وعموما ، فقد هرع معظم " الاعيان و موظفي حكومة الباي الى تقديم شواهد الخضوع للسلط الفرنسية بينما كان المقاومون " يتقهقرون امام تقدم الحاميات العسكرية فكان كل طرف لا يرغب في مصادمة الطرف الآخر بحيث كانت السلط الفرنسية العسكرية تدفع " المتمردين " باتجاه الحدود التونسية الطرابلسية فكأنها تخشى ان تتورط في حرب مع الاهالي وقد

---

1) نفس المصدر : ص 94 .

يسيء ذلك اليها لدى الرأي العام العالمي فهي في نظره دولة حامية وليست دولة مغتصبة ، اما المقاومون فقد تخلوا - بهروبهم - عن مواطنهم فكأنهم يخشون ايضا ان يخوضوا حربا هم واعون بأنهم لا قدرة لهم عليها ولكنهم كانوا صامدين على امل " نجدة السلطان " لهم ولعل هذا ما دفع بهم تدريجيا الى التخوم الجنوبية التي تحولت الى قاعدة لانطلاق عمليات فرق " الجياشة" ضد الخاضعين " من ذويهم وممن دخلوا في خدمة الاستعمار.

لقد كانت مواقف سكان الجنوب متباينة من النظام الجديد الذي انتصب بأرضهم بداية من جويلية 1881 وكان هذا التباين وفقا لأختلاف الدوافع ، اذ دفع الخوف من البدو مثلا اغلبية المستقرين الى الخضوع وحتى تعامل بعضهم مع السلط الجديدة خصوصا وهي لم تلغ الادارة القديمة نهائيا ، كما دفع الخوف من اعداء " الصف" الى تراجع بعض المنتمين الى الصف المقابل عن مواصلة الثورة . في حين تراءى للبعض ان للاستعمار ايضا ايجابيات " عسى ان تكرهوا شيئا فهو خير لكم" فقد توقع " الجبالية" (1) ان في خضوعهم للسلط العسكرية الفرنسية فرصة لتحررهم من القبائل العربية المسيطرة منذ امد بعيد .

اما المقاومون فكانوا في معظمهم بدو اعظمت في نظرهم الاستكانة للمستعمر وصعب عليهم الخضوع فاعلنوا " العصيان رغم ان اوامر الباي الداعية الى " الاستسلام" وهذا ما يفسر الصبغة الشعبية والطابع الريفي للمقاومة بالجنوب ما بين 1881 و 1883 فهذه المقاومة لم تتجاوز كونها رد فعل حتمي " عاطفي " تجاه انتصاب الحماية ، ضم عناصر متباينة تستوجب قيادة قوية تصهر هذه العناصر غير المتجانسة في كتلة واحدة تدفعها

---

1) الجبالية : اسم يطلق على سكان مرتفعات الجنوب من مطماطة الى تطاوين ، وهم من اصل قبائل بربرية .

نحو النصر بينما في الواقع توزعت القيادة بين اعيان القبائل الثائرة (علي بن خليفة ـ الحاج الحراث ـ الحاج المسعي ... الخ) والذين رغم مكانتهم الاجتماعية (قياد و خلفوات و مشائخ و رجال دين ...) كانوا غير قادرين على التحكم في اتباعهم وتوحيد كلمتهم ، و منع نزعة " الاستسلام " في صفوفهم ولا سيما ان المقاومة قد جرفت " صف شداد " وصف يوسف " اللذين تركا الى حين النزاع و تناحر الصفوف جانبا امام " الخطب الخارجي " .

ومع ذلك يبقى تقاعس السلطان عن نجدة الثوار التونسيين و تلك الظروف المادية الصعبة التي واجهتهم في " الهربة " عاملين هامين لانتكاسة المقاومة التونسية في الثمانينات من القرن الماضي و عودة الكثير من اللاجئين الى تونس و قبولهم الامر الواقع .

لقد افتقدت ثورة القبائل في سنة 1881 السند والدعم الخارجي نظرا لضعف امكانياتها الداخلية ، كما كانت بحاجة الى قائد ـ رمز قادر على توحيد عناصرها غير المتجانسة في اطار المصلحة القومية " .

وهنا يمكن ان نعيد ما قالته بيسي سلامة عن ثورة 1864 رغم صعوبة المقارنة بين ثورة اندلعت ضد سياسة البايات الحسينيين (انتفاضة داخلية) و ثورة قامت في مواجهة انتصاب الحضور الاجنبي بتونس (انتفاضة تصدي لغزو خارجي) الا ان طبيعة (الانتفاضيين) بقيت هي نفسها فهما " في الجوهر تمرد ريفي بدوي له ما لهذا النوع من التمرد من وهن وحدود آفاق " (1) اما في الظاهر فهما حركة معارضة ترتدي ثوب " الثورية " وتلجأ الى السلاح للتعبير عن رفضها لواقعها (ظلم البايات و تسلط الاستعمار) غير انها تفتقر الى بديل واضح كما يفتقدان

---

1) مصدر سابق : ب . سلامة ثورة بن غذاهم ... ص 258 .

قيادة تابعة من الانتماء الطبقي للثائرين ،فقيادة الثورتين "تنتمي الى الاعيان في حين القاعدة تتشكل من الطبقة السفلى للقبائل (1) وهذا ما جعل التحركات تسقط في التردد والميل الى المصالحة وبالتالي تسمح بظهور الانشقاق وطغيان المصلحة الفردية الضيقة ،فمثلا طالب علي بن غذاهم لنفسه بهنشير الروحية وتسمية اخيه عاملا على ماجر واسناد وظيفة مشائخ الى عدد من الاشياع ذكر اسمهم (2) في حين اشترط محمد صالح بن خليفة ابن اخت علي بن خليفة على القنصل الفرنسي بطرابلس في جويلية 1382 مقابل " استسلامة" وخضوعه للسلط الفرنسية" بتونس.

منح الامان الى كل عائلة بن خليفة والى كل المنشقين مع التغاضي عن الاعمال المقترفة ابان المقاومة واعادة املاك المهاجرين المنهوبة بالاضافة الى اعفائهم من ضريبة حرب تفوق ما قد وظف على بقية المتمردين ،كما انه بامكان علي بن خليفة وعائلته الاقامة حيث ما شاؤوا وتعويض ما اتلف من ممتلكاتهم بما قدره : 400.000 فرنك (1) وقد تفطنت السلط الفرنسية الى هذه العلل التي تعاني منها الثورة فعملت على بث التفرقة بين القبائل واحياء نزعة "الصف" فسمحت للخاضعين لها بالاعتداء على ارزاق "الرافضين" الذين فروا تاركين وراءهم ممتلكاتهم فأصبحت عرضة للنهب ويمكن الاستشهاد بما وقع لسكان منزل قابس الذين التحقوا بطرابلس تحت رأية علي بن خليفة بعد سقوط مدينتهم في اواخر نوفمبر 1881 ،ومن ناحية اخرى انتدبت السلط الفرنسية بتونس

---

1) نفس المصدر: ص 245.

2) خ.خ.ت: مجموعة الوثائق عدد 185 ،الملف 1049 ورد في كتاب :ب. سلامة : ثورة بن غذاهم ص 179.

3) مصدر سابق: Mahjoubi et Karoui; Quand le Soleil...Op,Cit,P 164

اعوان " القومية" من ضمن الخاضعين و وجهتهم الى مطاردة المتمردين من اعداء الصف" التقليديين " صف شداد + صف يوسف" والعكس صحيح) اما القنصل الفرنسي بطرابلس :فيرودفقد عمل على استغلال الوضع المتردي للاجئين التونسيين فشجعهم على الخضوع الذي يعني العودة الى ارض الوطن زارعا الخلاف بينهم قصد تكسير وحدتهم (الظرفية) وتفتيت مقر تحركاتهم الجديدة : ليبيا (1).

فهل تمكنت السلطة الاستعمارية من تهدئة الوضع في الجنوب التونسي في غياب الدعم الخارجي وفي ظل سوء التنظيم الى اظهار ما لا يبطنون منتظرين الفرصة للتعبير عن رفضهم للحضور الاجنبي .

*- الثورة خلال الحرب العالمية الاولى : 1914 - 1918 .

اندلعت الحرب العالمية الاولى باعلان النمسا الحرب على صربيا في 28 جويلية 1914 ،واعلان المانيا الحرب على روسيا في 1 أوت من نفس السنة و من جهتها اعلنت روسيا الحرب على تركيا في 5 نوفمبر 1914 وبعد بضعة اشهر انقسمت القوى المتصارعة الى قسمين :

- الامبروطوريات الوسطى ،وهي المانيا والنمسا وتركيا .

- دول التحالف ،وتضم روسيا وفرنسا وانقلترا ثم التحقت بها ايطاليا في 1915 وبعدها الولايات المتحدة الامريكية في 1916 .

وقد زج بالمستعمرات في هذه الحرب الاروبية البحتة و دخلت "المملكة" التونسية الى جانب الحلفاء و ساهمت بابنائها الذين شاركوا في ميادين القتال وابلوا البلاء الحسن وبلغ عدد المقاتلين منهم نحو زهاء خمسة و ستين الفا قتل منهم نحو اثني عشر الفا (2) بينما يعارض دانيال قولدشتاين (D.Goldstein) التصريحات الرسمية التي تحوم

---

1) نفس المصدر :ص 156 .

2) مصدر سابق :حسن حسني عبد الوهاب ،خلاصة تاريخ تونس ،ص 221 .

حول (11000) قتيل في صفوف الجنود التونسيين مفضلا رقم 15000 قتيل ما يعادل 1/5 جملة الجنود التونسيين (73000) جندي (1) . اما مجلة "المغرب فتضاعف هذا الرقم (30000) قتيل باعتبار ان جنود المستعمرات اكثر عرضة للقتل نتيجة تواجدهم في الخطوط الامامية بالجبهة (2) الا ان الاستاذ علي المحجوبي فيقدر جملة المشاركين (100.000) تونسي ما بين مجندين و متطوعين و عملة مهجرين (3) وان جاء الموقف الرسمي الى جانب دول التحالف فالرأي العام التونسي و خاصة بالجنوب كان الى جانب تركيا و هي مركز الخلافة الاسلامية في نظر جميع المسلمين وقد حاولت تركيا استغلال هذا الوضع باصدار فتوى من قبل شيخ الاسلام في وجوب اعلان الجهاد المقدس ضد دول الحلفاء اعداء الاسلام وانتشرت هذه الفتوى في عموم البلاد الاسلامية فأثارت صعوبات لانقلترا في الهند وفجرت حماسا للثورة والعصيان في الشمال الافريقي(4) اذ استجاب سكان الاوراس بالجزائر و سكان الجنوب التونسي والصحراء الشرقية ووادي النيجر و شمال التشاد و دارفور لنداء الجهاد المقدس (5) في حين انتفضت ليبيا قبل التحاق تركيا بالامبراطوريات الوسطى منذ خريف 19 ضد الهيمنة الايطالية بحيث اجبر " الطليان " على التراجع الى ان اقتصر وجودهم على بعض الموانئ (6) و من جهة اخرى فقد تمردت عروش التوارق (توقرت) و بسكرة والواد (7) جنوب الجزائر ما بين 1913 و 1915 ضد السيطرة الفرنسية على مجالات رعيهم من الضغط الاداري الاستعماري وتجاوزاته .

---

1) Goldstein(D); Liberation...Op,Cit,P 176.

1) مصدر سابق :

2) Revue du Maghreb; 1918,P 141,Cité par Goldstein.

3) Mahjoubi(A); Les Origines...Op,Cit,P 150.

3) مصدر سابق :

4) احمد المرزوقي : دماء على الحدود : ثورة 1915 ، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس 1975 ص 37

5) Martel(A); "Soulevement Tribaux"...Op,Cit,P 150

5) مصدر سابق :

6) وزارة الخارجية سلسلة حرب (1914 / 1918) درتون 159 رسالة الحاكم العام للجزائر الى وزير الخارجية بالجزائر 22 جانفي 1915 وردت باطروحة ليسيرنجع ورغمة ذكر سابقا ص 181

7) نفس المصدر و نفس الصحيفة .

وهل كانت هذه التحركات تجري في افريقيا الشمالية الواحدة بمعزل عن الاخرى اوكانت مدبرة ضمن مخطط عثماني - ماني لاثارة القلاقل داخل المستعمرات الفرنسية والانقليزية بهذه المنطقة متخذا من ليبيا محورا لتنفيذه وذلك كرد فعل عن سياسة انقلترا التوسعية بمصر والشرق الاوسط والاحتلال الايطالي لليبيا وانتصاب الحماية بالمغرب الاقصى .

ثورة الجنوب في 1915 :

لقد تسربت انباء الانتصارات الالمانية الاولى الى التونسيين فهزت مشاعرهم وجعلتهم يستجيبون الى الدعاية الالمانية التي تزامنت مع نداء السلطان العثماني الى الجهاد المقدس ضد فرنسا وحلفائها .

فالولاء الى الباب العالي يبدو انه متغلغل في اعماق التونسيين من قبل مجيء الفرنسيين وقد كشفت عنه احداث النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد نادت مدن الساحل بارتباطاتها بالسلطان العثماني اثناء ثورة 1864 (1) ضد حكومة محمد الصادق بالرغم انها مسلمة ،ذلك ان البلاد التونسية ما زالت في اعتقاد جل السكان تخضع الى الحاكم العثماني (2) ولهذا طمعت المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي سنة 1881 في نجدة خليفة المسلمين" وبما ان السلطان العثماني دخل الحرب الى جانب الامبراطوريات الوسطى فمن الواجب مناصرته ولا سيما انه وقف ضد فرنسا التي تعتبر بالنسبة للتونسيين في موقع العداء .

ورغم حالة الحصار وتعطيل جميع الصحف التونسية باستثناء" الزهرة" وابعاد زعماء حركة "الشباب التونسي" ومطاردة الوطنيين قصد فرض الامن بالبلاد ومع ذلك فقد تمكن بعض الشبان من توزيع المناشير الداعية الى الامتناع عن تقديم اية مساعدة الى فرنسا "التي تحارب خليفة المؤمنين (3) في حين قام البعض الآخر ببعض

---

1) Smida(M); La Tunisie Husseïnite...Op,Cit,P 355.

1) مصدر سابق: Smida(M); La Tunisie Husseïnite...Op,Cit,P 355.

2) مصدر سابق، علي محجوبي مقاومة السكان التونسيين، ص124 .

3) حمادي الساحلي، نشاط الوطنيين التونسيين في المهجر اثناء الحرب العالمية الاولى المجلة التاريخية المغربية، السنة الحادية عشر العدد 33-34 جوان 1984، ص ص 182-192 .

التحركات المناهضة لفرنسا فكان مصيرهم الاعتقال بحيث القي القبض على احمد توفيق المدني و هو شاب تونسي من اصل جزائري بتهمة تبادل المراسلات مع اقاربه في القسطنطينية ونشر مقالات ناقدة لفرنسا في هجف جزائرية والصاق قصيد مناهض لدول الحلفاء على باب الجامع الكبير بتونس(1) كما اعتقل الصحفي حسين الجزائري المعروف بافكاره المناهضة لفرنسا " وبقي في السجن بدون محاكمة طوال مدة الحرب (2) ورغم حرص السلط الفرنسية على منع دخول النشريات الصادرة من قبل الوطنيين التونسيين في المهجر خلال الحرب العالمية الاولى كمؤلفات الشيخ صالح الشريف و محمد باش حانبه و مجلة المغرب فقد تسرب عدد منها الى أيدي الاهالي (3).

ومع يبدو أنّ التونسيين ما عدا سكان الجنوب قد رأوا أنّ الوقت غير مناسب لاحداث الشغب بالبلاد وفرنسا تخوض حربا عالمية ،بل توقع الشباب التونسي ان هذا السلوك المنضبط الى جانب التضحيات البشرية والمادية سيكونان ورقة رابحة لمطالبة فرنسا بالاعتراف بحقوق التونسيين في حالة انتصار دول الحلفاء ،اما في صورة انتصار الامبراطوريات الوسطى فانهم سيتعللون باجبار فرنسا البلاد على الطاعة وفرض حالة الحصار عليها وافراغها من القادرين على حمل السلاح و دفعهم الى جبهات القتال ،بينما الاهالي ينتظرون وصول القوات الالمانية ـ العثمانية الى الحدود التونسية حتى ينظموا اليها (4).

فلماذا شكل سكان الجنوب الاستثناء؟ واستعدوا للثورة مستغلين وضع الحرب كظرفية ملائمة للتمرد ؟

---

1) مصدر سابق : 1)Mahjoubi(A):Les Origines...Op,Cit,P 148.

2) مصدر سابق : حمادي الساحلي ،نشاط الوطنيين التونسيين ص 182 .

3) تقرير بارون : المجلة التاريخية المغربية عدد 27و28 تونس 1982 ص 310 (ذكره حمادي الساحلي في نفس المصدر السابق ص 186 .

4) احمد توفيق المدني : حياة كفاح ،الجزائر 1976 ج 1 ص 74 .

يبدو ان سكان الارياف التونسية ولا سيما سكان الجنوب كانوا اكثر تضررا من عمليات تجنيد الشبان لتمويل الحرب بشريا ، وانتدابهم للعمل بفرنسا لضمان سير دواليب الاقتصاد بالمتربول " تعويضا للبلد العاملة الفرنسية المشاركة في الحرب ، اذ كان معظم سكان الجنوب فقراء غير قادرين ماديا على دفع التعويض المالي مقابل اعفاء ابنائهم من الخدمة العسكرية وخصوصا ان قيمة التعويض قد ارتفعت من الف فرنك قبيل الحرب الى 1200 ثم 1500 ،(1) اثناء الحرب .

كما فرضت السلط الاستعمارية على اهل الجنوب نظاما عسكريا ازداد قساوة بمفعول الحرب واعلان تركيا دخولها فيها الى جانب المانيا التي كانت مصممة على معاقبة ايطاليا التي انحازت في سنة 1915 الى صف فرنسا وانقلترا وروسيا ، وقد قررت تركيا والمانيا اعانة المقاومة في ليبيا عن طريق ارسال ضباط وخبراء عسكريين للاشراف على تنظيم العمليات الحربية (2) .

وكان سكان الجنوب ينقلون اخبار شتى عن انتصارات المانيا على القوات الفرنسية ويتوقعون وصول قطع حربية المانية الى مياه خليج قابس (3) وتسري الاشاعات بأن قوة عسكرية قوامها 30.000 رجل وصلت الى بنقردان مطلع سنة 1915 (4) وتكون التكهنات بهزيمة نكراء لفرنسا وحلفائها وتنتعش الاموال في الخلاص من الاستعمار وتغذيها انتصارات خليفة بن عسكر النالوتي في ليبيا على الايطاليين الذين

---

1) مصدر سابق : (1)Goldstein(D); Liberation...Op,Cit,P: 163.

2) خ . ج . تسلسلة كرتون 196 ملف 1 تقرير شهر سبتمبر 1915 ذكر فتحي ليسير في اطروحته : نجع ورغمة ، ص 165 .

3) : (استجواب الحاج عامر الشيلوفي وهو من مواليد بني غيلوف بالحامة حوالي 1893 عاش ثورة 1915 ، (وهو عم لمصباح البربيش) التقينا به في أفريل 1986 .

4) مصدر سابق : 4) Meynier(G);L'Algerie Revelée,Paris-Genève1981,P: 444.

انسحبوا صيف 1915 من مزدة، وكابا وترهونة وسيناون ، ونالوت وغريان والجوش وغدامس وأخيرا زوارة (1) وهي موقع متاخمة للحدود التونسية ويسهل على ابناء اقصى الجنوب الوصول اليها ولا سيما ان فرنسا قد تمركزت اكثر بالمواقع الشمالية من الخط الحدودي بين تونس وليبيا ، ربما لأسباب امنية ومناخية (شدة الحرارة وصعوبة التأقلم) .

*- انتفاضة الودارنة : 1915 - 1918 .

انه لمن الملفت للنظر قيام عروش الودارنة - دون بقية نجع ورغمة بالكفاح المسلح ابان الحرب العالمية الاولى في وقت اتسمت فيه الحركة الوطنية التونسية بالجمود والانتظار . !

ولمعالجة هذا "الاستثناء" لا يفسر فقط بظرفية الحرب لأن هذه الظرفية يعيشها جميع السكان بالبلاد ، كما لا يتوقف عند الدعاية الألمانية ودعوة السلطان الى الجهاد المقدس ، فهذا ايضا شمل كل المسلمين الخاضعين للحكم الفرنسي والانقليزي في جميع انحاء العالم الاسلامي ولا يستجيب ايضا الى تلبية نداء الجامعة الاسلامية .

فلم تكن عروش الودارنة اكثر وعيا والماما بافكار واهداف الجامعة الاسلامية من غيرها !

ولهذا لابد من تفحص العوامل المحلية فقد نجد من خلالها بعض التفسيرات :

اولا : الوضع العام لعروش الودارنة الذي اسفر عنه الحضور الفرنسي والادارة الاستعمارية لمنطقة أقصى الجنوب التونسي لمدة تفوق 1/3 قرن فقد كبل الحضور الفرنسي تحركات عروش الودارنة العربية البدوية

1) خ . ح . ت : سلسلة كرتون 196 ملف 6 تقرير جويلة 1915 وكرتون 280 ملف 3 ورد ذلك باطروحة ليسير : نجع ورغمة : ص 164 .

اذا لم يعد بامكانها التحول الى التراب الليبي مثلما كانت تفعل قبل 1910 و هو تاريخ ضبط الحدود التونسية الليبية و ذلك قصد النجعة أو لأستخلاص الاتاوات وفقا لعقود "السائبة عربية" (1) كما سبق للعسكريين ان امروا "الجبالية" بالكف عن تسليم "العادة" (2) للودارنة (3). بالاضافة الى اجراءات أمنية داخل التراب العسكري التي تقلصت من عمليات تهريب البضائع المحجرة كالتبغ والملح والشاي والاسلحة والبارود ...كما وضعت حدّا للاغارة والنهب.

وهكذا تقلصت الموارد الاقتصادية لهذه العروش ولكن لم تجد تعويضا لخسائرها في خدمة المخزن (4)؟

ثانيا: تصفية "الحسابات":

لقد بدا من الواضح لدى عروش الودارنة ان سياسة السلط الاستعمارية تهدف الى كسر شوكتهم بتحرير الجبالية من هيمنتهم و بتفقيرهم فالعربان اذا كثر مالهم ساء حالهم لذلك حاولت السلط الفرنسية تطبيق سياسة "جوعه يتبعك" كما ان هذه السلط نفسها قد رفضت مطلب سعيد بن عبد اللطيف الدبابي (5) (والذي سيكون المحرك الاساسي لثورة الودارنة) الذي كان يرغب في خطة "كاهية"،

---

1) السائبة عربية: هي ضريبة عينية عن المنتوج الزراعي والحرفي كان الطرابلسية يدفعونها الى عروش أولاد دباب وأولاد شهيدة والعجاردة والدغاغرة والعمارنة والحميدية مقابل تأمين حمايتهم.

2) "العادة": او العلاقة" وهي ضريبة عينية يدفعها الجبالية للعروش العربية مقابل حمايتهم.

3) مصدر سابق: فتحي ليسير: نجع ورغمة، ص 177.

4) المخزن: قوة اضافية شبيهة بالحرس خاضعة لقائد منطقة الجنوب وذلك للسهر على الامن العام والقيام بحراسة الحدود و حفظ الامن و تطبيق القوانين و تستخدم في المناوشات الحربية (Martel(A), Les Confins... Op,Cit,T 1,P 62)

5) الحاج سعيد بن عبد اللطيف: وهو من أعيان اولاد دباب كان اخو محمد خليفة على الجهة واخوه علي شيخا، اما هو فقد كان عضوا بالجمعية الثورية (التي ستصبح تسمى بالمجلس الكبير) شارك في ثورة اقصى الجنوب و توفي في معركة أم صويغ اكتوبر 1915 المصدر محمد المرزوقي دماء على الحدود ص ص 145 - 146.

بتعلة تحول اعتماد حكومة الباي على المستقرين الذين قاطعوا منذ أمد حياة السلب والنهب (1).

فهل كانت الحرب العالمية الاولى فرصة للودارنة حتى يقوموا بتصفية حساباتهم مع المستعمر الفرنسي ؟

ثالثا : اندلاع ثورة خليفة بن عسكر النالوتي غرب ليبيا و هذا اهم عامل حسب رأينا في تحريك عروش الودارنة للتحرر من الهيمنة الاجنبية ، سواء بليبيا او بتونس والعودة الى حضيرة العثمانيين ، فالودارنة تجمعهم بالثائرين الليبيين الذين لا يفصل بينهم الا خط و هم يسمى بالحدود صلات القربى والمصالح الاقتصادية المشتركة ، بل هناك منهم من يشارك في هذه الثورة ممن هاجر الى طرابلس أيام انتصاب الحماية او ممن التحق بها منذ الأيام الأولى لاندلاعها ، يقول امحمد المرزوقي " اتصل خليفة بن عسكر النالوتي بقبيلة المخالبة بالجنوب التونسي ، في فراره من قبلي الى المناطق الغربية من طرابلس لقيادة حرب المجاهدين هناك ضد ايطاليا ، اتصل بالمخالبة وتحدث معهم في امر المساعدة التي يمكن ان يساعدوه بها في جهاده. وخرج فعلا بعض شباب المخالبة والذهيبات والطرائفة واولاد شهيدة للعمل في صفوف ابن عسكر " (2).

ويبدو ان عدد الملتحقين بخليفة بن عسكر قد تصاعد بتواتر اخبار انتصاراته ضد الايطاليين و دحرهم عن المناطق الغربية الليبية نحو الشريط الساحلي (3) ففي شهر أوت 1915 اجتاز 300 شخص من الودارنة الحدود والتحقوا بالثوار الليبيين بينما يتحدث مارتال عن 7000 في شكل

---

1) Goldstein(D), Liberation...Op,Cit,P:152.

2) مصدر سابق امحمد المرزوقي ، دماء على الحدود ، ص 39.

3) خ ح ت سلسلة A كرتون 196 تقرير جويلية 1915

عائلات قطعت الحدود في اتجاه ليبيا مثلما هو الحال في 1881 (1).
فهل هذا الدعم البشري الزاحف من تونس جعل خليفة بن عسكر
يوسع دائرة نشاطه لتشمل مناطق أقصى الجنوب التونسي ؟ فهل
الثورة لم تعلن بتونس على ايدي ابنائها وانما كانت بأيادي اجنبية ؟
وهل هناك خيط رابط يشد هذه الانتفاضات التي شهدتها منطقة الشمال
الافريقي ابان الحرب الى مخطط عثماني يرمي الى استعادة تركيا نفوذها
على ولاياتها الغربية سابقا ؟ او هل كان الكفاح المسلح بالداخل جزءا
من استراتيجية النضال بالخارج ؟

رابعا : رسائل التحريض .

من خلال ما اورده امحمد المرزوقي فان هناك اتفاقا مسبقا بين خليفة
بن عسكر والمخالبة (من الودارنة) " على ان يشاركوه حربه ضد الايطاليين
ويساعدهم هو على محاربة الفرنسيين بعد ذلك (2) اما قولد
شتاين قيشير الى عدة اتصالات بتونس قام بها سليمان الباروني المكلف
من قبل الباب العالي بتنظيم "الجهاد المقدس" في كل من مصر وتونس (3)
كما قررت المانيا وتركيا ارسال ضباط وخبراء عسكريين للاشراف
على تنظيم العمليات الحربية (4) وان لم تتوفر للفرنسيين قرائن قاطعة
على تواجد مدربين عسكريين "المان واتراك داخل التراب التونسي ،فقد
وردت بعض الاشارات الى خبراء اجانب ،كتواجد ضابط تركي " بام صويخ"
وبعض العناصر المرتدية لباس" الكاكي" مجهولة الهوية بالقرب من ذهيبة (5)

---

1) مصدر سابق : ليسير . نجع ورغمة ،ص 156 .
2) مصدر سابق : (Martel(A), "Soulevement Tribaux"...Op,Cit,P 153
3) مصدر سابق : امحمد المرزوقي : دماء على الحدود / ص 313 .
4) مصدر سابق : (Goldstein(D), Libération...Op,Cit,P 150.
5) خ ح ت : سلسلة كرتون 196 ،ملف 1 تقرير شهر شبتمبر 1915 .

فعلى ما يبدو ان المهاجرين التونسيين في الشرق سواء في ليبيا أوفي تركيا قد لعبوا دورا هاما في ربط الصلة بين الاتراك و حلفائهم الالمان من جهة والليبيين والتونسيين من جهة أخرى ولا سيما ان البعض منهم مثل علي باشحانبة الذي اصبح مستشارا لدى الحكومة التركية كان يوء من بفكرة تحرير المغرب العربي بحد السلاح (1) مثله مثل الشيخ صالح الشريف والشيخين اسماعيل الصفائحي والخضر حسين الذين التحقوا بالمانيا بتكليف من تركيا للقيام بمهمة خاصة تتمثل في الاتصاء بأسرى الحرب المغاربة " وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح والذخيرة وترسل عن طريق الغواصات الى طرابلس وكان مقررا ان يرأسها علي باشحانبة ،ليكون مندوبا عن الخليفة العثماني لتحرير مسلمي الشمال الافريقي من الاستعمار المسيحي (2) يقول الشيخ الطاهر الزاوي : " قد انتهز الاحرار من التونسيين والجزائريين والمراكشيين فرصة نشوب الحرب في سنة 1914 ،فالفت جماعة منهم وفدا اخذ يعمل لانشاء" جمهورية شمال افريقيا" ينضوي تحت لوائها من حدود مصر الى حدود بحر الظلمات وكان في مقدمة هوءلاء السادة المجاهدين السيد علي باشحانبة والشيخ صالح الشريف والشيخ اسماعيل الصفائحي وهوءلاء الثلاثة من تونس،و معهم جماعة من الجزائريين والمراكشيين وعرض (نواظر الخارجية العثمانية) اقتراح الوفد على سفير المانيا بتركيا فأبلغه بأن حكومته لا تتعهد لأبناء شمال افريقيا بالاستقلال الا اذا ثاروا على الفرنسا ويين الذين يحتلون بلادهم " .

---

1) وزارة الخارجية ، سلسلة الحرب 1914 ـ 1918 كرتون 1597 برقية من الشؤون الاهلية الى المقيم العام بتاريخ 14 اكتوبر 1915 ذكرها ليسير ص 175 .

2) علالة الفاسي ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي اورده حمادي الساحلي في المذكور سابقا :نشاط الوطنيين ... ص 184 .

3) نفس المصدر و نفس الصحيفة .

فليس من المستبعد ان تكون هناك خطة قد وضعت من قبل تركيا والمانيا والوطنيين التونسيين المهاجرين في الشرق للتخلص من الاستعمار الفرنسي في منطقة شمال افريقيا عبر الكفاح المسلح بالتنسيق مع الثوار الليبيين وبدعم عسكري تركي ـ الماني ،فكانت الرسائل ترد على تونس من القسطنطنية محرضة على الثورة وكانت هذه الرسائل تصدر عن سليمان الباروني والنوري باي وقد جاء في احداها " انكم تشتكون من نقص السلاح ،فنحن سنرسله اليكم ،ولكن لديكم السلاح الذي يحمله ابناؤكم المجندون قسرا من قبل فرنسا (1) وهكذا تبدو لنا ان ثورة 1915 بالجنوب التونسي تتنزل في هذا الاطار فالرسائل كانت موجهة الى بعض الشخصيات التونسية بتونس على طريق طرابلس (2) فلا تستبعد ان يكون الحاج سعيد بن عبد اللطيف الدبابي الذي كان عضوا بالجمعية الثورية بالعاصمة قد مكنته صفته هذه من الاتصال برجال العاصمة ؟ وحمل منهم التعليمات الى شيوخ القبائل بجهته وعقد اجتماعات بهؤلاء الشيوخ في تطاوين (3).

فكما يبدو ان هذه التعليمات كانت تتخذ من خارج البلاد وتضمن في رسائل يحملها "ثقاة" من ضمن المهاجرين التونسيين بتركيا او بليبيا من اشهرهم مصباح بريبش الغيلوفي (4) الذي كان يقوم بدور عون اتصال بين قبائل الجنوب التونسي والثوار التونسيين اللاجئين الى طرابلس وقد عمل مصباح الغيلوفي وهو من انصار سليمان الباروني والنوري باشا الى ادخال رسائل وعرائض تركية والمانية الى تونس تندد بالاحتلال الفرنسي وتدعو الى الثورة (5) وهكذا تمت اتصالات بين عدد من شيوخ واعيان بني زيد مع قادة القوات التركية والثوار التونسيين

---

1) Goldstein(D):Libération...Op,Cit,P 156

1) [illegible] مصدر سابق .

2) " " : محمد المرزوقي ، دماء على الحدود ص 38.

3) " " ص 39.

4) مصباح بريبش 1837 ـ 1925 وهو مصباح بالحاج عمر بن فرج الغيلوفي من قرية بني غيلوف الحامة التحق بطرابلس 1911 مع والده للمشاركة في مقاومة الطليان وبقي هناك في ليبيا كانت له صلات بالضباط الاتراك كما كانت له علاقات بشخصيات تركية وتونسية في الكفاح المسلح بليبيا وبتونس توفي عطشا وهو في طريقه الى مصر اثر فشل ثورة خليفة بن عسكر وحملة الايطاليين على الذين شاركوا فيها .

5) وزارة الخارجية كرتون 61 ملف 2 تقرير المقيم العام الفرنسي بتونس قابريال الابتيت "Alapetite" بتاريخ 6 اكتوبر 1917 ذكره محمود فروة المقاومة المسلحة ص 63.

بطرابلس الهدف منها دفع قبائل أقصى الجنوب التونسي بما فيهم قبيلة بني زيد وقبائل الوسط وخاصة الهمامة واجلاص للثورة في وجه الاستعمار الفرنسي (1)

اذن كانت هذه الرسائل محل مداولات بين اعيان القبائل وزعماء العروش باجتماعات تحضيرية سرية نظرا لخطورة الموقف ،فالدعوة للثورة كانت موجهة الى معظم القبائل التونسية ومع ذلك لم تنجح الا في عروش الودارنة للتراب العسكري رغم جهاز الامن (المخازنية والقومية والمخبرين) الذين احكم الفرنسيون تركيزه في اقصى الجنوب بينما تمكنت السلطات الاستعمارية " المدنية " بقابس من احباط محاولة زعماء عروش بني زيد اعداد الثورة بجهة الحامة ومن هنا يمكن ان نتساءل مع فتحي ليسير " هل يعني هذا ان المراقبة الامنية كانت اكثر نجاعة داخل المنطقة المدنية ؟ " (2)

ففي الواقع ان فشل ثورة 1915 اونجاحها كان على يد التونسيين العاملين ضمن نظام الحماية سواء في الادارة اوفي جهاز الامن بحيث ما كانت السلط الاستعمارية تتفطن الى استعدادات بني زيد للثورة لو لم يقم الخليفة محمد الزاوي (خوفا ؟ اوخيانة ؟) بابلاغ تفاصيل " المؤامرة الى المراقب المدني الفرنسي بقابس بواسطة الهاتف واعلامه بالرسائل التي سافر بها الشيخ الزائر الى تونس (3) .

---

1) وزارة الخارجية ،كرتون 61 ملف 2 رسالة المقيم العام الفرنسي بتونس بتاريخ 27 سبتمبر 1917 ذكره محمود فروة ،المقاومة المسلحة ص 63 .

2) مصدر سابق ، ليسير : نجع ورغمة ،ص 168 .

3) مصدر سابق ، دماء على الحدود ص 43

وهكذا تم القاء القبض على الشيخ الحبيب الزائر (شيخ الدبدابة وكاهية الخليفة) عند نزولة بمحطة القطار في تونس العاصمة محملا بالرسالتين : رسالة النوري باشا ورسالة كتبها الحاج عمار بوطارة (سكرتير الخليفة) يطلب فيها باسم بني زيد من حسن القلاتي التعليمات ، وقد تم حجزها وارسالهما الى وزير الخارجية الفرنسي ريبو (1) في حين يذكر امحمد المرزوقي ويؤكده " الحوامية " بانه تسرب السر (التفتيشي عن الشيخ الزائر حامل الرسائل) الى (الشاوش الطيب الزمزمي الحامي) الذي كان يشغل شلوشا بالصبائحية بمراقبة صفاقس... فذهب الى محطة القطار حتى عثر عليه واشار عليه بأن يتلف ما عنده ، فأسرع الشيخ الزائر الى أكل الرسائل ... " (2)

وعموما تكشف هذه الحادثة عن وجود علاقة بين الانتفاضة وحركة الشباب التونسي عكس ما نفاه الاستاذ محمد صالح اللاجري التي ربطها بحركة السنوسية في ليبيا (3) وفي كلتا الحالتين فالاضطرابات بتونس أثناء الحرب تعود الى عمل مشترك بين الاتراك والوطنيين التونسيين بالخارج .

ومن الملاحظ ان سلطان الحماية بعد كشفها " مؤامرة بني زيد عمدت الى تعزيز قواها العسكرية في الجنوب والى تقديم شيوخ بني زيد للقضاء العسكري بتهمة التواطيء مع العدو وقد نظر " مجلس الحرب" المنصب في تونس يوم 10 جانفي 1919 في القضية وأصدر احكاما تتراوح بين 10 سنوات

---

1) مصدر سابق : محمود قروة : المقاومة المسلحة ... ص 64 .

2) امحمد المرزوقي : الدغباجي ، طبعة ثانية ، منشورات مكتبة المنار ، تونس 1979 ، ص 43 .

3) Lejri (M.S) ; Evolution du Mouvement National Tunisien des Origines à la Deuxième Guerre Mondiale, M.T.E, Tunis (1974, P P 158-159.

اشغال شاقة و 20 سنة تحجير اقامة بالنسبة للحاج عمار بن محمد بوطارة و 5 سنوات اشغال شاقة و 10 سنوات تحجير اقامة بالنسبة لسعد بن عمر العياشي وعمر بن فرج الفيلوفي ،اما الحبيب الزائر فقد حوكم بثماني سنوات اشغال شاقة و 15 سنة تحجير اقامة (1) .

وهكذا فشلت ثورة بني زيد قبل اندلاعها ،اما في منطقة التراب العسكري فقد استطاع زعماء عروش الودارنة الانتقال من مرحلة الاعداد للثورة الى مرحلة التنفيذ منذ سبتمبر 1915 وبتعاون مع الثوار الليبيين في مناطقة حدودية تمتد على مشارف الصحراء من ذهيبة الى رمادة تخلى عنها الفرنسيون ليتمركزوا بكثافة في الشمال قصد الاحاطة بالقبائل الاخرى (مدنيين والتوازين ...) التي بقيت وفية لنظام الحماية (2) فبقيت المنطقة عارية بعد ما اضطر الايطاليون ايضا الى الانسحاب منها تحت ضغط هجومات خليفة بن عسكر النالوتي ولم يبق حراسة هذه المواقع الا للمخازنية والقومية الذين تعاطف بعضهم مع المتمردين بل التحق عدد منهم بهم (3) .

ومن هنا استقطبت المنطقة الحدودية بين تونس وليبيا في اقصى الجنوب " المجاهدين من التونسيين والليبيين ،وتسنى لخليفة بن عسكر ان يتخذ منها منطلقا لأعماله العسكرية ضد الايطاليين والفرنسيين وبدأت الثورة بمناوشات بين المتمردين تدعمهم قوات خليفة بن عسكر النالوتي ومن جهة اخرى حراس الحدود ،سرعان ما تحولت الى معارك بين جيش خليفة بن عسكر والقوات الفرنسية في ذهيبة (16-20 سبتمبر 1915) وفي رمثة

---

1) في تقرير المقيم العام الفرنسي ايتيان فلاندان الى وزير الخارجية ستيفان بيشون بتاريخ 20 جانفي 1919 ذكر محمود فروة "المقاومة المسلحة" ص ص 64-65 .

2) مصدر سابق : (2)Martel(A):"Soulèvement Tribaux...Op,Cit,P 153.

3) تقرير الجنرال موانيي : (Moinier) بخصوص الوضع في تونس بتاريخ 11 اكتوبر 1915 ذكره فتحي ليسير ،المصدر السابق ،167 .

(25 سبتمبر 1915) وأم صويغ (2 ـ 9) اكتوبر (1915) ثم ذهيبة من جديد (20 ـ 25) جوان 1916 ورمادة (26ـ27 جوان (1916) وبئر مفري (30 جوان 1916) (1) .

ولكن منذ خريف 1916 دخلت الثورة طور حرب العصابات (2) تعتمد اسلوب الغارات الخاطفة مستهدفة قوافل تموين الجيش الفرنسي فضلا عن القوافل التجارية وقطعان الماشية (3) .

وقد جاءت حصيلة هذه المعارك ثقيلة بحيث تكبدت فرنسا وفاة (2200) شخص سقطوا في ساحة الوغى أو ماتوا متأثرين بجراحهم (4) في حين استشهد مئات من بين " الثوار (5) بالاضافة الى من قد اعتقلتهم السلط الفرنسية من الاهالي ومن أعدموا رميا بالرصاص فما بين 1916 ـ 1917 ، اصدر مجلس الحرب 49 حكما بالاعدام (6) ومن جهته اصدر المباي اوامر علية تأذن بحجز املاك المهاجرين .

وانتشرت اخبار الاحداث الدائرة في الجنوب بسرعة عجيبة داخل البلاد .

---

1) انظر خريطة مواقع اهم المعارك ، رقم : 4 .

2) مصدر سابق : امحمد المرزوقي : دماء على الحدود ... ص 103 .

3) خ . ح . ت سلسلة كرتون 196 ملف 1 التقارير الشهرية من صائفة 1916 الى سنة 1918 .

4) مصدر سابق : Goldstein(D), Liberation...Op,Cit,P:149.

5) انظر قائمة شهداء معارك الجنوب ما بين 1914 ـ 1916 بالملحق .

6) مصدر سابق : Meynier(G), L'Algerie Revelée...Op,Cit,P 493.

وحتى خارجها ووصلت الى الجنود التونسيين في المغرب وفي فرنسا (1) وتزامنت هذه الاخبار مع دعاية المانية مكثفة ورواج اشاعات حول قرب وصول " السنوسية" (2) الى تونس كالجراد المنتشر " (3) وخشيت السلط الفرنسية تململ القبائل التونسية فشددت الرقابة عليها وفي الآن نفسه عملت على القضاء على انتفاضة اقصى الجنوب الا ان بعض التونسيين الذين كانوا ضمن القوات الفرنسية المكلفة بهذه المهمة ، انسلخوا مخلين بالتزاماتهم مع الجيش الفرنسي والتحقوا بخليفة بن عسكر وعملوا تحت لوائه ومثال لهؤلاء ممن علقوا بالذاكرة الجماعية .

---

1) مصدر سابق : (1)Goldstein(D):Libération...Op,Cit,P 155.

2) السنوسية : هي حركة اصلاحية ذات طابع ديني منبثقة عن الحركة الوهابية ينتسب الى الشيخ محمد السنوسي جزائري الاصل كان قد فر من الجزائر بعد 5 سنوات من سقوطها في يد الاستعمار الفرنسي الى طرابلس (ليبيا) حيث اسس عدة زوايا في برقة اهمها زاوية جغبوب التي تأسست في 1855 وبعد وفاته سنة 1859 تقلد ابنه زعامة الحركة ونقل مقرها الى واحات كفرة سنة 1885 وكانت الزاوية مركزا روحيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا استطاعت ان تخلق لها اتباع وزوايا تابعة بالمنطقة الصحراوية في شمال افريقيا ويذكر علي المحجوبي في كتابه :" جذور الحركة الوطنية ... (مصدر ذكر سابقا ص147) كان للسنوسية عدة مرادون بالجنوب التونسي ، اعلنت السنوسية الجهاد على الاستعمار واستفحل امرها اثناء المقاومة الليبية للاستعمار الايطالي كما استجابت لنداء السلطان العثماني الى " الجهاد المقدس" فتحالفت مع القائد الليبي خليفة بن عسكر الا ان هذا التحالف قد فتر بعد ما عقد خليفة بن عسكر الصلح مع الفرنسيين وبعد التقارب بين السنوسية والايطاليين .

3) مصدر سابق 3)Goldstein(D):Libération...Op,Cit,P 155

محمد[1] الدغباجي و مجموعة من رفاقه ولكن الدغباجي لم يظهر على ساحة الاحداث في الجنوب التونسي الا بعد تراجع خليفة ابن عسكر عن القيام بوقائع داخل التراب التونسي وحصر نشاطه في مقاومة الايطاليين بليبيا و ظهور الانشقاق في صفوف رواد ثورة 1915 مع بوادر هزيمة المانية و خسارة تركيا الحرب (2) حينئذ ظهر اسم محمد الدغباجي كقائد لعصابة تنتقل من التراب الليبي الى التراب التونسي حيث قامت بعدة وقائع اقلقت السلط الفرنسية فحكمت عليه بالاعدام غيابيا ولم يقطع الدغباجي صلته بخليفة بن عسكر لايمانه حسب رسالته الى خليفة الحامة بتاريخ 16 فيفري 1920 " فحركتنا تمتد من فاس الى مصراته ، وليس هناك احد يستطيع ايقافنا ، اننا رعايا حكومة اقوى من الحكومة التي تأمرون بأمرها حكومة تفهم وتعرف كل شيء وتمارس احكامها بمقتضى تعاليم دين محمد ، ونقسم على اننا لو لم تكن ننتظر ساعة الخلاص لأحرقنا كل شيء (3)

ولما التقى الجنرال قرازياني " القبض على خليفة بن عسكر في 28 ماي 1922 كان معه محمد الدغباجي كأحد ضباطه قد حضر لتسلم السلاح كان الايطاليون قد وعدوا به. وقد تم تسليم الدغباجي الى السلطات الفرنسية التي نفذت فيه الحكم بالاعدام الصادر ضده في ماي 1921 وذلك يوم 1 مارس 1924 بساحة الحامة .

وهكذا نلاحظ ان ثورة 1915 قد مرت بثلاثة اطوار طور الاعداد للثورة

---

1) محمد الدغباجي : محمد بن صالح الزغباني ولد سنة 1885 بحامة قابس نو دي للخدمة العسكرية سنة سنة 1909 ثم تطوع سنة 1913 في الجيش الفرنسي بحكم الحاجة فارسل ضمن كتيبة عسكرية الى الجنوب التونسي لاخماد انتفاضة الودارنة الا انه التحق بالثورة وانظم الى جيش خليفة بن عسكر وسرعان ما تحول بطلا شعبيا يتغنى الشعراء ببطولته.

2) مصدر سابق : امحمد المرزوقي : الدغباجي ... ص 57.

3) نفس المصدر : ص 64.

وما تطلبه من تحركات هامة قام بها الوطانيون التونسيون للتنسيق بين العمل في الخارج والكفاح في الداخل ، مرت اثره الثورة في اقصى المناطقة الوحيدة من التراب التونسي التي شهدت مدا ثوريا امتد من صائفة 1915 الى صائفة 1916 تلاه طوران كماش نسبي تجسد في حرب عصابات خاطفة استمر الى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وتفرغ فرنسا لأخماد الانتفاضات التي انجبتها ثورة 1915 بالجنوب التونسي وبالتالي " اعادة الأمن " من خلال السيطرة على جيوب التوتر في شمال افريقيا .

فهل لهذا الانكماش الذي عرفته ثورة الودارنة علاقة بما يجري من تطورات على مستوى الحرب العالمية بعد دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب الى جانب دول التحالف في 1916 ؟ اوكان الانكماش نتيجة توقيع خليفة بن عسكر صلحا مع فرنسا ، يقتضي ان تسلم فرنسا من جهتها لأبن عسكر جميع المحتشدين والمهاجين الليبيين الراجعين بالنظر اليه وان يقوم هو من جهته بمنع أهل مناطقه من الاغارة على الحدود التونسية (1) ؟

اوكان الالتجاء الى حالة الانكماش ضرورة فرضتها التعزيزات التي قامت بها السلط الاستعمارية لمواجهة " التمرد " بمنطقة الحدود حيث تمركز 15000 رجل تدعمهم الشاحنات والسيارات والاذاعة والهاتف وخاصة الطائرات التي كانت تقلع من مطار قابس في مهمات استكشافية اولضرب مواقع المتمردين (2) ؟

وأخيرا هل بتهدئة الوضع بمجالات ورغمة تمكنت فرنسا من اعادة الأمن الى كافة انحاء الجنوب وبالتالي اعادة احكام سيطرتها على البلاد ؟

---

1) مصدر سابق : محمد المرزوقي : دماء ... ص 91 .
2) مصدر سابق : 2)Martel(A):"Soulèvement Tribaux"...Op,Cit,P.154.

الثورة اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها :

لقد انخرم بسرعة الوضع الدولي الذي افرزته الحرب العالمية الاولى اذ لم تمض عشرون سنة عن نهاية هذه الحرب حتى بدأت تظهر في الافق حرب ثانية ، اندلعت في سبتمبر 1939 وكانت اكثر ضراوة وشمولا بحيث ضمت فرنسا وانقلترا ثم التحقت بهما روسيا وبعدها الولايات المتحدة الامريكية ،في مواجهة المانيا وايطاليا واليابان ، ومثلما وقع في الحرب الاولى جرت الدول المتطاحنة مستعمراتها الى خوض الحرب. ولم تكن مشاركة تونس بابنائها الذين دفعت بهم فرنسا الى جبهات القتال في أوربا فقط بل حملت الحرب بأرضها لمدة ستة اشهر (نوفمبر 1942 ـ ماي 1943) والتقت هذه الرقعة الصغيرة مئات الآلاف من جيوش خمس دول كبرى (انقلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية والمانيا وايطاليا) كانت تتصارع من اجل اقتسام العالم بل من اجل اعادة اقتسامه ،وقد مثلت معركة تونس بالنسبة للرأي العام الاستعماري والدولي الطرف الرئيسي في الحرب فعوامل الدعاية والتعبئة التي قامت بها الدول المتحاربة قبل معركة الستة اشهر بتونس ، واثنائها وأثرها تؤكد ما لهذه المعركة من بعد في مسار الحرب ككل (1) .

فمنذ بداية الحرب تفطنت دول المحور والحلفاء الى الأهمية الاستراتيجية للمتوسط وللدور الهذي يمكن ان تلعبه منطقة شمال افريقيا وتأثيرها على مجرى الاحداث العسكرية والسياسية فكان

---

1) الكرابي القسطنطيني : الثوابت والتجديد في الفكر الاصلاحي غداة خروج المحور من تونس ماي ديسمبر 1943 ، أعمال الملتقى الرابع حول تاريخ الحركة الوطنية للبلاد التونسية من 1939 الى 1945 ، منشورات علمية تونسية ، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية عدد 4 ، تونس 1989 ص ص 114 و 67 .

التنافس على كسب الرأي العام المغاربي ،اعتمادا على وسائل الاعلام ولا سيما الاذاعة مثل اذاعة باري واذاعة برلين لفائدة " المحور" اما الحلفاء فقد استعملوا محطاة اذاعة الجزائر والمغرب وتونس والسنغال وخاصة قبل غزوهم لشمال افريقيا واثنائه وبعده للتخفيف من وطأة التأثير النفسي للغزو . (1)

وليست الاذاعة الوسيلة الوحيدة للدعاية فقد استعملت المناشير المحررة بالعربية وارسال مبعوثين من رجال اعمال وسياح ولاجئين سياسيين ومحاولة استمالة جميع قادة الحركة الوطنية في نطاق استراتيجية اضعاف الخصم (2) ،وقد تكثفت الدعاية الالمانية بانشاء " لجنة" الدفاع عن تونس" على غرار " لجنة الدفاع عن المغرب العربي" كما خصص الالمان بباريس بعد اكتساحها مكتبا للدعاية خاص ببلدان المغرب العربي يديره القنصل فشال (Vassel) بمساعدة ياسين عبد الرحمان (3) قصد ادخال الاضطراب في صفوف الاعداء ولا سيما بعد نداء الحاج أمين الحسيني مفتي القدس اللاجيء بألمانيا الى الجهاد المقدس من اجل استقلال شمال افريقيا مستغلا

تناقض اهداف الألمان مع غايات الايطاليين من التواجد في البلاد التونسية مقدما خدمة لصديقه عبد العزيز الثعالبي (4) وذلك لأن المانيا كانت تهدف من خلال دعايتها الى اضعاف فرنسا ،بينما كان هدف

---

1)Kingston(P.J):"A Studyin Radio Propaganda Beoadcasts in French From North And West African Aadio Stations,8 Novembre 1942 14 Decembre 1942" in Revue d'Histoire Maghrebine,11eme année,N°33-34 Juin 1984, Tunis, P.P: 127-141.

2)El Mechat;"LaTunisie Pendant la Deuxiéme Guerre Mondiale (1939-1944);un Revue d'Histoire Maghrebine,11eme année,N°33-34 Juin 1984 P.P:64-91.

3) نفس المصدر، ص 68.

4)Helmut Mejcher "North Africain the Strate Gyand Politics Of the axis Powers 1936-1943", in Les Cahiers de Tunisie,N°117-118 Tome XXIXe,3e et 4e Trimestre, Tunis,1981,P.P: 629-648.

ايطاليا حسب تحديد عبد العزيز الثعالبي "مهاجمة فرنسا الديمقراطية واحتلال بلادنا او جعلها على الاقل موطنا لمهاجريها (1) بعد سنة من التصورات على مستوى العلاقات الدولية فاننا نجد الثعالبي يستدرك قائلا : " ان الديمقراطية الحقيقية هي التي تعترف بحقوق الشعوب وتحمي الحريات من جميع الانتهاكات ، سواء كانت صادرة عن نظام أوتقراطي او نظام ديمقراطي " (2) وهكذا نلمس مغازلة من اللجنة التنفيذية " لروما لا تقل عما جاء في رسالة بعث بها بورقيبة الى الشريف الامين الحسيني، في مطلع 1943 يقول فيها : " ان الشعب التونسي يرفض التعامل مع دولة لا تعترف باستقلاله فبمجرد تصريح مشترك بين الحكومة الايطالية والحكومة الألمانية على نحو ما جرى في مصر يصبح الشعب التونسي حليفا طبيعيا للمحور ... فالاستقلال تونس نتيجة حتمية لهزيمة فرنسا ... ولكن لا اعتقد ان الحكومة الايطالية تقبل بهذه الشروط ... (3) لقد غذت الدعاية من قبل الصرفيين " المحور" والحلفاء طموحات التونسيين في الاستقلال ولا سيما انها تزامنت مع سياسة تعسفية زادت من حالة الحصار المفروضة على البلاد التونسية منذ 1938 . ولكن صورة فرنسا العظمى قد اهتزت في نظر التونسيين العزل بعد ما اقتحمت القوات الألمانية ترابها واحتلته سنة 1940 والتجاء الرافضون الاحتلال الألماني الى المستعمرات (الجزائر) في محاولة تنظيم المقاومة فمنذ 18 جوان 1940 صرح شارل ديقول (De Gaulle) بأن فرنسا لا تخوض وحدها الحرب بل وراءها امبراطورية يجب ان تستعمل كقاعدة للموازرة والصمود (4) .

---

1) جريدة الارادة: 21 ديسمبر 1938 .
2) = = : 12 اكتوبر 1939 .
3) Histoire du Mouvement National, T VI, Publications du Centre de Documentation National, P 76.
4) Charles De Gaulle: Mémoires de Guerre, T3, Editions, plon, 1962

لكن قوات المحور ارادت سلب هذه القاعدة الافريقية فهاجمت في 9 نوفمبر 1942 البلاد التونسية وفرت الجيوش الفرنسية في اتجاه الشمال الغربي للبلاد ، وانقسمت السلطة الاستعمارية بتونس بين مركزي قوى سياسية مركز اول موال لحكومة " فيشي " مقره تونس العاصمة ويشرف عليه المقيم استيفا (Estera) ويدعو الى التعامل مع قوات المحور لمعسكر الحلفاء (1) .

اما الباي " المنصف باي " فقد دعا الى التزام بالحياد (2) فما هو رد فعل الشعب التونسي امام تحول مسرح المعارك بين القوى العالمية المتحاربة الى ارضه وامام تباين مواقف قادة الحركة الوطنية وتناقضها اذا كانت مواقف متذبذبة حسب ميزان القوى في هذه الحرب بفعل هاجس الحصول على الاستقلال ؟ فهل سيستجيب الشعب الى نداء الباي الى الحياد ، او الى دعوة الشيوعيين " الى اعانة الجيوش الامريكانية بمقتضى ارشادات ونصائح اذاعتهم ومناشيرهم ((3) او هل سيندفع وراء مناصرة الالمان والايطاليين تحت شعار " عدو عدوي صديقي " .

---

1) مصدر سابق ، الكراي القسطنطيني ، " الثوابت والتحديد في الفكر الاصلاحي " اعمال الملتقى الرابع : " ص 113 .

2) لقد صرح قابريال بيو (G.Puaux) ممثل الجالية الفرنسية بمجلس الجمهورية : لقد كان موقف المنصف باي تجاه الالمانيين والايطاليين متحرزا دوما وابدا وهو لم يستسلم الى الضغوط ولا الى الاغراءات " مجلة الحوليات ، ص ماي 1951 .

3) منشور وزعه الحزب الشيوعي اثر نزول الجيوش الامريكية بالمغرب ورد بكتاب " النضال السري للحزب الشيوعي في تونس ضد الهتلرية والقائمين بخدمتها . نشر من قبل الحزب الشيوعي في 1945 ، ص 40 ، ذكره حبيب القزدغلي في مقاله " تطور سياسة الحزب الشيوعي التونسي خلال الحرب العالمية الثانية " اعمال الملتقى الرابع (ذكر سابقا) ص 173 .

ثورة المرازيق: 43 - 1944 .

يعيش المرازيق بالجنوب الغربي للبلاد التونسية في منطقة نفزاوة على الحدود التونسية الجزائرية ويقول المرزوقي انهم من المرابطين(1) تمركزوا على مشارف الصحراء ونظرا لأهمية موقع " مضاربهم حاولت سلطة البايات ادخالهم في خدمتها " كمخزن " يمدونها بالفرسان ويساعدونها على المحافظة على الامن ومراقبة الحدود وكان المرازيق من صف يوسف (2) .

وعند انتصاب الحماية، انخرط عدد هام منهم ضمن المخازنية والقومية وهذا لا يعني انهم تخلفوا عن المشاركة في انتفاضات الجنوب ضد الحضور الفرنسي في 1881 (3) اوفي 1915 (4) .

فما الذي جعل المرازيق يتحولون من موقع الخضوع الى موقع التمرد وهل كانت ثورتهم حلقة جديدة في سلسلة ثورات سكان الجنوب وتحركاتهم المناهضة للحضور الاجنبي ؟ او هي مجرد حركة عصيان قام بها اعوان " المخزن " ضد مسيريهم ؟

لقد جاء في تقرير احتلال نفزاوة بتاريخ 10 افريل 1943 " دخلت القوات الايطالية قرية دوز في 1942 وقد استقبلها اهالي نفزاوة بحفاوة وقد عبروا عن ابتهاجهم باشكال مختلفة فلئن اكتفى سكان القرى بمظاهرات الترحيب والهتاف بالاماكن العمومية ...فان البدو وكعادتهم تجاوزوا التعبير عن مشاعرهم بتقديم العون المادي للاعداء وقد وصل بهم

---

1) محمد المرزوقي، ثورة المرازيق، تونس 1979 ص 12 .

2) مصدر سابق : 2)Martel(A):"Soulèvement Tribaux...Op,Cit,P:145.

3) مصدر سابق : محمد المرزوقي، صراع مع الحماية، ص 238 .

4) مصدر سابق : دماء على الحدود، ص 255 .

الامر الذي حد حمل السلاح في وجه القوات الفرنسية " (1) .

فهذا التقرير يشير الى ان البدو هم الذين لجؤوا الى الكفاح المسلح في حين يذكر الملازم الفرنسي سيران (SIRAN) انه في الوقت الذي بدأت فيه التحرشات ضد الفرنسيين المتواجدين بنفزاوة كانت عناصر من المرازيق تابعة لفرن الامن تعلن التمرد ، وترفض اوامر مسيريها (2) وهذا ما يؤكده الاستاذ حمادي الشريف الذي اجرى استجوابا مع من عايشوا الاحداث ولا سيما علي الصيد احد قادة انتفاضة المرازيق فيذكر " ان المرازيق غربي الجنوب التونسي الخاضع للنفوذ العسكري الفرنسي كانوا يوفرون الاعوان الذين رفضوا اتباع قسم كبير من قادتهم في انحاء الجزائر ابان الاحتلال اليطالي ـ الالماني .

لذا اعتبرهم الضباط الفرنسيون " متمردين (3) فهؤلاء متمردون في نظر الموالين للقيادة العليا بالجزائر ، في حين هم ينفذون نداءات المقيم العام " استيفا " الموالي لحكومة " فيشي " (Vichy فهو ما انفك يطلق النداءات حتى يعصي الجنود اوامر رؤسائهم لا سيما اوامر القيادة العليا بالجزائر جيرو وجماعته (4) .

وعموما فقد تمردت الفرقة المرابطة بدوز وهددت الضباط الفرنسي بالموت ان حاول نزع سلاحها ، كما تخلت سرية يقودها محمد بن خالد عن مواقعها بحصن فورسان Fort Saint بعد ما استولت على كميات من الاسلحة والمهاري في 28 ديسمبر 1942 ، ثم توجهت بغنيمتها الى غدامس لتحتمي هناك بالايطاليين ، وفي الجريد تمكنت مجموعة

---

1) عبد الحميد حسن : ثورة المرازيق 1943 ـ 1944 ، في اعمال الندوة الدولية الخامسة حول البلاد التونسية في فترة ما بعد الحرب 1945 ـ 1950 ، ماي 1989 ، (ذكر سابقا)

2) سيران : مسالك المرازيق ص 142 ذكره عبد الحميد حسن في مقاله السابق الذكر ص 327 .

3) محمد الهادي الشريف : الحركة الوطنية والاحتلال الالماني والايطالي لتونس نوفمبر 42 ماي 1943 اعمال الندوة الرابعة حول تونس من 1939 الى 1945 ، ص ص 157 ـ 159 .

4) Tunis-Journal, le 9 mars 1943 .

من اعوان المخزن كانت في طريقها الى الجزائر من التخلص من قائدها و مساعديه والاستيلاء على الاسلحة والمهاري ثم العودة الى دوز (1) .

ومن هنا يمكن ان نستنتج ان اعوان المخزن " المتمردين " قد شكلوا نواة الانتفاضة التي تعززت بتكوين فرقة مسلحة من الشباب ردا على غارات الجنود الفرنسيين الذين تحولوا الى مقاومة الايطاليين انطلاقا من التراب الجزائري ولم تسلم ارزاق و ماشية المرازيق من سطو هؤلاء العسكريين الفرنسيين يقول محمد المرزوقي " شرعت فرقة من الجيش الصحراوي في نهب من وجوده امامهم من السكان فان كان رجلا اعزل كتفوه بدعوى انه جاسوس للايطاليين وان كان عنما اخذوه منها ما ارادوا بدون مقابل (2) .

ومن هنا نلاحظ ان انتفاضة المرازيق قد شارك فيها اعوان المخزن المتمردين " و شباب من البدو و هم بدورهم متمردين على القيود القبلية البالية (3) .

فبماذا نفسر هذا التمرد الذي يكاد يكون يتيما في تلك الفترة الدقيقة التي عزت فيها قوات المحور البلاد التونسية ؟

من الصعب علينا الاجابة ونحن لم نلم بكل حيثيات الانتفاضة التي تتطلب لوحدها بحثا معمقا من خلال الارشيف (4) واستجواب من عايشوا تلك الاحداث نظرا للتعتيم الاعلامي الذي غرقت فيه الانتفاضة مثل غيرها من التحركات الشعبية العفوية و مع ذلك يمكن الاشارة الى عدة عوامل :

---

1) مصدر سابق : عبد الحميد حسن : ثورة المرازيق، ص327 .

2) مصدر سابق : محمد المرزوقي : ثورة المرازيق .

3) Sarel-Sternberg: " Semi-Nomades au Nefzaoua in Nomades et Nomadismes, P L23.

4) انظر خريطة الحكومة التونسية ، سلسلة الحركة الوطنية صندوق 49 ملف 2، وايضا المعهد الاعلى للحركة الوطنية سلسلة حرب 39-1945 الجزائر كرتون 867-877-778-882 و 883 تونس من 3 الى 7 .

وأمام الانتصارات الاولى التي حققتها دول المحور على فرنسا ،اعتقد العديد من التونسيين ان فرنسا قد خسرت الحرب و ساد الاعتقاد بان تونس بامكانها التخلص من الهيمنة الفرنسية ولا سيما ان الوطنيين كمجموعة افريقيا الفتاة) ما انفكوا يذكرون الناس بوعود المانيا عبر اجهزة الراديو باستقلال تونس و شمال افريقيا (1) وكان الجنوب التونسي والمناطق الحدودية مسرحا للدعاية الفاشية والنازية ،وليس من الغريب ان تحي هذه الدعاية ارتباطات عاطفية كانت قائمة بين سكان الجنوب والمانيا إبان الحرب العالمية الاولى تدعمت بالنزعة اللاسامية للنازية فاصبحت الرايخ خليفة قديمة جديدة (2) ولكن الغريب هو تحول عدو الامس الايطاليون الى حلفاء اليوم !

يبدو ان سكان الجنوب والتونسيين عموما قد تغافلوا عن اعدائهم للايطاليين ،بما ان هؤلاء وحدهم بامكانهم مساعدتهم على التخلص من الحضور الاجنبي ،وفعلا فقد مول الايطاليون شباب المرازيق المتمردين بالسلاح كما تمكنوا من جمعه بانفسهم فقد زرع المحور البلاد التونسية على طول المسالك والمواقع التي مروا بها اسلحة وذخيرة والغام فساهموا بطريقة او بأخرى في تنشيط تجارة الاسلحة من ناحية وفي تمويل الثورات في شمال افريقيا سواء ابان تواجدهم بالايالة التونسية او بعد رحيلهم عنها . ولما حلت جيوش المحور بالبلاد التونسية وكانت الاوضاع بها سيئة فالسكان يشتكون من ارتفاع الاسعار بصورة مهولة واستفحال ظاهرة السوق السوداء" ،ونقص في المواد

---

1)El Mechat(S): "La Tunisie Pendant la Geurre"...Op,Cit,P 66

2)Martel(A):"L'Année 1941 dans le Monde Arabe on le Temps des Allemands" un Actes du 4eme Seminaire sur la Tunisie de 1939 a 1945,...Op,cit, P P 29-42.

الغذائية الى جانب سياسة تعسفية قصد مسك البلاد بيد من حديد زيادة على حالة الحصار المفروضة منذ 1938 ، وكانت هذه السياسة اشد وطأة على سكان التراب العسكري حيث عمدت السلط الى تطبيق الاجراءات الاستثنائية مثل تشديد الرقابة على المواطنين ، اذ بمجرد الوشاية يمكن ايقاف أي كان و وضعه بالسجن لفترات متفاوتة (2) مما ادى الى توتر الوضع بالجهة ولا سيما انها قريبة من الحدود الليبية ، وما ان دخلت جيوش " المحور الى هذه المنطقة حتى تكثفت حركة هروب المجندين التونسيين في صفوف الجيش الفرنسي وقد عاينوا انهزام القوات الفرنسية وضعف معداتها وعتادها ، والتضارب في المواقف السياسية ، وبروز سلطتين فرنسيتين متناقضتين في الولاء والتصريحات (3) .

ومن هنا نلاحظ ان ظرفية الحرب قد لعبت دورا اساسيا في تحريك ابناء المرازيق الذين هبوا للقيام بالثورة في الوقت الذي هرب فيه سكان قابس من منازلهم امام هول المعارك وخوفا من القصف سواء بواسطة الطائرات او بمدافع البوارج الحربية ، وخاصة بعد ما تمكن الفيلق الثامن البريطاني من اجتياز خط مارث في 29 مارس 1943 وزحفت جيوش الحلفاء نحو الشمال في مطاردة جيوش المحور ولهذا فر المدنيون من سكان السواحل الى الجبال والاماكن البعيدة عن مسرح المعارك فقد قصد القوابسية مطماطة والسقي وصبيح (4) وذلك حسب ولاء "الصف" القديم والتعاملات الاقتصادية والاجتماعية التي تربط المدينة بظهيرها .

1) Histoire du Mouvement National Tunisien, D VIII, P 84.

2) مصدر سابق : عبد الحميد حسن : ثورة المرازيق اعمال الندوة الدولية الخامسة ... ص 386

3) الملتقى الرابع حول تونس 39-1945 ... ص 105 .

4) استجواب صالح الشين من قبل جمعية البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بقابس في افريل 1985

ومع ذلك لم يسلم الاهالي من الترويع ونهب ممتلكاتهم في مناخ الفوضى السائد.

ومن هنا يمكن ان نتساءل مثلما تساءلنا بالنسبة لثورة 1915 لماذا اندلع الكفاح المسلح بمنطقة التراب العسكري في هذه المرة ايضا وفي صفوف المخازنية والقومية والذين من المفروض ان يعملوا على فرض الامن وليس على اختلاله؟ ثم لماذا شملت " الثورة" عروشا دون اخرى في نفس الجهة كما استقصبت اهتمام فئات اجتماعية دون غيرها؟ يقول اندري مارتال: في 1943 حملت مجموعات تنحدر من الفصائل المنتفضة في 1881 و 1915 ـ 1918، السلاح لتحارب مع (أولي جانب ؟) الالمان والايطاليين فرنسا واعوانها الشعانبة خاصة في نفزاوة وعلى مشارف العرق الشرقي فالكفاح لم تتغير طبيعته بالنسبة لهؤلاء، فالعدو هو نفسه وانما الحليف الخارجي هو الذي تغير" (1).

يبدو ان شبان المرازيق قد راهنوا على انتصار المحور واستمدوا من تواجد الايطاليين بنفزاوة الشجاعة لمواجهة تحديات الجيش الفرنسي، بل للتطاول على السلط الاستعمارية نفسها، غير ان هذه المراهنة كانت خاسرة فلم تضمن ستة اشهر على الغزو الايطالي الالماني حتى استعادت هذه السلط الفرنسية نفوذها من جديد على مستعمرتها تونس وانتهت ايام المد بالنسبة لانتفاضة المرازيق التي استطاعت خلال سنة ان تنتشر في منطقة الجريد وعلى الحدود التونسية الجزائرية وان تدخل الرعب على افراد الجالية الفرنسية طيلة فترة الاحتلال الايطالي (2) ومنذ 23 مارس 1943، استعادت قوات الحلفاء " دوز وحان وقت تصفية الحساب " وكان الحساب عسيرا واعمال الانتقام شنيعة فشملت حملة الاعتقالات من شارك

1) Martel(A)." Soulevement Tribaux... Op,Cit,P 154.
2) Année Rey-Galdzeïguer." Lopinion Publique Tunisienne,1939 à 1945, Op,Cit,P P 133-155.

ومن لم يشارك في الانتفاضة والقي القبض على اعضاء الشعبة الدستورية وانطلقت عمليات المطاردة واشتدت الاشتباكات بين المتمردين والقوات الفرنسية خلال شهر اكتوبر 1943 مما استوجب تعزيزات عسكرية جديدة من البوليس والامن قصد قمع الانتفاضة والقضاء على المتمردين (1) الذين شكلوا مجموعات صغيرة لشن هجومات فجئية خاطفة على مراكز الحضور الفرنسي وكانت معارك عديدة منها معركة القنة في اكتوبر 43 معركة قلب سعد الله في نوفمبر 1943 معركة وادي الغدامسي ماي 1944 ومعركة نارسين في ماي 1944 (2) كذلك معركة برج البوف في ماي 1944 ثم معركة دوز في 28 ماي 1944 ودقاش في 15 اوت 1944 (3) ولمجابهة الموقف جلبت القيادة العسكرية المصفحات والطيارين الى جانب فرقة من الجنود السينغاليين وهكذا وقع القضاء على خمسين متمردا خلال المعارك التي دارت بالعرف (4).

وقد تمكنت السلطات الاستعمارية من السيطرة على الموقف بفضل استخدامها للطائرات مثلما كان الحال في انتفاضة "الودارنة" باقصى الجنوب خلال الحرب العالمية الاولى والتي كانت خسارتها (5) لا تقارن بانتفاضة المرازيق فهذه لم تسفر سوى عن مقتل 42 فرنسي من بينهم ضابطان وهما (دي لابريار ولافوا (La Voix) اما المتمردون فقد فقدوا 44 شخصا بين قتلى وسجناء (6).

---

1) مصدر سابق: تقرير احتلال نفزاوة بتاريخ 10 افريل 1943.

2) مصدر سابق: محمد المرزوقي "ثورة المرازيق" ص 73 - 80.

3) مصدر سابق. Annie Rey-Goldzeïguer: " L'opinion "...Op,Cit,P 153.

4) Capitaine,Mareau(Brigandage,Contrebande et Criminalité dans le Sud Tunisien,P3,Cité par Hassen(A)"Thawrat al Marăzig" ...Op,Cit,P: 312.

5)"...Insurection Partielle des Territoires du Sud en(1915-1918): Coûte à L'armée Française:748 Tués,1548 morts de maladie et 264 blessés,au total 2560 hommes(Rapport du Commandant des Affaire Musulmane,le 3 Janvier 1940;in Histoire de Mouvement National Tunisien, D VII, P: 328.

6) Annie Rey Goldzeïguer: " L'opinion"...Op,Cit, P: 153.

وهكذا امرت انتفاضة المرازيق بمرحلتين (1):

- مرحلة مد: وامتدت من جانفي 1943 الى جوان 1944 واتسمت بطابع دفاعي وان تخللته بعض الهجومات فهي في نطاق الدفاع ايضا، فكان الدفاع عن ممتلكات القبيلة امام غارات الجنود الفرنسيين الذين اتخذوا من الجزائر وحلفائهم الشعانبة مركز انطلاق في اتجاه المناطق التونسية الخاضعة للاحتلال الايطالي، وبعد ما استرجعت فرنسا هيمنتها على الايالة انطلقت قواتها في مطاردة " المتمردين الذين اضطروا للدفاع عن النفس وعن العرض اذ استخدمت السلط العسكرية نساء الثوار كاداة ضغط لتجبرهم على الاستسلام كما حاصرت الآبار ونقاط المياه وبالتالي جعلتهم بين اختيارين: اما الموت عطشا في الصحراء او الاستسلام.

- مرحلة ثانية وهي مرحلة الانحسار: وبدأت بعد فراوة معارك العرق وجرح القائد علي السعيد في معركة جوان 1944 بحيث تشتت الثوار وانقسمت كلمتهم فلجأ البعض الى التراب الليبي في حين فضل الآخر مواصلة الكفاح.

وهكذا فشلت الانتفاضة مثلما فشلت ثورات اخرى قد سبقتها.

ومن هنا يمكننا الوقوف عند بعض الملاحظات:

- اولا: يبدو انه الى حدود تاريخ الحرب العالمية الثانية استمرت الاشكال القديمة للكفاح على اسس قبلية ريفية ولم تتمكن بعد الحركات السياسية والنقابية ذات التركيبة الحضرية من فرض نفسها على الحركات الشعبية التي بقيت مجرد ردود فعل عفوية ينقصها التأطير وتفتقر الى التنسيق بين مختلف عناصر المجتمع التونسي، فكانت النضالات في شكل انعزالي لا تجمع حتى

---

1) يرى لسير ان ثلاث مراحل مرت بها الانتفاضة، مسالكي، مصدر سابق: ص 144.

بين افراد المجموعة الواحدة ،بحيث لما يثور البعض يتعاطف البعض معه في حين يتردد او يمتعض البعض الاخر ... و ذلك في نطاق القبلية الواحدة ،فمثلا ،عند ما ثار الودارنة من كنفدرالية و رغمة في 1915 و1918 ،تقاعس التوازين عن مساندتهم في حين تجند بعض الجبالية لمعاردتهم اما في قبيلة المرازين فقد ثار الشبان بينما احترز الشيوخ ... و ربما هذا ما جعل هذه الانتفاضات تحمل بذور فشلها منذ اندلاعها ،فهي تولد ميتة " ولا غدا لها) و رغم ذلك تصرّ الارياف التونسية ولا سيما منطقة الجنوب على مواصلة " انجاب" الثورات رافضة الاستسلام "لقانون الاقوى

- ثانيا : كشفت ثورة 1915 و ثورة المرازين اللتان اندلعتا ابان الحرب العالمية الاولى والثانية على ان الحضور الفرنسي بتونس قد استطاع ان يفرض نفسه على قبائل الجنوب عبر جهازه التسلطي و سياسته" " فرق تسد" مستخدما اسلوب الاغراء من ناحية و عداء "الصف" من ناحية ثانية لضرب البعض بالبعض و مع ذلك عجزت السلط الاستعمارية على احتواء " الاهالي" وكسب اعترافهم بشرعية نظام الحماية ،فبدوا الخضوع في حين كانوا يبطنون الرفض فكانت الحرب العالمية والظروف الدقيقة والحرجة التي تكون فيها فرنسا فرصة لهذه القبائل حتى تنتفض معبرة عن رفضها الدفين للاستعمار و معولة على " مساعدة خارجية" اكثر من تعويلها على بعضها البعض او قواها الذاتية ،في وقت تكون فيه الحركة السياسية مترددة و متذبذبة امام اتخاذ المواقف الملائمة في تلك الظروف وقد ينتج عن ذلك غياب موقف موحد يستند الى تقييم للمرحلة :فهل هي مرحلة تستوجب الهجوم؟ او مرحلة تستوجب التروي والهدوء؟

ونظرا لهيمنة الطابع الاصلاحي على الحركة السياسية التونسية فالتقييم

الثاني هو الذي يطغى وبالتالي لا تتم عملية التحام الحركة الشعبية بالحركة السياسية " النخبوية" ،وهذا نلمسه غداة خروج المحور من البلاد التونسية في ماي 1943 فقد اجمعت الاحزاب السياسية التونسية على سياسة التقرب من دول الحلفاء المنتصرة وليس من "الثوار" رغم عزل المنصف باي والقمع المسلط على كل التونسيين بدعوى التعاون مع المحور" يقول الاستاذ الكراي القسنطيني : " ان اعتماد مثل هذا " التكتيك" والمراهنةعلى تفهم" دول الحلفاء" والتقرب من موقعي "البيان الاطلسي والاخذ بالتصريحات العلنية اليومية لقادة " لجنة التحرير" قد يكون فوت الفرصة على البلاد لكي تنجز تحررها الحقيقي فالظروف العالمية والداخلية كانت مواتية لنشوء فكر استقلالي متجذر (1) غير ان الاستقلال في نظر زعيم الحزب الدستوري الجديد مثلا وحسب ما صرح به الجنرال ماصت" انه لا يشكل بتاتا الهدف الحقيقي للحزب قبل ان يكون واقعيا وعازما على الاعتماد على فرنسا وامبراطوريتها (2). فمن الواضح ان اعتماد الكفاح المسلح خلال سنة 43ـ 1944 أي خلال انتفاضة المرازيق كان ملغى من التفكير الاصلاحي فهل ستتغير هذه النظرة خلال الخمسينيات ؟.

الثورة في الخمسينات (1952ـ1954):

لم يهدأ الوضع تماما بالجنوب بعد قمع انتفاضة المرازيق رغم العودة الى الحياة العادية ،بل استمرت حالة" الغليان" المكبوت فالاهالي كانوا يتابعون محاكمات من شاركوا في الانتفاضة ومن تعاملوا مع المحور وكانت تصلهم انباء "الحركة المنصفية" واخبار ثوار زرمدين فيزداد غضبهم

1) مصدر سابق : الكراي القسنطيني "الثوابت والتجديد في الفكر الاصلاحي اعمال الملتقى الرابع حول تونس من 1939 الى 1945 ،ص 81.

2)Telegramme du 14/5/44, Residence de Tunis au secrétaire des elation exterieures,Dossier N° 910,Cité par El Machat,...Op,Cit P 81.

تحت وطأة الظروف المعيشية الصعبة الناجمة عن انعكاسات الحرب العالمية الثانية ،يقول الاستاذ الكراي القسنطيني : " فان ازمة ما بعد الحرب العالمية الثانية لا تقل حدة ولا عمقا ولا تأثيرا عن ازمة الثلاثينات بل ربما خاضتها لأنها رسخت نتائجها وانعكاساتها " (1) ولا سيما ان هذه الازمة قد تزامنت مع تتالي سنوات الجفاف (2) وتقلص المحاصيل الفلاحية وتناقص الثروة الحيوانية فقطيع اغنام منطقة تطاوين مثلا والذي كان يعد قرابة 50 الف رأس سنة 1945 لم يعد عدد رؤوسه تتجاوز 7500 فقط في اواخر 1947 بحيث فقد القطيع خلال 3 سنوات 35٪ من حجمه في حين فقد قطيع الماعز خلال الفترة نفسها قرابة 87٪ من عدده بل ان البعض من كبار المربين قد فقدوا كليا ماشيتهم على غرار مبروك الشهيدي ومبروك الكرشاوي (3) ،وقد تفاقمت حالة البؤس والفقر في الجنوب حتى انه كاد ان يصير نصف السكان الى عتبة المجاعة والاملاق (4).

مما خلق ارضية سانحة لاستيعاب نشاط الحركات السياسية والاجتماعية ولا سيما الحزب الحر الدستوري التونسي الذي امتدت خلاياه حتى في منطقة التراب العسكري منذ الثلاثينات وهو نتيجة احتكاك اهالي الجنوب بالدستوريين المنفيين " بينهم اونتيجة التنقل الدائب بين مواطن عملهم في المدن والمناطق الساحلية والشمالية وخاصة تونس العاصمة وبين ذويهم المستقرين في مضاربهم الاصلية اذ النازحون من ابناء الجنوب عادة لا يهاجرون ومعهم اسرهم ،بل يهاجر الرجال منهم ويبقى الشيوخ والنساء والاطفال يشدون المهاجر الى مسقط رأسهم وقد ساهم هؤلاء المهاجرون في نشاط الحركة الوطنية بتونس العاصمة وفي نشر الدعاية الدستورية بمنطقة الجنوب ولم يتمكن التراب العسكري

---

1) الكراي القسنطيني ازمة مابعد الحرب تأزم اجتماعي الفقراء بتونس في اعمال الندوة الدولية الخامسة حول البلاد التونسية في فترة مابعد الحرب ، مصدر ذكر سابقا ص 83.

2) مصدر سابق : الهادي التيمومي نقابات الاعراف التونسيين ص 33.

3) C.N.U.D.S.T;R4;Fol 750, (Bureau de Tataouine)

4) مصدر سابق : الكراي القسنطيني ازمة مابعد الحرب ص 82.

في مأمن عن هذه الدعاية ،يقول لافون (Lafond) ان الدعاية الدستورية بصدد الانتشار داخل المنطقة العسكرية بشكل سري وهي خطيرة و مشؤومة انها خطيرة باعتبارها موجهة الى اقوام غير متحضرين مستعدين لتصديق كل ما يقدم اليهم من حجم دون ادنى نقد ،ثم انها مشؤومة لأنها ترمي الى نسف مرتكزات سلطتنا (1) وقد تدعم النشاط السياسي بالجنوب التونسي اواخر الاربعينات وبداية الخمسينات نتيجة انفجار الوضع في الشرق العربي وفتح ملف القضية الفلسطينية وتكثيف الاتصالات بين الديوان السياسي و مناضلي الجنوب وكان لزيارتي الحبيب بورقيبة اراضي الجنوب في 1950 وفي 51 نفحه من التراب العسكري ،اثر بالغ في ايشارته هذه الجهة.

فما هو القصد من هذه الزيارات ؟ فهل لها علاقة بثورة 1952 ـ 1954 ؟ أو تدخلت هذه الثورة بصفة عفوية وغير منظمة كسابقاتها ؟

لقد كانت زيارة بورقيبة الاولى الى الجنوب التونسي في مارس 1950 قبل سفره الى باريس لعرض برنامجه ذي السبع نقاط تهدف الى غاية تعبوية اذ يقول في خطابه بقابس (مارس 1950 : " استعدوا لتكونوا "الفلاقة" ... واليوم الذي يلقى القبض عليه على قادتكم او يصبحوا في وضعية العجز اتحدوا جميعا لمواصلة الكفاح الى النهاية (2) اما الزيارات الثانية فكانت في مطلع 1951 قبل سفر بورقيبة الى بلدان الشرق والدول الانقلوساكسونية بحثا عن المساندة والدعم للقضية التونسية وغاية هذه الزيارة كانت للتأكد من بقاء سكان الجنوب على العهد " (3) . ومن هنا نلمس ذلك التطور في تكتيك الحزب الدستوري الجديد القائم على سياسة الترغيب والترهيب فبورقيبة مثلما سنرى فيما بعد كان يعرض على حكومة باريس مشروعه الاصلاحي وفي الآن نفسه كان يعد الشعب ليكون على استعداد لشن حوادث دامية ويوضح ذلك في خطابه بقابس في مارس 50 : " لا اعني حربا بمعنى الكلمة بل غزوات " (4).

---

1) الاقامة العامة ارشيف 2797 ملف 1 تعليق الضابط لافون على تقرير الضابط فورست رئيس مكتب تطاوين بتاريخ 15 سبتمبر 37 حول تنامي الدعاية الدستورية صحيفة عدد 42 وردباطروحة ليسيه ص 227 .

2) ارشيف الوزارة الاولى كرتون 14 ملف 3 ص 72.

3) استجواب الطاهر الاسودماي 1985.

4) ارشيف الوزارة الاولى كرتون 14 ، ملف 3 .

وقد علق احد النواب الفرنسيين السيد " درون " امام مجلس الجمهورية الفرنسية يوم 19 جويلية 1950 عن الحالة بتونس فقال : " انها وليدة نشاط مهيج عبقري هو الحبيب بورقيبة وبورقيبة له وجهان مثل جانسون (1) فهو حين يخاطب الفرنسيين والاروبيين والامريكيين يظهر بمظهر الديمقراطي المتطور المتزن الحكيم ،فيترك في الواقع انطباعا طيبا ،اما حين يخاطب السكان التونسيين فهو على النقيض من ذلك ،اذ يدعو الى التعصب الديني والتعصب الاجتماعي ويصل به الامر الى المناداة بحمل السلاح واعلان التمرد على السلطة لقد اخطأنا في ترك هذا المهيج الخطر يدخل تونس وفي السماح له بالقيام بدعايته. وأخطأنا في تركه يزرع روح التمرد دون تسليط عقاب عليه (2) الا ان الحبيب بورقيبة كشف عن مخططاته في رسالة بعث بها الى العابد بوحافة بنيويورك في تاريخ 5 جويلة 1950 : " اما مقاومتنا فأنا استعد لجعلها تدوم لا شهرا واحدا بل فترة لا تقل عن ستة اشهر ان لم تكن عاما ...في انتظار التدخل الخارجي ،لكنني اقصد لو قبلت فرنسا وفاقي المعروض" (3) فغاية قادة الحزب الدستوري التونسي من تحريض ابناء الجنوب والشعب هي الضغط على فرنسا حتى تلبي مطالبهم وتعمل على ادخال اصلاحات بالبلاد التونسية ترتقي بها تدريجيا الى مرتبة الحكم الذاتي وازاحة الادارة الاستعمارية المباشرة وذلك باحداث دورتوتر وشغب في كافة انحاء البلاد ،فالمقاومة لا تتجاوز قطع خطوط الهاتف وتخريب شبكات الاتصال ...وهذا ما نلمسه من خلال " العدة " التي بعث بها الديوان السياسي الى الظاهر الاسود قبل التحاقه بالجبال وهي عبارة عن مقص ومنشار وآلة

---

1) جانسون: احد آلهة روما في القديم.
2) تاريخ الحركة الوطنية التونسية وثائق 11 الاستعداد للمحنة الثالثة ،الحزب الدستوري الجديد يدخل في حوار اخير 1950 ص ص 236-237.
3) لوفيقارو" : 5 جويلية 1952.

منظار و 50 دينارا ليوزعها على مساعديه (1) ولكن الثائر لا تعني له "الثورة" شيئا سواء الكفاح المسلح ومهاجمة رموز الاستعمار كمراكز الامن والثكنات والمعمرين ومن سار في ركاب الاستعمار من التونسيين (2)

متى اندلعت ثورة 1952 في الجنوب التونسي ؟

ما من شك في ان البلاد التونسية كانت تعيش في توتر اسياسيا واجتماعيا منذ الاربعينات... وجاء خطاب "شومان" في جوان 1950 وتشكيل حكومة محمد شنيق التفاوضية كمحاولة لتهدئة الوضع وانفراج الازمة الى حين لأن سرعان ما انفجر الوضع من جديد نتيجة مذكرة 15 ديسمبر 1951 التي تعني القطيعة بالنسبة للتونسيين فكانت الاحتجاجات والاضرابات والمظاهرات يقول الطاهر الاسود :كانت مذكرة 1951 هي الدافع الاساسي لاندلاع الثورة ،فقد غادرت اثرها العامة ،ملتفا في برنس متآكل لايكاد يحميني من برد الشتاء وقصد صديقي سويدان بن سعيد بخنقة عيشة وكاشفته بما عهد اليّ من القيام بعمليات تخريب حسب "العدة" التي جهزني بها الديوان السياسي ،وطلبت منه ان يأتيني ببندقية وخرطوش ثم التحقت بجبل الغيدوني (3) "كانت اول طلقة نارية دوت بجبل خنقة عيشة (4) في فيفري 1952 على الطريق الرابطة بين قابس وقفصة اذانا ببداية المقاومة المسلحة في الجنوب ،تالتها طلقات وطلقات خلال الهجوم اوخلال الدفاع" .

لقد شكل الطاهر الاسود النواة الاولى للثورة في جهة الاعراض مطلع 1952 وقد التحق بالثورة العديد من ابناء قبائل الحمارنة والعلايا والحزم وبني زيد والغرائرة ومن قفصة لزهر الشرايطي ومن منطقة التراب العسكري :

1) اجمع على ذكر هذه "العدة" كل من حسين عزيز والعيساوي الشكاي الذي جلبها من العاصمة والطاهر الاسود الذي تلقاها .
2) استجواب القائد الطاهر الاسود .
3) نفس المصدر :
4) خنقة عيشة مرتفع من الارض يقع شمال غربي قابس على بعد 30كم .

الجريوعي وزائد الهداجي وانتظم المقاومون في شكل عصابات
بين 4 و 12 نفر وقد اعتمدوا اسلوبا يتماشى وامكانياتهم في
د والعدد فهم غير قادرين على مواجهة مباشرة بينهم وبين الجيش
ي في حرب غير متكافئة لهذا استخدموا حرب العصابات في
الاحراش (1) اما في المدن والقرى والتجمعات السكانية فقد كونت
ن الدستورية" خلايا لتخريب واعمال الشغب كقطع خطوط الهاتف
ر القناطر (فقد تم مثلا تفجير قنطرة السكة الحديدية بشط السلام
الشمامة مدخل قابس وعادة ما تكون العصابات "الارهابية"
دد لاتتجاوز الاربعة اشخاص يتسللون ليلا لتنفيذ المطلوب
م يعودون الى منازلهم كأن شيئا لم يكن واذا اكتشف امرهم يصبح
ضروري الحاقهم بصف الفلاقة او ترحيلهم الى التراب الليبي حماية
ن السلط الاستعمارية (2)

نا نتبين التكامل بين الكفاح المسلح الذي يمارسه الفلاقة ضد
لحضور الفرنسي بتونس وبين العمل التخريبي الذي تنجزه العصابات
سة في المدن والقرى .

لاحظ ايضا ان ثورة 1952 ـ 1954 لم تبق منعزلة اجتماعيا و مكانيا
نشرت في الجبال والاحراش والمدن والارياف و حظيت بمساندة الشعب
سي ولم تبق " مجرد مغامرة جرفت بعض قطاع الطرق والعاطلين
شددين واطفال سيئين اصبحوا في خدمة سياسة الحزب الدستوري
حركة ناتجة عن تطور اجتماعي فهي فعلا " ثورة" قامت بها قبائل

سية تركي : المقاومة المسلحة بجهة الاعراض (52 • 1954) شهادة الكفاءة في البحث كلية
الانسانية والاجتماعية جامعة تونس الاولى 1989 ، ص 52 •
جوبة المختار دبية : من قبل جمعية البحوث الدراسات التاريخية بقابس في 1985 •

تونسية قد انفتحت شيئا فشيئا على افكار الوحدة القومية وتشبعت بالوعي الوطني ... " (1)

وقد كان لهذه الثورة تنظيم خاص فهي لا تخضع لقيادة مركزية موحدة بل يخضع الثوار الى عدة قيادات منفصلة الواحدة عن الاخرى تتمتع بحرية القرار، دون العودة الى قيادة مركزية، في حين يأتمر افراد المجموعة (العصابة) بأوامر قائدها وهو عادة ما يكون منتسبا الى عرش له مكانة اقتصادية واجتماعية مرموقة في قبيلته وله ماض تاريخي في النضال مثلا الطاهر الاسود ينحدر من نفس "العرش" الذي ينتسب اليه محمد الدغباجي كما تضم العصابة انفارا من نفس القبيلة او من نفس الصف على الاقل وهي من واجبها " فك الحصار" على اي مجموعة من الفلاقة تكون محاصرة من قبل السلط الاستعمارية مهما كان العداء بينهما، واذا تقاعست اتهمت بالخيانة كما انه من واجب العصابة تنفيذ الاعدام في اي كان من افراد قبيلتها اذا تبينت تهمة الخيانة او الجوسسة عليه (2).

ما هي اطوار المقاومة المسلحة ؟

لقد مرت المقاومة المسلحة التي لم تبق محصورة في الجنوب التونسي بثلاثة اطوار :

1) - الطور الاول : ويمتد من مطلع 1952 الى منتصف 1953 وهي مرحلة هجومية استهدفت رموز الحضور العسكري من ثكنات (ثكنة سيدي بولبابة وثكنة العوينات... مع قطع خطوط الهاتف ومهاجمة) وسائل النقل ...

وحاولت القوات الفرنسية تطويق " المقاومة" فتكتمت على الاحداث، وفي الآن نفسه عمدت الى ملاحقة الثوار بواسطة "الصبائحية" والقومية " .

1) I.S.H.M.N, Centre de Hautes Etudes d'Administration musulmane, D L47; Cne. Ascuyris; "Le mouvement Fellaga Tunisien-Expression d'une Revolution Sociale" P.P: 1-18 .

2) استجواب حسن الغيلوفي وهو من مواليد 1/12/1920 ببلدة بني غيلوف (الحامة) دستوري كان نائبا عن "الزوي" في شعبة الحامة تطوع للقيام بعمليات تخريب ضد الحضور الفرنسي وهو قائد لفرقة بني غيلوف .

2)ـ الطـور الثـانـي : انتـشرت المقاومـة في عـدة مـناطـق ولا سيمـا في الجنوب والـوسـط والشمـال الغـربـي متتبـعـة مسالـك الانتجاع القـديمـة ،يقـول الطاهر الاسـود " لقـد كـانـت معـركـة العـيدودي (في 14 اوت 1953) آخـر معـركـة في في مـنطقـة الجنـوب و منـهـا قـررت الصعـود نحـو مناطـق لم تعـرف الثـورة بعـد وذلـك لأن بـني زيـد لـم يعـود وا قـادريـن وحـدهـم عـلى تمـويل الثـوار الـذيـن ارتفـع عـددهـم اضـافـة الى ان الغـطاء النباتـي والتضاريس بالجنـوب لا يـوفـران التغـطيـة الكـافيـة ولا الحمـايـة اللازمـة للمجـاهـديـن (1)"

وتـدعـم هـذه الشـهـادة مـا جـاء في استجـواب اولاد عـزيـز من قبـل المعهـد الاعـلى لتاريـخ الحـركـة الـوطنيـة اواخـر 1982 اذ التحـقـوا بالمقـاومـة المسلحة بعـد اقـامـة الـظاهـر الاسـود عـنـدهـم لبعـض الاسابيـع و ليس استجـابـة لخطـب بورقيبـة خـلال جـولتـه في البـلاد اثر عـودتـه من المشرق ،ولا تـلبيـة لنـشاط الشعبـة الدستـوريـة (2) وتـدخـل عـملية تـوسيـع مسرح عـمليات الفـلاقـة في نطاق خـطـة تعمـيـر الجبـال وتـشتيـت جـهـود السلـط الاستعمـاريـة التي التجـأت الى اسلـوب القـصف الجـوي بـاعـتباره اسلـوبا اكـثر نجـاعـة وأقـل تكـاليـف (3) الى جـانـب استخـدام الجـواسيـس " والقـوميـة والقـوات العسكـرية في بعـض الاحـيان وتكـون المـلاحـقة بالنهـار بينمـا كـان الثـوار يفضلـون مـهاجمـة الـدوريات والقوات العسكـريـة عـنـد الفـروب و بعـده ،فهـم يختـارون مـواقعهـم من حـيث مـوقـع قـرص الشمـس الـذي يحـول دون رؤيـة جـيـدة لقـوة الفـلاقـة الـذين يستـغلـون الفـرصـة للنـيل من " عـدو هـم " ثـم سرعـان مـا يغشاهـم الليـل فيحـول دون مطاردتهم (4)

---

(1) استجواب الطاهر الاسود من قبل المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية (27و28و29جانفي 93 كاسيت 1 الوجـه الاول .

(2) 2)Admen Mansar:Les Hamma et les Beni Zid dans la Guerre de Liberation Nationale,d'aprés les sources arabes Actes du VII e Colloque International,...Op,Cit,P: 112.

(3) الطاهرعبد الله :الحركة الوطنية التونسية :رؤية شعبية قومية جديدة (183ـ1956) مكتبة الجماهير بيروت الطبعة الاولى .

(4) استجواب صولة بـ الصادق .

3)_ المرحلة الثالثة : من 1953 الى نهاية 1954 .

توسعت دائرة نشاط الفلاقة فشملت مراكز الامن والثكنات وأصابت الجنود والمعمرين واتباع السلط الاستعمارية من التونسيين وتواصلت عمليات قطع الخطوط الهاتفية واتلاف شبكات الاتصال وممارسة العنف واستخدام رسائل التهديد التي افزعت المعمرين خاصة في المناطق النائية فطالبوا بالسماح لهم بامتلاك اسلحة للدفاع عن النفس وقد تميزت هذه المرحلة بازدياد عدد الثوار وان لم تتوفر لنا احصائيات ثابتة يقول بورقيبة في 25 جويلية 1954 : " لست على علاقة بالفلاقة ولا اعرف حتى كم عددهم فالفرنسيون يقولون انهم 2000 أو 3000 رجل ،فهم ليسوا تحت سلطة حزبي وان ما اعرفه هو انهم وطنيون مدفوعون الى اليأس، فبمجرد وصول حكومة تونسية بحتة الى السلطة ،فان الحوادث ستتوقف (1) .

اما الطاهر الاسود وهو من ابرز قادة الكفاح المسلح فيقدر عدد الفلاقة حوالي 3000 شخص (2) ،اما الطاهر عبدالله فيعطينا رقم 5000 شخص (3) في حين تصل تقديرات بعض الدوائر الفرنسية الى 9.700 رجل (4) اما تقديرات عدد الذين سلموا السلاح في 1954 وهم الاغلبية من الثوار فتحوم حول 2500 ثائر (5) اما المقيم العام بوايي دي لا تور (De la Tour) فلا يعطينا عدد الثوار الذين سلموا اسلحتهم بل يحصي عدد الاسلحة المسلمة وهي 2.200 سلاح حربي و 100.000 خرطوشة (6) مع العلم ان بعض الفلاقة سلموا انفسهم دون ان يسلموا سلاحا ،بتعلة انهم لا يملكون هذا السلاح وقد كان البعض منهم قد تمكن من اخفاء سلاحه او بعض ذخيرته في بطون الجبال والوديان وبين ضلوع النخيل كما

---

1) Charles-André Julien: Et la Tunisie... OP, CIT, P 153.

2) استجواب الطاهر الاسود في ماي 85 ومن الملاحظ ان هذا العدد يعطيه اضعاف افراد العصابات .

3) مصدر سابق : الطاهر عبدالله : الحركة الوطنية ص 190 .

4) I.S.H.M.N, Bobine 639/299; Neo-Destour de 1955/252.

5) الصباح : 11 ديسمبر 1954 .

6) Boyer de la Tour: Verités sur l'Afrique du Nord, Plon, Paris 1956, P 94.

ان البعض الاخر قد فر بسلاحه الى الجزائر لمواصلة الثورة هناك مثال الطاهر الاسود و جماعته .

اما عدد الثوار في الجنوب فيتراوح بين 500 و 1000 رجل (1) .

وعموما فقد تضاعف عدد رجال الثورة ما بين 1952 و 1954 ولهذا ازدادت الحاجة الى السلاح والذخيرة و رغم ان الطاهر الاسود ينفي ان يكون السلاح الذي خلفته الحرب العالمية الثانية بتونس غير كاف لتمويل الكفاح المسلح (2) فان عز الدين عزوز يذكر انه بعث نواة للمقاومة في ليبيا منذ 1952 بالتعاون مع عناصر دستورية اوفدها صالح بن يوسف الى طرابلس لتمثيل الحزب الدستوري في نطاق فتح مكتب لهذا الحزب بليبيا ومن بينها علي الزليطني و مراد بوخريص اللذين طلبا من عز الدين عزوز تدريب التونسيين على استخدام السلاح (3) ولم تكن ليبيا مركزا لتدريب " الكوماندوس" فقط بل ايضا موردا لتمويل الثورة بالسلاح برا و بحرا خاصة منذ النصف الثاني من سنة 1954 وهذا ما جعل بعض الاوساط يعتقدون في ان الفلاقة وجدوا في طرابلس على غرار ما وجدوه كماندوس المغرب الاقصى في الريف الاسباني قواعد لتدريبهم و مصدر لتمويلهم (4) وفي هذه المرحلة اصبح "الفلاقة" يعتبرون انفسهم جيش تحرير (5) وقد التحق بهم عدد من المجندين فروا من الخدمة العسكرية وحتى من حراس الباي واصبحوا يتطلعون الى الاستقلال التام معتبرين الحكم الذاتي قد تجاوزته الاحداث (6) . ولمجابهة الوضع المتفجر حاولت السلط الاستعمارية استعمال كل الوسائل .

---

1) استجواب الحاج حسن الغيلوفي .
2) استجواب الطاهر الاسود في ماي 1985 .
3) Ezzeddine Azzouz, L'Histoire ne pardonne pas, Tunisie 1938-1969; l'Harmattan/Dar Ashraf Edidions, Juin 1988, P: 176.
4) Charles André Julien, Et la Tunisie...Op, Cit, P 137.
5) نفس المصدر و نفس الصحيفة .
6) Boyer de la Tour, Verités...Op, Cit, p 90.

اولا :التقليل من شأن الثوار،فهم فلاقة يعني " المارقين عن القانون " (1) وهم رجل من ذوي المشاكل العدلية (2) او مجموعة من المنبتين يجدون في التمرد هدفا وو سيلة (3) في حين يعتبر الفلاقة انفسهم" جيش التحرير التونسي " (4) اما في نظر الاهالي فهم " المجاهدون " .

ثانيا : زيارات متكررة من قبل المقيمين العامين الى مناطق الجنوب المتضررة من تتالي سنوات الجفاف وانعكاساته الازمة الاقتصادية وخطر ذلك على تصاعد المقاومة المسلحة بالجنوب التونسي تلك المنطقة الحدودية التي تعتبر نافذة على الرأي العام الدولي .

فمثلا قام المقيم العام دي هوتكلوك اثناء زيارته الى اقصى الجنوب من 20 الى 23 مارس 1953 بتوزيع اعانات على الاهالي منها : 200+ جمل و10.000 رأس غنم و 200 خيمة (5) .

ثالثا : حشد القوات العسكرية وتكثيف القصف الجوي وعمليات التمشيط مع المطالبة بتعزيزات اضافية واحداث فوج رابع من الصبائحية الفرسان لمطاردة الفلاقة في المرتفعات (6) في نطاق سياسة تعسفية بدأت في عهد المقيم العام دي هوتكلوك وتواصلت في عهد المقيم العام بواييه دي لاتور الذي عقد العزم على تصفية الكفاح المسلح واعادة الهدوء الى البلاد بعد موجة العنف التي سبقت زيارة مندا سرفرانس الى تونس في 31 جويلية 1954 وكانت آخر العمليات اغتيال الكولونيل بينوادي لا بيون (De la Pallonne) في 24 جويلية في احد الانهج بتونس العاصمة وفي وضح النهار (7) .

---

1)Julien(Ch.A);Et la Tunisie...Op,Cit,P:137,et Boyer de la Tour;Verités...Op,Cit,P. 52.

2)Cohen-Hadria(Elie);Du Protectarat Français à l'Independance Tunisienne,Souvenir d'un Temoin Socialiste,Nice 1976,P: 263.

3)Garas Felix;Bourguiba et la Naissance d'une Nation,Julliard,Paris,1956,P 234.

(4) استجواب الطاهر الاسود في ماي 1985 .

5) I.S.H.M.N, Bobine N° 624/Resident/245.

6)Boyer de la Tour;Verités...Op,Cit,P 53.

(7) نفس المصدر ، ص 262 .

جاء في خطاب منداسرفرانسرفي 31 جويلية 1954 : " يجوز لي ان آمل في ان تنتهي اعمال العنف ولو تحتم ان نزيد في تنمية الوسائل التي من شأنها القضاء على اعمال العنف فسوف لا تتردد الحكومة الفرنسية في ارسال النجدات العسكرية اللازمة ولو وجب الالتجاء الى الوسائل الاستثنائية القاسية لحفظ الامن العام (1).

رابعا : نداء لتسليم السلاح مقابل مواصلة " التفاوض" بين تونس وفرنسا : صدر في 20 نوفمبر 1954 بيان مشترك بين الحكومة التونسية والسلط الفرنسية يناشد الفلاقة تسليم سلاحهم للجان المشتركة مكلفة بذلك (2) وقد قسمت مناطق الجنوب الى اربعة اجزاء (3) :

- قابس (ج) : وقد كلف كل من محمد الجدّي وعلي بو شريكة بالاشراف على عملية تسليم السلاح بهذه المنطقة .
- قابس (ب) : وقد كلف كل من الصادق الشائبي وحسين عزيز للقيام بهذه المهمة .
- التراب العسكري (د) : وقد كلف كل من عبد الرحمان عبد النبيء ومحمد السري للقيام بنفس المهمة .
- التراب العسكري (ج) : وقد كلف صالح الشين للاشراف على عملية تسليم السلاح .

وهكذا سلم جميع الثوار المتواجدين على ارض الجنوب التونسي اسلحتهم في ديسمبر 1954 الا قلة نادرة انسحبت الى الجزائر بسلاحها (مثلا الطاهر العقربي الذي واصل الثورة بالجزائر ثم عاد الى تونس عند ما دعا الطاهر الاسود الى استيئناف الكفاح المسلح بتونس في ديسمبر 1955 .(4)

فلماذا فشلت ثورة 1952 ـ 1954 وقد تجاوزت عدة نقاط ضعف كانت وراء فشل الثورات السابقة ؟

---

(1) من خطاب منداسرفرانس بتاريخ 31 جويلية 54 (الصباح 1 اوت 1954 .)
(2) الصباح 25 نوفمبر 1954 .
3) Histoire de Mouvement Nationale Tunisien: D14, T2, Victoire): (3
Dar El Amal Tunis, Juin 1979, P: 430.

(4) استجواب الطاهر العقربي في جوان 1996

يتهم القائد الطاهر الاسود الحبيب بورقيبة شخصيا باجهاض الثورة في ديسمبر 1954 عبر النداء الموجه للثوار بتسليم السلاح في وقت اشتعلت فيه الثورة في المغرب والجزائر . (1)

اما الحبيب بورقيبة الذي كثيرا ما كان ينفي صلته او صلة حزبه بحركة الفلاقة ،فيقول في خطابه بدوز يوم 21 ديسمبر 1955 :

"كلما وجدت حركة " تفلين" ومقاومة كان نصيبها الفشل لان الاسباب تهيأ لنجاحها ولم تنج في التاريخ التونسي الا ثورة 1953 ... وانتم تعرفون ان الحزب لم يكن له دبابات بل كان له منهج سياسي رشيد ساعده على التعرف على اسباب الضعف فينا واسباب القوى في الخصم واختار وحده الوقت المناسب لدخول الحركة والخروج منها منتصرا (2)

ومن هنا نقف على تباين في المواقف عند تقييم ثورة 1952 ـ 1954 والثورة الاولى في مصطلح الفلاقة ؛ فأحدها لزعيم عسكري شارك في قيادة هذه الثورة ،بل كان اول من اشعل نارها في 1952 ولم يقبل باخمادها في ديسمبر 1954 (3) فهو يعتبر قد فشلت ولم تنجز مهامها في انجاز الاستقلال التام ،اما الرأي الثاني فهو لزعيم سياسي يحاول احباط مخطط خصمه صالح بن يوسف الذي كان قد سبقه لزيارة الجنوب داعيا للسكان الى الثورة من جديد وقد يكون ذلك وراء اعتراف بورقيبة بعلاقة تكاملية بين حزبه "والثورة الاولى "ما كان يقربها امام السلط الفرنسية رغم انها كانت واثقة من ذلك (4) فبالنسبة له تعتبر ثورة 1953 (هكذا) الثورة الوحيدة الناجحة من بين سلسلة الثورات التي

---

(1) استجواب الطاهر الاسود في ماي 1985 .

(2) الحبيب بورقيبة "خطب" الجزء 3 ص 249 .

(3) لم يسلم الطاهر الاسود سلاحه الا في 3 جويلية 1956 .

(4) I.S.H.M.N; Bobine 639/299; Neo Destour de 1955/252 1953/52.

خاضعها الشعب التونسي لأنه كان كافيا ان نبعث حرب العصابات وتساثمر الجو السياسي الذي هيأناه حتى ننتصر على الخصم ونرغمه على العودة الى طريق الرشد للتفاوض معنا والتسليم بحقنا في السيادة (1) فالخلاف بين الرجلين تحدده الاهداف التي كان يرمي لها كل منهما من وراء الثورة ،فكان الطاهر الاسود يسعى الى افتكاك الاستقلال التام بحد السلاح " فان بورقيبة كان يهدف من وراء " الاعمال التخريبية " التي لا تصل الى درجة " الحرب بمعنى الكلمة" الى اجبار فرنسا على " اختيار اخف الضررين " وهذا ما تؤكده اللائحة السياسية العامة الصادرة عن اجتماع المجلس الملي في 14 نوفمبر 1954 التي تعتبر : "ان مشكلة الفلاقة" لا ينبغي فصلها عن الميدان السياسي ولا يمكن ولا يمكن عزلها عن سائر مظاهر الكفاح القومي وان لها بهذا الاعتبار صلة وثيقة بالمفاوضات السياسية الجارية (2).

لنعد الان الى التاريخ الذي اعطاه الحبيب بورقيبة للثورة وهو 1953 بقطع النظر عن كون هذا الخطأ مقصود اوغير مقصود) فمن الارجح ان يكون هذا التاريخ هو تاريخ اعتراف الحزب الدستوري الجديد بحركة الفلاقة التي " قد نشأت بمبادرات فردية جاءت نتيجة القمع ولم تكن التحركات مرتبطة بعضها بالبعض ولم يسيطر الحزب على هذه الحركة التي اوحى اليها ولم ينظمها الا فيما بعد ... وفي الشهور الاولى من سنة 1954 بدأت التحركات تنحو الى التنسيق بانعاز من الحزب الدستوري الجديد الذي حاول دون ان ينجح في ذلك ضمن مراقبتها (3).

---

1) مصدر سابق : الحبيب بورقيبة " الخطب " الجزء III ص 243.

2) صحيفة الأخبار 16 نوفمبر 1954 (النص الكامل للائحة)

3) Garas(F) Bourguiba... OP,Cit, P.P: 292-234.

ويمكن ان نتأكد من ذلك من خلال اقوال بعض قادة الثورة الذين استجوبهم المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية عن علاقتهم بالحزب الدستوري الجديد بحيث اجزم الطاهر الاسود (الذي كان يشغل قبل خروجه الى الثورة كاهية امين عام شعبة الحامة) على انه لم يتلقى امرا من الحزب الدستوري ولا من الشعبة المحلية للقيام بالثورة (1) كما يؤكد على انه لا علاقة له بالحزب طيلة الفترة التي قضاها في " الجبل " . (2)

اما الساسي الاسود الذي التحق بالثورة في النصف الثاني من سنة 1953 فانه يرجع كل ما قام به من اعمال كان بايعاز من الحزب الدستوري الجديد ان يوفر ما يثبت ذلك فعليا (3) فهل كان ارساله الى " الجبل " في نطاق محاولة الحزب الاحاطة بالثورة قصد مراقبتها واستخدامها وفقا لسياسة " الترغيب والترهيب " ؟

بينما يؤكد لنا حسن الفيلوفي الذي كان نائبا عن " الزوي " بشعبة الحامة قبل التحاقه بالثورة في 1952 انه قد تلقى مكتوبا من الديوان السياسي ، جاء فيه تحريض على القيام باعمال " شغب " بالجهة .

ومن هنا نستنتج ان الحزب الدستوري الجديد قد حرض على قيام مقاومة مسلحة تتمتع بالاستقلالية عنه (4) يقول بورقيبة " لقد تم بعد انشاء منظمة خفية (وهي السود الاحدى عشر) كي تعمل الى جانب الحزب وبمعزل عنه (5) غير ان مهمة هذه المنظمة هي الاشراف على عمليات "تخريب" وشغب" واعدام الخونة بدون رحمة "غير ان الكفاح المسلح قد اتخذ وجهتين : عصابات ارهابية "في المدن والتجمعات السكانية وعصابات مسلحة تمارس .

---

1) Mansar(N): Les Hmamma et les Beni-Zid...Op,Cit,P : 114

2) نفس المصدر ص: 119 .

3) نفس المصدر و نفس الصفحة .

4) Julier(Ch.A): Et la Tunisie, P: 137.

5) لوفيقارو 5 جويلية 1952 (رسالة بورقيبة الى العالم ...

العنف الثوري وتنتشر بالمرتفعات والاحراش وهذه هي التي خرجت عن مراقبة الحزب وتحكمه فيها ولذلك اصبحت تطالب بما لا يطالب به الحزب نفسه وهو الاستقلال التام في حين كان الحزب ينشد الحكم الذاتي فقط ولهذا كما يبدو لنا ارسل الحزب عيونا له لعبت دورا كبيرا في اقناع الثوار ذوي الوعي المحدود بضرورة تسلم السلاح بما ان تونس قد تحصلت على استقلالها الذاتي (1).

ومع ذلك لا ننفي تمكن الحزب واطاراته المحلية من ان يمدوا المقاومين بالعون والتوجيهات(2) اما طوعا او خوفا (3)، كما لا يمكننا ان نمحو صفة دستوري عن عدد هام من الثوار ولا سيما القادة انفسهم وبالتالي لا يمكننا ان ننكر علاقة الديوان السياسي "بالثورة" ومحاولة استخدامها كأداة ضغط على فرنسا حتى تفتح باب الحوار من جديد رغم نفوره من "منطقة القوة" وتفضيله "قوة المنطق" وهذا ما سياتي تحليله فيما بعد.

وقد شارك منخرطوا الاتحاد التونسي للشغل مشاركة نشيطة مع عصابات المدن على الاقل ولكن اغلب هؤلاء كانوا من منخرطي الحزب الدستوري الجديد (4) مثل احمد التليلي بجهة قفصة. فمن الصعب اذن التمييز بين الانتماءات السياسية والنقابية لهؤلاء الثوار الذين دفع بهم الى الثورة الغضب العام" الناتج عن غلق باب التفاوض بمقتضى مذكرة 15 ديسمبر 1954 الى حرب "العصابات الذي بدألهم افضل شكل للمفاوضة في تلك المرحلة الراهنة وقد صرح فرحات حشاد في فيفري 1952 لمبعوث الابسوفياتور: "اننا لا نقدر على التنديد علنيا بمثل تلك الاعمال فهي نتيجة مباشرة للقمع الفرنسي وعندما يستحيل التفاوض يلجأ الشعب للسلاح" (5) ومع ذلك لا يمكننا حصر العوامل الدافعة الى المقاومة

1) استجواب صولة بالصدق من قبل جمعية البحوث والدراسات والجغرافية بقابس في 1985.
2) مصدر سابق: محمد الهادي الشريف تاريخ تونس، 136.
3) استجواب محمود النوري من قبل جمعية البحوث والدراسات التاريخية بقابس في 1985.
4) مصدر سابق: ع بن حميده الحركة النقابية: ج 2 ص 48.
5) نفس المصدر، ص 45.

المسلحة بجناحيها عصابات الارهاب وعصابات الاحراش في مذكرة 15 ديسمبر51 وسياسة التصلب التي اتبعتها فرنساقي عهد المقيم العام دي هوتكلوك ، بل يمكن ايضا ان بعد الحرب العالمية الثانية وجعل الحركة الوطنية تتجذر وتستقطب اهتمام مختلف شرائح المجتمع التونسي الذي لم يتوقف عند الوعي بالتناقض بينه وبين المستعمر بل اراد ان يعبر بصورة او بأخرى عن موقفه من الحضور الاجنبي ،فكانت المواقف متباينة تتراوح بين الاعتدال والتطرف حسب النظرة التقييمية لواقع البلاد التونسية في ظل الوضع العام لفرنسا مابعد الحرب فقد خرجت فرنسا منهوكة القوى من هذه الحرب لتدخل حربا استنزافية نشبت في مستعمرتها "الهند الصينية" فاعتقد بعض الوطنيين بأن الوقت مناسب لاجبار فرنسا على التنازل عن الادارة المباشرة للبلاد التونسية وذلك بمنحها" الحكم الذاتي" في حين ظن آخرون ان الوقت يسمح لالغاء نظام الحماية وانجاز الاستقلال التام ،وهكذا اجمع الوطنيون على ضرورة "تغيير وضع البلاد التونسية" وعلاقتها بالمتربول ،اما الاختلاف فكان حول "التكتيك" الذي سيحقق هذا التحول فبقدر ما تمسك قادة الحركة السياسية بمبدأ التفاوض فان ابناء الشعب وفي معظمهم لم يتجاوزوا الثلاثين سنة فقد ساندوا "الكفاح المسلح" وخوفا من ان تتفشى هذه الروئية في مستعمراتها بشمال افريقيا بادرت فرنسا بفتح باب التفاوض من جديد آواخر صائفة 1954 نتيجة ضغط اليسار الفرنسي على حكومة منداس فرانس التي ربطت بين استيئناف مفاوضات الحكم الذاتي وتجريد الثوار من سلاحهم .

وهكذا نجحت الثورة في اعادة التفاوض بين تونس وفرنسا غير ان عملية التجريد بالنسبة للثوار من السلاح جعلت موقف التونسيين ضعيفا في هذه المفاوضات مثلما سنرى ذلك في الباب الثاني من هذا البحث .

وعموما يمكننا مقارنة ثورة 52 - 1954 " بالثورات" السابقة التي عرفها الجنوب التونسي خلال فترة نظام الحماية ،فقد اندلعت ثورة 1952 بالجنوب التونسي ضد الحضور الاجنبي مثل بقية الثورات مطالبة بالتخلص منه كما استعملت ايضا اسلوب " الغزوة" او حرب العصابات" الا انها اختلفت عنها في عدة نقاط :

اولا : من حيث مجالها الجغرافي لقد انطلقت ثورة 1952 بأول رصاصة اطلقت بخنقة عيشة في فيفري 1952 رددت صداها اطلقات وطلقات دوت في الجبال والوديان التونسية مستهفة رموز الحضور الفرنسي في جميع انحاء التراب التونسي ولم تبقى الثورة في هذه المرة " محصورة " في قبيلة اوجهة بل شارك فيها " العرب والبلدية" سكان الارياف واهل الحضر فكانت فعلا ثورة " كسرت الذريعة القائلة " بأن المقاومة بالارياف والبوادي اخذت شكل جهاد مسلح استمر فترة الحماية ،بقمع في جهة لينفجر في جهة اخرى على هيئة انتفاضات كانت تقوم بها القبائل دون تنسيق فيما بينها عادة ودون اتصال يذكر برجال الحركة بالحواضر" (1)

ثانيا : من حيث دعيتها وان لم تخرج " ثورة 1952 ـ 1954 عن كونها ردود فعل شعبية تجاه تعنت فرنسا واصرارها على مواصلة السيادة المزدوجة بتونس في وقت تفاقمت فيه انعكاسات الازمة الاقتصادية والاجتماعية (2) ونما فيه الوعي بالتناقضات بين المستعمر والمستعمر ،فان هذه الثورة قد اوكل اليها الحزب الدستوري الجديد بصورة او بأخرى رغم تملصه منها وعدم اعترافه بها امام السلط الاستعمارية والرأي العام الفرنسي ،وذلك لأنه كان في نظر القانون منحلا منذ 1938 ، فهو ينشط بصفة غير شرعية ،اضافة الى انه كان يرمي

---

(1) علي الزبدي : انتفاضة الفراشيش سنة 1906 المجلة التاريخية المغربية عدد 49 ـ 50 تونس 1988 ص 137.

2) Mahmoud Faoua: "La Tunisie en 1950-1951: L'aggravation de la Situation économique et Sociale, un des Facteurs de la Radicalisation du Mouvemen t National, in Actes du VIe Colloque International, sur la Tunisie de 1950-1951 (13,14 et 15 decembre 1991 à Carthage), Publications de l'I.S.H.M.N, Tunis 1993, P P 85-98.

من وراء اعمال شغب" وتشويش" تقوم بها منظمة " ارهابية" تكون الى جانب الحزب وبمعزل عنه ،الى استخدام اداة ضغط جديدة على فرنسا في نطاق سياسة الترغيب والترهيب" ولكن دون الخروج عن خط "اليد الممدودة" .

الا انه نتيجة تصاعد موجة العنف وتصلب سياسة السلط الفرنسية في مواجهة الموقف تحت ضغط الداعيين الى اعادة هيبة فرنسا وفرض احترامها" .ومن جهة اخرى اتساع دائرة نشاط "الفلاقة" واحتكاك بعضهم ببعض ،تفشي الوعي السياسي فيهم وتكونت لحمة بينهم ،وشعروا بقوتهم وبأنهم اصبحوا مبعث قلق للسلط الاستعمارية ،بل مفزعة للمعمرين وحتى الجنود الفرنسيين ،وانقلبت الصورة فبعد ما كانت تقول الأم التونسية لابنها : " اسكت جاك الرومي" اصبح الفرنسيون بتونس يقولون مرعوبين "جاءت الفلاقة " (1) .

وربما هذا الوعي السياسي الذي كان يتعمق يوما بعد يوم لدى "الفلاقة" جعلهم يدركون خطورة ممارسة الكفاح المسلح في مواجهة الاستعمار الفرنسي ولهذا بدأ الثوار يتجاوزون الروحات الفكر الاصلاحي التي كبلت الحركة الوطنية منذ نشأتها ويدالبون بالاستقلال التام ولا سيما بعد الاعلان عن اصلاحات فوازار(Voisard) "في مارس 1954 .

ثالثا : من حيث العناصر المشاركة فيها :

انطلاقا من المعلومات التي تم جمعها عن طريق الصحف المحلية والاجنبية واكبت عمليات الاتصال بالمقاومين و مختلف الاحداث التي اجريت مع قادة الثوار ابان عملية تسليم السلاح من 30 نوفمبر الى 10 ديسمبر 1954 تبين ان اغلب الثوار هم في سن الشباب تتراوح اعمارهم بين 18 و 30سنة (2) .

---

1) استجواب الطاهر الاسود .

2) منيرة المحضي ، المسألة التونسية من 31 جويلية 1954 الى 20 مارس 1956 عبر جريدة الصباح شهادة الكفاءة في البحث ،الجامعة التونسية 1985 (غير منشورة) ص55 .

لقد جاء في مذكرة اسكوبريس (Ascuyris) بتاريخ 30 نوفمبر 1955 "ان الوعي الوطني بتونس نما وتطور لأنه من عمل الشباب ،فالبلاد التونسية شابة بحيث تبلغ نسبة الذين هم دون 35 سنة 3/4 في حين تبلغ نسبة الذين هم دون العشرين سنة نصف السكان (2) فهؤلاء في حاجة الى امكانيات او فرعلى الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي كانوا يعتقدون في ان الاستقلال هو الذي سيوفرها لهم ولهذا انخرط هذا الشباب في الاحزاب والمنظمات السياسية والاجتماعية كما انطلق نحو الكفاح المسلح منذ انتفاضة المرازيق و تكثفت مشاركته في هذا النوع من النضال خلال ثورة 52ـ54 واثناء الحركة اليوسفية وقد تفطن قادة الحزب الى هذه القوة الهائلة فسعوا الى تأطيرها في نطاق "الشبيبة الدستورية" التي كانت وراء الكثير من اعمال الشغب بالبلاد في الخمسينات.

رابعا: من حيث المراهنة: ان ما يشد الانتباه هو اعتماد ثورات الجنوب السابقة سواء التي كانت 81ـ1383 او 15ـ1918 أو 43ـ1944 على قوى دولية اجنبية قد تتدخل الى جانب المنتفضين في الداخل قصد التعاون من اجل التخلص من الاستعمار الفرنسي غير ان ثورة 52 و 1954 قد انطلقت معتمدة على قواها الذاتية في توفير السلاح والمؤنة غير منتظرة العون العسكري الخارجي ،بل كانت تسعى الى لفت نظر المجتمع الدولي الى عدالة القضية التونسية والى استحالة التعايش السلمي في تونس بين المستعمر والمستعمر؟

وهكذا نلاحظ ان ثورة 52 ـ 1954 لم ترتبط بجهة الجنوب فحسب كما انها خرجت عن دائرة نقاط الضعف التي سقطت فيها "الانتفاضات الشعبية السابقة فتجذرت مطالبها التي تجاوزت المناداة بالحكم الذاتي الى انشاد الاستقلال التام ولكن رغم توقعها الى ازالة الحضور الفرنسي من تونس فهي لم ترسم الخطوط البديلة " لنظام الحماية ولهذا لا يمكننا ان نطلق عليها اسم "الثورة" بمعناها الغربي (Revolution) رغم تميزها بعدة خصائص لم تعرفها الانتفاضات السابقة ومع ذلك يمكن اعتبارها ثورة اجتماعية عنيفة افرزها التواجد الاستعماري بتونس لمدة تزيد عن سبعين سنة انفجرت في ظل التحولات العالمية بعد الحرب .

---

1) I.S.H.M.N; Cne Ascuyris "Le Mouvement"...Op,Cit, p16

الاطـــار الاداري : الجنـــوب " تـراب عسكـــر ".

1)ـ التقسيـــم الاداري :

امام الصعوبـات الـتي واجهتهـا القـوات الفرنسية في بسط نفوذها على كامل الجنوب التونسي الذي بقي قلعة حصينة تصد الهجومات العسكرية الفرنسية ابقت السلط الاستعمارية المنطقة تحت اشراف القائد العسكري بقابس ثم قسمتها الى مراقبتين اداريتين (1).

أ ـ قيادة الاعراض او قابس وتغطي كل السواحل والمنخفضات بالجنوب الشرقي ما بين الظاهر والبحر .

ب ـ اقليم نفزاوة ويمتد غربا ما بين الظاهر والشط والعرق الشرقي .

ومنذ 1895 بعد أن كسرت القوات الفرنسية شوكة القبائل التي ارغمت على الخضوع لم تكن السلط الفرنسية مطمئنة تمام الاطمئنان بل كانت تخشى هجومات قد تاتي من الناحية الصحراوية لذا احدثت مراقبة مدنية بقابس مع تقليص قيادة الاعراض الى حدود شمال وادي الزاس والى جربة في حين اعتبرت مطماطة وورغمة ضمن التراب العسكري .

واصبحت المنطقة تنقسم اداريا الى (2):

- قيادة قفصة شمال الشطوط .
- قيادة الاعراض من ودران الى وادي الزاس .
- التراب العسكري ويضم نفزاوة ومطماطة وورغمة وهو خارج عن سلطة الباي ويتبع المقيم العام مباشرة .

2)ـ التنظيـــم الاداري :

أ ـ لئن بقيي الباي ظاهريا ممارسا للسلطة التشريعية فان

1) Martel(André)les Confins Saharo-Tipolitains de la Tunisie (1881-1911) Paris, P.U.F. 1965.

2) انظر خريطة الحدود المدنية والحدود العسكرية بالجنوب التونسي . (الجنوب التونسي ، تراب عسكري) رقم 3.

الامر الصادر عن رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ 10 نوفمبر 1884 الذي وضع الاوامر العلية اي الصادرة عن الباي تحت تأشيرة المقيم العام لاصدارها واعطائها الصبغة التنفيذية قد افقد البلاد مقوماتها السياسية والادارية كما اعطى قرار 23 جوان 1885 صلوحيات اوسع للمقيم العام حيث جاء في البند الثاني من القرار ان المقيم العام هو ممثل الجمهورية الفرنسية بالايالة التونسية ، يمارس نفوذها في قيادة الجيوش البرية والبحرية وفي ادارة شؤون الاوروبيين والاهالي المحليين (1)

ومرور الزمن شيئا فشيئا تدعم دخول السلط الفرنسية في الادارة التونسية حتى سيطرت السلط الفرنسية على الادارة المركزية الى ان اصبحت حكومة سنة 1920 تتركب حسب ما جاء في امر 2 مارس 1920 .

1)- المقيم العام رئيس الحكومة (فرنسي).

2)- قائد جيش الاحتلال وزير الحرب (فرنسي).

3)- الاميرال قائد قاعدة بنزرت وزير البحر (فرنسي).

4)- الوزير الاول (تونسي).

5)- وزير القلم (تونسي).

6)- الكاتب العام للحكومة (فرنسي) 2.

7)- المدير العام للمالية (فرنسي).

8)- المدير العام للاشغال العامة (فرنسي).

9)- المدير العام للتعليم والفنون الجميلة (فرنسي).

10)- المدير العام للتجارة والفلاحة والتعمير (فرنسي).

11)- المدير العام للبريد والبرق والهاتف (فرنسي).

ومن خلال استعراضنا لاعضاء الحكومة التونسية تحت نظام

1) مصدر سابق : Mahjoubi Ali, L'Etablissement du Protectorat Français en Tunisie, P 345-346.

2) وهي خطة احدثت بمقتضى امر 4 فيفري 1883 وقد كلف هذا الموظف الفرنسي لمراقبة الوزير الاول .

الحماية نلاحظ وجود وزيرين تونسيين من مجموع احد عشر عضوا الا ان الامر عدد 26 افريل 1921 نص على احداث وزارة العدل على رأسها وزير للعدل (تونسي) مندوب فرنسي ويترأس المقيم العام مجلس الوزراء وفي صورة غيابه ينوبه المندوب العام لدى الاقامة العامة وفي صورة غياب الاثنين معا يتولى رئاسة مجلس الوزراء المدير العام للمالية وليس الوزير الاول (1).

ب - على المستوى الجهوي والمحلي :

* القائد : وهو ممثل الباي الذي يعينه بمقتضى امر وتوكل له مهمة جمع الضرائب والسهر على الامن العام ويساوي مرتبه 5 ٪ من الضرائب التي يجمعها (المجبى - العشر - القانون) ومن الملاحظ ان اول قائد بقيادة الاعراض التي بعث بها مراقبة مدنية في 17 ماي 1895 كان يوسف الليقرو وهو من اصل كورسيكي يشغل خطة قنصل لتونس بمدينة عنابة وبعد الاحتلال الفرنسي عين واليا على الاعراض ورئيسا لقبائل الجنوب برئاسة جنرال توفي سنة 1906 (2).

* الخليفة : ويمثل الباي على المستوى المحلي ويقوم بمهام القائد وينوبه .

* الشيخ : " شيخ تراب" وهو الوحيد الذي كان ينتخب من قبل الاعيان في كل قرية او عشيرة او مجموعة وهو العون الجباي لها . وقد لعب هؤلاء دورا هاما في الحركة الوطنية وكان بعضهم عرضة للتتبعات السلط الاستعمارية لملا عزل من منصبهما شيخي " الخوجة "و فطناسة " بتهمة مساعدة الفلاقة بقيادة الطاهر لسود اثناء الحركة اليوسفية (انظر الوثيقة رقم ...)

---

1) سالم كريم المرزوقي : التنظيم السياسي الاداري بالبلاد التونسية، الدار التونسية للنشر بتونس، 1991 ص 182.

2) Ganiage(Jean): les Origines du Protectorat Français en Tunisie (1861-1881) P.U.F, Paris 1959. P. 601.

وفي بعض الاحيان تصل العقوبات الى حد السجن والنفي مثلا نكبة " مشليخ الحامة" سنة 1919 المتورطين في ثورة 1915 والتستر على الدغباجي وقد تراوحت الاحكام من 5 الى 10 سنوات اشغال شاقة (1).

وفي موازاة لهذه الادارة التونسية التي تدير شؤون المناطق الترابية ويعين الباي موظفيها من عمال وخلفوات ومشائخ من بين الاعيان وبناء على اقتراح من المراقب المدني او من رئيس مكتب الشؤون الاهلية احدث السلط الفرنسية ادارة فرنسية جهوية تتركب من مراقبين مدنيين و رؤساء الشؤون الاهلية في المنطقة العسكرية وقد عرف الجنوب التونسي هذين النوعين :

*المراقبون المدنيون :

لقد احدث هذا السلك بمقتضى الامر الفرنسي المؤرخ في 14 اكتوبر 1884 . ولم يعين مراقب مدني بقابس الا سنة 1895 بل كانت المنطقة تحت اشراف القائد العسكري في حين عين مراقب مدني بقفصة في افريل 1885 وبجربة في 24 ديسمبر 1886 .

والمراقب المدني هو فرنسي الجنسية وله السلطة العليا على القوة العامة بالجهة التي يعين عليها من طرف المقيم العام . وقد جاء في منشور المقيم العام بتاريخ 22 جويلية 1887 "ان بامكان المراقب المدني ان يعطي التعليمات " لرؤساء الاهليين " وان مراسلات هؤلاء الاخرين تمر عبر المراقبين المدنيين صادرا ووارداً ، وتقع استشارة المراقبين المدنيين قبل تسمية العمال والكواهي والخلفوات والمشايخ (2).

*رؤساء مكاتب الشؤون الاهلية :

في التراب العسكري يباشر هؤلاء نفس المهام التي يباشرها المراقبون المدنيون بالاضافة الى دور الشرطة العدلية من الزجر

1) Daniel Goldstein: Liberation ou Annexion... op, cit, p 147

2) مصدر سابق : سالم وليم المرزوقي : التنظيم السياسي والاداري... ص 187

والبحث عن الجرائم وقد نص قرار الباي الصادر في 10 جوان 1882 على منح السلطة الردع والعقاب للضباط الفرنسيين الذين بامكانهم اصدار احكاما تختلف حسب رتبهم وتتراوح بين الخطية والحكم بالسجن من خمسة عشر يوما الى شهرين وقد تصل الى ثلاثة اشهر مثل ما وقع في حادثة تمغزة جوان 1883 (1) والمتمثلة في محاولة مجموعة من الرحمانية تنظيم الجهاد ضد المسيحيين وقد تراوحت الاحكام في هذه القضية بين 500 فرنك و 1000 فرنك خطية مع السجن بثلاثة اشهر وحتى النفي ... كما يمكن للسلط العسكرية بالتراب العسكري تعيين الرؤساء المحليين الذين يتحولون الى مجرد اداة في يد هذه السلطة مثلا تعيينها لقائد قفصة سنة 1882 .

ولقد حاولت السلط الفرنسية تقليم نفوذ العسكريين بالجنوب التونسي باحداث قيادة بقفصة واخرى بقابس في نطاق تدعيم السلطة المدنية على حساب السلطة العسكرية والتحكم في الادارة المحلية وتشديد المراقبة على هذا الجهاز الاداري الذي بقي يتبع الباي " شكليا " احدثت خطة المراقب المدني ورئيس مكاتب الشؤون الاهلية وبالتالي حولته لخدمة مصالحها دون السعي الى مقاومة سلبياته وامراضه الموروثة عن العهد الحسيني (2).

وهكذا نلاحظ على المستوى الاداري ثنائية تتمثل في الاعتماد على ادوات نفوذ جديدة واخرى قديمة موروثة . فالتجديد ضرورة بما ان السلطة الجديدة خاصة من نوعها

---

1) مصدر سابق : 1)Mahjoubi Ali: l'Etablissement... P 266.

2) الامجد بوزيد : محمد بن خليفة قائد الاعراض وعلاقته بالمراقبين قبيل الحرب العالمية الاولى ، مجلة البحوث والدراسات التاريخية بقابس : ديسمبر 1985 ص 15 ـ ص 22.

فهي اجنبية دخيلة ولا بد ان تاتي بوسائل خاصة بها تميزها عن المحلية لكن ذلك يطرح في نفس الوقت مشكلا :

بما انها دخيلة فرنسية غريبة فهي مرفوضة لذا التجأت الى ادوات و طرق محلية للسيطرة وهذا تفرض تواجدا جديدا قديما فالمؤسسات العليا ذات القرار تكون جديدة اي فرنسية اما المؤهلة لهذه القرارات فهي قديمة ، فقد ابقت فرنسا ظاهريا على المؤسسات القديمة لاستعمالها كقناة لتمرير سياستها الجديدة ولربط الصلة بينها وبين المجتمع واهم مظهر للعلاقة بين الدولة والمجتمع الجباية :

* 3) ـ الجباية :

وان كان التنافس قائما بين السلط المدنية والسلط العسكرية على تقاسم النفوذ بالادارة الجهوية في الجنوب فالجباية كانت محل نزاع غير معلن بين القياد والمراقبين المدنيين اذ تدخل الجباية ضمن مهام القايد وهو الوحيد الذي يصرح بمداخلها الا ان المراقب المدني يرفع تقاريره الى الاقامة العامة حول قيمة الضرائب وطرق استخلاصها وهذا ما يحدث بعض القلق لدى القياد الذين قد تحايلوا في تجميع الاموال دون ان ينسوا نصيب معاونيهم ، ولكنهم لا يخشون القانون فيده قاصرة على بلوغهم (1).

1) Julien, Charles-Andrée, Colons Français et Jeunes-Tunisiens, 1882-1912, In Revue Française d'Histoire dautre-mer, T.L IV, 1967,

وعموما قد ارتفعت الضرائب ما بين 1933 و 1954 من 31،5 مليار فرنك الى 150 مليار فرنك (1).

بينما كان يجبي من جهة الاعراض وحدها ستة وعشرون الف فرنك (2). ومن اهم الضرائب "المجبى : وهي ضريبة اقرها محمد باي سنة 1856 بصفة استثنائية لتجاوز العجز المالي الذي عرفت فيه خزينة الدولة وتبلغ قيمتها 36 ريالا يدفعها البالغون من الذكور ويعفى من دفعها سكان المدن الكبرى(تونس القيروان سوسة المنستير وصفاقس) والجنود والطلاب ورجال الدين واعوان الباي وفي افريل 1864 اصبحت بين مشية وضحاها 72 ريالا مع تعميمها فكان ذلك الفتيل الذي اوقد ثورة علي بن غذاهم ورغم وعود محمد الصادق باي بتخفيضها في نطاق سياسته لاخماد الثورة الا انها بقيت في مستوى 45 ريالا في حالها ويفيد انتصاب الحماية اكد بول كمبون المقيم العام على ضرورة تخفيض قيمة المجبى التي تساوي 30،50 فرنك بنسبة الخمر لانها تسلط على عشر السكان ممن ينتمون الى الفئات الفقيرة المعدومة(3) الا ان المجبى بقيت تستخلص حتى من الفقراء المحتاجين ولا يستثنى منها الا الاطفال والعجز والمباشرين للخدمة العسكرية (4)

---

1) محمد الصياح : تاريخ الحركة الوطنية .وثائق الملحق السادس رقم 192/126 .

2) Edouard Blanc:Le Sud Tunisien,

3) رسالة موجهة الى الاقامة العامة بتاريخ 10فيفري 1913 عنوانها "موقع تعيين ماهية بحرية " ارشيف الوزارة الاولى للحكومة التونسية مجموعة كرتونة رقم 130 ملف 1و2و3و4

4) رسالة من محمد بن خليفة الى ادارة المالية بتاريخ 23اوت 1911 رقمها 1970 ارشيف الوزارة الاولى .كرتونه 130 .

4) مصدر سابق : Mahjoubi(A): L'etablissement...Op,Cit,P:21.

العشر و هي ضريبة مفروضة على انتاج الحبوب ويختلف حسب الجهات ففي المنطقة التي لها تعامل نقدي تكون قيمتها 30 ريالا على كل " ماشية " (والماشية تساوي قرابة 10 هكتارات) اما بالمناطق ذات التعامل العيني فتوظف 5 ويبات (1). شعير او قمح على كل ماشية لذلك تكون ثقيلة على سكان الشمال اكثر من سكان الجنوب.

- القانون وهو نوعان :

- قانون زيتون وهي ضريبة موظفة على اشجار الزيتون

- قانون نخيل وهي ضريبة موظفة على اشجار النخيل

وبما ان سكان الجنوب يتعاطون غراسة النخيل والزياتين فهم اكثر عرضة لتحمل هذه الضريبة من سكان الشمال وحتى الساحل نظرا لضعف مردودية اشجار الزيتون عندهم خاصة وان ضريبة القانون غير ثابتة القيمة بل تختلف من مكان الى آخر في الايالة الا انها تتراوح بين 1،40 و1،50 فرنك (2).

- المكس : وهو ضريبة غير مباشرة والتي تضرب على التمور المباعة بالسوق بما يقارب خروبة (3) على كل كيلو غرام من الدقلة كما تمس هذه الضريبة كل المنتوجات المعروضة للبيع في السوق بما قدره 1/16 من ثمنها الجملي الا ان الخضر والقهوة تدفع 25 % من قيمتها و ذلك في اواخر القرن التاسع عشر . ويدخل الماكس ضمن ضرائب المحصولات التي تتعلق بضريبة غير مباشرة مفروضة على الانتاج المحلي والبضائع ومعلوم الكراء (الخروبة ..)

لذا تمثل موردا هاما للحكومة .

---

(1) الويبة = 37،5 لتر.

2)Edouard Blanc:Le Sud de la Tunisie,Sociéte et Geographie,16 Avril 1889,P.P: 508-509.

(2) نفس المصدر ص ص 505-506.

(3) الريال يقارب 0،63 فرنك (من 0،60 فرنك الى 0،65 فرنك) والخروبة : 1/12 الريال

وكان سكان الواحات يدفعون هذه الضريبة قبل مجيء الاستعمار الفرنسي اذ كانت جهات الساحل والواحات تدفع 2/3 الأداءات العقارية الاساسية كما كانت تدفع عشرات ما كانت تدفعه بقية البلاد باستثناء الحاضرة في منتصف القرن التاسع عشر (1).

وفي ظل الاستعمار ابقت السلط الفرنسية على هذه الضرائب الموظفة على الانتاج الفلاحي وعلى الانشطة التجارية والحرفية بل زادت حاجتها اليها نظرا لاتساع مجالات ثقافاتها خاصة بعد الحرب الاولى والثانية من رواتب الموظفين واشغال عامة وتجهيز وتعليم وتسديد القروض ودفع مصاريف الحماية (2). وقد احدثت بعض الاداءات مثل الاداء السنوي على تربية الماشية التي بقيت الى زمن الحرب العالمية الاولى تخضع للضرائب المباشرة كما وقع الترفيع في اداءات اخرى كالموظفة على الكحول والتباي والسكر والقهوة.

بالاضافة الى فرض ضريبة الاستطان سنة 1913 وهي ضريبة شخصية قيمتها 10 فرنكات (3). عوضت جزئيا التقدير في ضريبة المجبى اذ يدفعها الاعيان والفقراء الا انها تبقى ضريبة تثقل كاهل الفئات الفقيرة كضريبة المجبى (4).

الا ان هذه المداخيل تبقى غير كافية فتواصل السلط الفرنسية سياسة الاقتراض من فرنسا وتبقى تونس تدور في دائرة مغلقة.

---

1) خالد المنوبي : الانموذج التونسي في سيرورة تفكك الدولة الخارجية ونشأة الدولة الرأسمالية التابعة ، اطروحات ، جانفي 1985 /مرم 31-33.

2) البند الثالث من اتفاقية المرسى 3 جوان 1333.

3) مصدر سابق : 3)Daniel Goldstein:Libertion...P:81.

4) نفس المصدر ...م 35.

عجز مالي : { ترفيع في الضرائب ⇐ تزامن مع ارتفاع النفقات
سياسة تدائن واقتراض

عجز مالي من جديد ...

من خلال ما تقدم يمكن ان نلاحظ ان منطقة الجنوب تشكل تربة خصبة لاندلاع الثورات وتغذية الحزازات ولعل ذلك يعود الى كثرة الشروط التي تسمح بممارسة الحرب الخاطفة بواسطة حروب العصابات والى مفعول المناخ الصحراوي الذي انعكس على طباع اهل الجنوب فأكسبها غلظة وجفاء وتصلبا وأظفى على "أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال (1). وطبعهم على الشجاعة والنعرة والايثار وتمتين عصبيتهم وتعصبهم مثلما سنلمس ذلك خلال الحركة اليوسفية .

لربما يفسر هذا الميل الى التمرد "الثورة" بصفة مستمرة بنزعة الى الحرية ورفض للظلم والاستعباد وعدم الخضوع لسلطة خارجة عن القبيلة مهما كان مصدرها (سلطة مركزية - سلطة اجنبية) ولعل الاضطرابات وانعدام الامن والامان يوفران جوا ملائما لنهب وسطو القبائل بعضها لبعض او غزو القبائل لاهل المدن وبالتالي الحصول على مداخيل وموارد اضافية لمواجهة شظف الحياة .

---

(1) - مصدر سابق : ابن خلدون : المقدمة ...ص 91

الباب الثاني : منتصف القرن العشرين : مفترق طرق وتقاطع أهداف.

I *ازمة النظام الاستعماري " الكلاسيكي ".

1)- التحولات العالمية وانعكاساتها :

أ- في العالم :ادت الحرب العالمية الثانية الى قلقلة التوازنات الدولية الموروثة عن معاهدة فرساي 1919 فلم تعد الدول العظمى في اوربا سابقا هي نفسها بعد الحرب فقد تراجعت الدول الوطنية كفرنسا وانجلترا لفائدة " دول" الاتحادات ومن خارج اوربا كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السفياتي واصبح العالم تتجاذبه قوتان : القوة الامريكية ذات النزعة الرأسمالية والقوة السفياتية ذات النزعة الاشتراكية .

1.* ظهور قوى جديدة متحالفة متنافسة :

دخلت كل من الاتحاد السفياتي والولايات المتحدة الامريكية الحرب الى جانب الديمقراطيات القديمة في مواجهة الفاشية واستطاعت جيوش الحلفاء تدمير النظام الدكتاتوري في المانيا وايطاليا واليابان وتحرير الاراضي التي احتلتها قبل الحرب واثناءها ولكن القوتين الجديدتين اختلفتا حول اهداف السلم وتقاسم النفوذ في فترة ما بعد الحرب فمنذ مارس 1941 صرح ستالين في مؤتمر موسكو بان اوربا الشرقية يجب ان تدخل دائرة النفوذ الروسي وفي مؤتمر طهران سنة 1943 اعترفت الولايات المتحدة وانجلترا بسيطرة الاتحاد السفياتي على دول البلطيق وبولونيا الشرقية وفي سنة 1944 ابرم الاتحاد السفياتي معاهدات مع رومانية وبلغارية والمجر وفنلاندا .وفي مؤتمر يالطا (فيفري 1945) اقتنع الاتحاد السفياتي على ضم بولونيا وبقية اراضي اوربا الشرقية الى منطقة نفوذه وهكذا سيطر

انتهاء الحرب على ما يقرب عن 500.000 كيلو متر مربع من اوربا الشرقية تضم 23 مليون نسمة (1). وسيطرت جيوشه على معظم المواقع الاستراتيجية حتى قبل انهيار المانيا وتقسيمها الى مناطق نفوذ على الحلفاء حيث تقابلت القوات ان المنتصرتان وجها لوجه وانقسمت اوربا الى قسمين .

1)- اوربا الشرقية حيث تكونت حكومات الجبهة القومية سيطرت عليها الاحزاب الشيوعية وازاحت الاحزاب الديمقراطية القديمة .

2)- اوربا الغربية وبالرغم من ابقائها على النظام الرأسمالي لقد تمسكت الاحزاب الشيوعية من الوصول الى السلطة بفضل تحديها للفاشية والنازية اثناء الحرب ودخلت كل من الاتحاد السفياتي والولايات المتحدة الامريكية مجال المنافسة للسيطرة على العالم فسلك الاتحاد السفياتي سياسة هجومية منتظمة تسعى الى خلق مناطق نفوذ بدون حرب بواسطة الايديولوجية الماركسية اللتينية في حين عمدت الولايات المتحدة الامريكية الى سياسة ثقافية لنشر نفوذها عن طريق المساعدات الاقتصادية والعسكرية والاستحواذ على قواعد استراتيجية لقواتها كما لوحت بشعارات ايديولوجية كانت الشعوب المستعبدة متعطشة اليها كالحرية والديمقراطية .

2* علاقات دولية جديدة :

أ - منظمة الامم المتحدة : جوان 1945 .

افرزت الحرب العالمية الثانية نظاما دوليا جديدا اثر حسم معركة برلين لفائدة الحلفاء المنتصرين الذين وضعوا اسسا وقواعد جديدة للتعامل الدولي تعكس موازين القوى

---

1)Guy de Carmoy:Les Politiques etrangères de la France 1944-1966, Editions de la table Ronde,1967,P: 12

المترتبة عن الحرب فتأسست منظمة الامم المتحدة من قبل الدول المنتصرة كجهاز من اجهزة النظام الدولي الجديد لحفظ الامن والسلام الدوليين بوضع حدا للحروب والنزاعات الدولية واعطت لنفسها مزيدا من السيطرة على العالم عبر هذه المنظمة الدولية بتمتعها بحق الرفض "الفيتو" داخل مجلس الامن دون غيرها من الدول رغم ان عضوية المنظمة مفتوحة امام كل الدول المستقلة من خارج اروبا الراغبة في الانضمام على شرط التزامها بميثاق المنظمة التي اتخذت من واشنطن مقرا لها وبرزت ضمنها قوى فاعلة في السياسة الدولية وهي " دول الشمال " اساسا أوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السفياتي ثم اليابان والصين في درجة ثانية اما بقية دول العالم فتشكل " دول الجنوب" وهي في الحقيقة ادوات قد توظفها احد الدول العظمى التي دخلت في حرب باردة شملت المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي وقفت الولايات المتحدة الامريكية ضد الاتحاد السفياتي وكانت المراهنة على البلدان المستعمرة لكسب اكثر نفوذا في العالم واصبحت منظمة الامم المتحدة بمثابة " باب الامل " للشعوب المستعمرة لالتماس دور الإنصاف والبحث عن حل قضاياها طبقا لمبدأ " حق الشعوب في تقرير مصيرها " رغم تورطها الى جانب الولايات المتحدة الامريكية في حرب كوريا (1950 - 1951) .

ب - الحلف الاطلسي : 8 افريل 1949 .

تمثل في معاهدة دولية ابرمت في واشنطن من قبل دول شمالي الاطلسي (امريكة الشمالية ومعظم دول أوربا الغربية ما عدى سويسرة والسويد اللتان اتخذتا موقف الحياد واسبانيا التي كانت تحت حكم فرانكو) وتحتوي المعاهدة على 14بندا تنص على الدفاع المشترك وبصورة غير معلنة تتعهد الولايات

المتحدة الامريكية بالدفاع عن اوروبا بما انها الوحيدة التي كانت تمتلك السلاح " الذري " ولكن لم تتعهد الولايات المتحدة بحماية الامبراطوريات الاستعمارية ما عدى المستعمرة الفرنسية الجزائرية (1).

وبما ان الهدف من الحلف الاطلسي هو الدفاع وحماية ارض الدول المنضوية تحته تصبح القوة العسكرية هي اهم حلف في هذا الحلف ولذا فقد ارتفعت نفقاته العسكرية من 19 مليار دولار سنة 1949 الى 56 مليار سنة 1954 (2). وهذا ما سيؤثر على ميزانية الدول الحليفة المخصصة لمد انفاس الاستعمار في العالم .

ج* حلف فارسوفيا : 14 ماي 1955.

عقد بين الاتحاد السفياتي ومقاطعات اوروبا الشرقية اثر قبول المانيا الغربية رسميا في الحلف الاطلسي يوم 5 ماي 1955 وهو ايضا حلف عسكري يهدف الى الدفاع عن حماية مناطق النفوذ الشيوعي في مواجهة مواقع النفوذ الليبرالي .

3* حركات التحرر :

لقد اسقطت الحرب العالمية الثانية " " خرافة " تفوق الدول الكبرى التي لا تهزم فأصبحت الشعوب المؤمنة بعدالة وأحقية قضيتها لا تخشى التهديدات العسكرية البحرية او الجوية وحتى البرية . كما بينت الحرب لمئات الالوف الجنود الذين جندوا قهرا من افريقيا وآسيا للدفاع عن اوروبا الفوارق في مستوى العيش بين حياة مترفة يرفل فيها الاوربيون وحياة بائسة يحيونها مع شعوبهم في بلدانهم المستعبدة وانتشر الوعي بالكرامة وبالحقوق الانسانية

1) البند السادس من معاهدة الحلف الاطلسي .

2) Guy de Carmoy, Les Poliques... Op,Cit, P: 31.

ر ذلك حتى على القوات المسلحة المرتزقة
الاجنبي " المسخرة لقمع الانتفاضات في المستعمرات
ت عمليات القمع غالية الثمن و نجاحها يتوقف الى حد
على حسن ولاء القوى المستخدمة (1). كما ان الدول
ة اثناء الحرب كثيرا ما لوحت بشعارات الحرية
لال طبقا للميثاق الاطلسي (144) : حق الشعوب
اختيارها الحكومة التي ترغب في العيش في ظلها "
الرئيس " روزفلت" يوضح في خطابه سنة 1942
ذا الحق لا يقتصر فقط على البلدان المطلة على المحيط
سي بل يضم ايضا على جميع الاقطار (2).
ب الفوز بقيادة العالم سعت كل من الاتحاد السفياتي
ايات المتحدة الى دعم حركات التحرر في العالم حتى
المستعمرات القديمة مهيمنة الاستعمار المباشر
يم وينظم الى النظام العالمي الجديد ولسيما ان
والامريكان قد استفادوا من الظرفية فبسطوا
وذهم سواء في الشرق أو في الغرب(3) واشتعل فتيل
ات التحرر فاجتاحت بلدان جنوب شرقي آسيا (الفلبين
د- اليكستان ...) ووصلت الى الشرق الاوسط الذي يعتبر
ر الامبراطورية البزنطية ونقطة الدائرة فيها " فقامت
يرات مستقلة " كانت مع ذلك خاضعة لنظام الوصاية
ما قام فيها من قواعد جوية وعسكرية واحيا لنفوذ
سيات بريطانية وحتى ارساليات اقتصادية ومصالح
الية عائدة لرجال اعمال تشدهم الى الشركات
سترولية الكبرى اواصر متينة مما ادى الى حركات
اسة عنيفة تجلت بانقلابات (في كل من سوريا
ان والعراق ومصر وايران) وبتأميم موارد البلاد الطبيعية(4).

ريس كروزيه: العهد المعاصر، تاريخ الحضارات العام، المجلد السابع، منشورات
ان بيروت" - باريس، الطبعة الثانية 1987 ص 624.
نفس المصدر، ص 622.
3) Guy de Carmoy: les Politiques...Op,Cit,P: 155.
مصدر سابق: موريس كروزيه: العهد المعاصر، ص 623

الا ان فرنسا رفضت التخلي عن مستعمراتها والتنازل عنها مما ادخل الارتباك على سياستها الخارجية (1). فقبلت بعض التنازلات مع تثبيت " حقوقها " في بعض المستعمرات مثل المغرب وتونس في حين رفضت التنازل عن اخرى فكانت الحرب مثلا حرب الهند الصينية (1949 ـ 1954) وحرب الجزائر (1954 ـ 1962) وقد يختزل ذلك بحاجة فرنسا الى مستعمراتها خرجت من الحرب منهوكة القوى .

ب ـ في فرنسا : خرجت فرنسا كسائر الدول الاروبية منهوكة من الحرب رغم انتصارها فقد هبط معدل انتاجها الصناعي الى 73 ٪ عن مستواه قبل الحرب وتدنى انتاج الحبوب واتلف اكثر من نصف وسائل النقل او اصيب باضرار كبرى (2) كما فقدت نفوذها التجاري والمالي لفائدة الولايات المتحدة الامريكية واصبحت في حاجة الى هذه الاخيرة لكي تبني اقتصادها ولم تبخل الولايات المتحدة الامريكية بالمساعدات والقروض طويلة الامد وفق مخطط مارشال وليس بالنسبة لأوربا فحسب بل لكل اقطار العالم بما فيها الاتحاد السفياتي حسب ما جاء في تصريحه يوم 5 جوان 1947 اذ يقول (ان هذا المخطط) ليس موجها ضد أيّ بلد او اية نظرية وانما ضد الجوع والفقر واليأس والعجز وهدفه اعادة الحياة للاقتصاد العالمي ... (3)

وفي الواقع كان مخطط مارشال سلاحا ايديولوجيا في بدا المجتمع الحر ضد الشيوعية خاصة بعد ان تعزز موقف الاحزاب اليسارية في اروبا الغربية بعد الحرب نظرا للدور الذي لعبته في مقاومة الفاشية والنازية ومن ناحية اخرى تردّي أوربا في البؤس وفقدان الأمن

1) Guy de Carmoy : Les Politiques...Op,Cit,P 156

(1) بمصدر سابق : موريس كروزيي " العهد المعاصر " ص 442

2) Guy de Carmay:les Politiques etrangeres de la France (1944-1966)...Op,Cit. P:85.

(2) مصدر سابق :

ج - في تونس :

"ان الحرب العالمية الثانية التي عادت بالوبال على الشركات الاحتكارية الفرنسية وعلى البرجوازية الفرنسية المقيمة في تونس جعلت فرنسا مصممة على اعتصار المستعمرة التونسية لاسترداد ما خسرته اثناء الحرب(1).

4* تدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي :

لقد فرضت الحرب العالمية الثانية على فرنسا الدخول في تحالفات عسكرية (الحلف الاطلسي) والسعي الى تركيز تجمعات اقتصادية وخلق اتحادات جمركية (الاتحاد الفرنسي) كما عززت ربط المستعمرات باقتصادها مع تعميق التخصص وتقسيم العمل بين المستعمرات والمتروبول فيجب على المستعمرات توفير المادة الاولية - الفلاحية والمنجمية - وقوى العمل لفائدة فرنسا في حين يمكن لها تجاوز وضعها الدقيق الناتج عن الحرب ومن خلال الاحصيات المتعلقة بالانتاج والتصدير يمكن لنا ان نتبين سياسة فرنسا الاستنزافية لثروات البلاد :

1-1) الانتاج : (المؤشر العام للانتاج (القاعدة 100 لسنة 1938)(1).

	1949	1950	1951	1952	1953	1954
الانتاج الفلاحي	210	133	100	170	174	159
الانتاج المنجمي	75	82	95	114	99	102

نستن خلال هذا الجدول وهو صادر عن تقرير لرئيس المركز التونسي للاحصاء ان المؤشر العام للانتاج الفلاحي بلغ القمة (210) سنة 1949 وهو ما يوافق نهاية الازمة الزراعية بفرنسا .

1)Lepidi (Jules): le Commerce Exterieur de la Tunisie en 1954, (1 Bulletin économique et Sociale de la Tunisie, Mars 1955, N° 98, PP .34-39.

بتونس والعودة الى وضع ما قبل الحرب في حين لم يبلغ المؤشر العام للانتاج المنجمي القمة (114) الا في سنة 1952 ايضا السنة التي بدأت فيها فرنسا تختلف من ازمتها الصناعية وبالمقارنة بين المؤشر العام للانتاج الفلاحي والانتاج المنجمي نلاحظ اهمية تطور موشر الانتاج الفلاحي خاصة منذ 1952 ولعل ذلك يفسر بالتحولات العالمية عموما (حرب كوريا - حرب الفيتنام - حروب التحرر ظهور مواد ومصادر للطاقة كالمنغنيز - النيكل - الالمنيوم والغاز - النفط).

مع ذلك تبقى قيمة الصادرات للمواد الفلاحية ويظهر ذلك من خلال هذا الجدول :

(2) التصدير (مليون فرنك) (1).

		1952	1953	1954
مواد اولية للصناعة	- فلاحية	5.075	2.616	3.459
	- منجمية	15.341	13.824	13.905
مواد اولية للفلاحة		822	1.217	2.234
المجموع الجملي للصادرات		40.180	39.103	42.690

(3) - الميزان التجاري التونسي :

مليون فرنك	1949	1950	1951	1952	1953	1954
الواردات	42.368	51.533	63819	64879	60121	59211
الصادرات	27396	39826	37907	40180	39103	42690
العجز	14972	11707	25909	24699	21018	1652

(1) نفس المصدر :

1) Lepidi (Jules): Le Commerce Exterieur ...

مما قد يتسبب في اضطرابات اجتماعية تهدد مراكز نظام الحكم الرأسمالي .

ومع ذلك لم يسلم النظام الرأسمالي من التحولات اذ بدأ واضحا ان اطلاق العنان للمنافسة الحرة بدون قيود يشكل معرقلا جديا للنمو الاقتصادي ويقف وراء الازمات الاقتصادية والاجتماعية . لذا تدخلت السلطة العامة في الميدان الاقتصادي (النقد - المصارف - الطاقة) دون احتكار السوق وسعت الليبرالية الجديدة الى العمل على وجهتين :

1 - سياسة حمائية تهدف الى ضمان حد ادنى من حماية الفئات الاجتماعية الضعيفة .

2 - اعطاء دور اكبر لاجهزة الدولة الانتقال بها من وظيفة الشرطي الى وظيفة اكثر ايجابية في رسم السياسة الاقتصادية(1) فأقر دستور 1946 نظاما عاما اجتماعيا يقوم على فكرة حماية الضعفاء من الاقوياء كما انشأ جان مونيه " في نفس السنة لجنة التخطيط التي تمخضت في السنة الموالية عن خطة وطنية للتصميم والتجديد وفقا لمتطلبات العصر وهكذا تطورت الرأسمالية الاحتكارية في المركز الامبريالي الى رأسمالية الدولة الاحتكارية التي تتوحد فيها الطاقة الاقتصادية للاحتكارات الصناعية والمصرفية التي ضاقت بها اقتصادياتها المحلية نتيجة انخفاض معدل الربح والتمركز الهائل للثروات ورؤوس الاموال بالطاقة السياسية والعسكرية والايديولوجية والتنظيمية للدولة الامبريالية (2) فكان تكثيف الاستثمار الرأسمالي المباشر خاصة في المستعمرات مع استنزاف خيراتها الطبيعية .

---

(1) مصدر سابق : موريس كروزينيه "العهد المعاصر" ص 429 .

(2) د/ عارف دليلة : الاعتماد على الذات تاريخيا (تعظيم الشرط الاساسي الى اعادة بنائه) : دراسات عربية العددان 1 و 2 ، سنة عشرون تشرين الثاني وكانون الاول 1983 ، ص ص 87 - 100 .

وهكذا نلاحظ استفحال العجز في الميزان التجاري من 1951 الى 1954 رغم ان زيادة الواردات علة دائمة في الاقتصاد التونسي طيلة العهد الاستعماري وحتى قبله وبعده فأكثر الواردات هي مواد استهلاكية تشكل مثلا هذه المواد نسبة 58٪ سنة 1954 في حين ان اكثر من 90٪ من الصادرات هي مواد فلاحية ومنجمية خام (1). مما يجعل عجزها هيكليا .

ويشتد العجز في المبادلات بين تونس وفرنسا .

4. 1)- المبادلات (مليون فرنك)(2).

البلدان	1953 واردات	1953 صادرات	1953 الميزان	1954 واردات	1954 صادرات	1954 الميزان
فرنسا	45407	23063	22344	44722	25624	19098
بريطانيا	1101	4،409	+3،308	1،072	4،014	+2،942
الولايات المتحدة	2،832	445	-2،378	2،255	869	-1386
ايطاليا	2،134	3،389	+1،255	2،640	3،258	+618

من خلال هذا الجدول نلاحظ ان فرنسا تتمتع بأكثر من 3/4 الواردات التونسية واكثر من 2/3 الصادرات وهذا ما يجعل الميزان التجاري يسجل عجزا فادحا في المبادلات مع فرنسا تجاوز قيمة العجز العام في سنة 1954 / 16،521 مليون فرنك يعتبر ذلك بان البلاد التونسية تعتبر جزءا من الوطن الام فرنسا طبقا للوحدة الجمركية المفروضة على تونس منذ 1928 ومن ناحية اخرى نسجل عجز طفيف في المبادلات مع الولايات المتحدة الامريكية مع تقلص من سنة 1953 الى 1954 ولعل ذلك يعود الى انخفاض مشتريات مواد التجهيز اولا وثانيا الى التراجع التدريجي في المساعدات الامريكية المعروفة بمخطط مارشال " وبالعكس نلاحظ ان المبادلات مع ايطاليا

1) و 2) نفس المصدر السابق : Lepidi (Jules) Le Commerce... 1)et(2)

وبريطانيا تسجل فائضا نسبيا ولعل ذلك يعود الى سياسة فرنسا الهادفة الى تحديد دور هاتين الدولتين في التجارة الخارجية التونسية .

2*الاقتصاد التونسي ضحية الازمتين :

الى جانب كونه ضحية ازمة النظام الرأسمالي كان الاقتصاد التونسي ضحية ازمة اقتصاد التقليدي في منتصف الخمسينات ان تضرر من التضخم المالي والكساد التجاري اللذان كانا يعانيهما النظام الرأسمالي من ناحية ومن ناحية اخرى كان يعاني من مخلفات الكوارث الطبيعية : الجفاف والجراد وخاصة بمناطق الجنوب حيث قلت التساقطات وتراجعت عن المعدل العام العادي بنسبة تفوق 1/3 في كل من قفصة وقابس وجربة وتوزر وقبلي وتطاوين . (1).ومن جهة اخرى دفعت رياح الشهيلي بسحابة من الجراد اكتسحت مناطق الجنوب والوسط ووصلت حتى السواحل الشمالية للبلاد التونسية في منتصف شهر فيفري 1955 وقد بدات طلائعها تظهر بالبلاد منذ اواخر جانفي بجهة قبلي والحامة(2) واتى الجراد على ما نجى من الجفاف من نبتات بالجنوب فقل المزرع وتناقصت الحيوانات وانتشرت بينها الامراض الوبائية كداء الكلب والحمى .

ونتيجة تفاعل الازمة الاقتصادية للرأسمالية مع الازمة الاقتصادية لنظام ما قبل الرأسمالية التهبت الاسعار فلو انطلقنا مثلا من قاعدة 100 للمؤشر العام لاسعار التفصيل سنة 1940 يصبح هذا المؤشر 2433 في شهر جانفي 1955 (3).

وهذا الارتفاع في المؤشر العام يفسر بوضوح ارتفاع اسعار المواد الغذائية كاللحوم - القطانية - البطاطة - الخضر الجافة الشاي - السكر - الصابون الاخضر - الاسماك - زيت الزيتون

1)Bulletin Economique et Sociale de la Tunisie,Mars;1955,N°98.
2)Bulletin éco,et Social de la Tunisie,...Op,Cit,p 67
3) نفس المصدر : ص 90 .

الزبدة ـ الجبن ـ وأدى غلاء المعيشة الى سوء التغذية في الاوساط الفقيرة وحتى العمالية حيث اثبت الاستاذ محجوب عزام ان عدد الكالوريات المستهلكة من قبل العمال هو دون 2000 كالوري وقد تصل الى 1240 كالوري بالنسبة للعامل الفلاحي (1).

واضطرت بعض العائلات الفقيرة بالجنوب الى مقاسمة الحيوانات غذاءها فأكلت الاعشاب كالفصة والتفاف والقيز والفقاع والى جانب سوء التغذية عاش الاهالي البطالة التي بلغت نسبتها بين السكان الموهلين للعمل 42٪ (2). سنة 1956 وقد تظافرت عدة عوامل للاستفحال ظاهرة البطالة بتونس منذ بدايات الخمسينات نتيجة تزاوج " الازمتين " للاقتصاد التونسي فقد ادت ازمة النظام الرأسمالي وتجمد حركة الاستثمارات الاجنبية بتونس منذ 1954 الى تقلص مواطن الشغل وحتى طرد فردي او جماعي للعمال التونسيين (3) نتيجة غلق بعض المؤسسات كمصنع العجين والصابون بتونس (4) او الضغط على تكلفة الانتاج بالاستغناء على بعض العمال ...

كما مست البطالة الارياف التونسية منذ الثلاثينات نتيجة توسع حركة افتكاك الاراضي وادخال المكننة وتعصير الفلاحة الى جانب ارتفاع عدد السكان نتيجة التحسينات الصحية التي ادخلتها السلط الاستعمارية لفائدة المعمرين اساسا واستفاد منها الاهالي بدرجة ثانية .

فقد ارتفع عدد السكان منذ الثلاثينات بحيث مر هذا العدد من 2،6 مليون نسمة سنة 1936 الى 3،8 مليون سنة 1956 أي بزيادة تفوق المليون نسمة في ظرف عشرين سنة فهذا من شأنه ان يؤدي الى تضخم عدد طالبي الشغل .

---

1) المصدر سابق : وجاء في تقرير بحث قام به الدكتور بورني Burnet في التغذية بتونس سنة 1933 ان نسبة 81٪ من السكان هم دون 3000 كالوري (حرارية).

2) نفس المصدر (Mahjoubi Azzam: l'Indu strie. .)

3) انظر محاضر جلستي الاتحاد العام التونسي للشغل يومي 1955/2/6 و 1955/2/20

4) المصدر سابق: Bulletin éco, et Social de la Tunisie...OP,Cit.p22

ولا ننسى ثقل وزن الجفاف الذي اجتاح البلاد سنة 54و1955 الى درجة دفعت الحكومة الفرنسية الى ارسال مساعدات غذائية الى الشعب التونسي المتضرر من الجفاف وقد نوه الوزير الاول الطاهر بن عمار بذلك في تصريحه لجريدة "الفيكارو" بتاريخ 5 و 6 مارس 1955 . وقد تكونت يوم 7 فيفري 1955 لجنة وزارية برئاسة الطاهر بن عمار لاتخاذ اجراءات جديدة لاحداث مواطن الشغل والحد من انعكاسات الجفاف ...

وقد استفحلت البطالة بالجنوب التونسي بسبب الجفاف الذي مس بعض الانشطة الاقتصادية ودعا هذا السلط الاستعمارية الى التفكير في وضع برنامج لمقاومة البطالة فقام المقيم العام Boyer de la بزيارة رسمية الى الجنوب التونسي يوم 24 فيفري 55 قصد معالجة هذه المشكلة بفتح حضائر القيادات حضائر الاسكان - حضائر الفلاحة (1). بالاضافة الى فتح مراكز للتكوين المهني ومع ذلك بقي مشكل البطالة قائما لان اسبابه اعمق من ان تكون اسباب مناخية ظرفية فانها ترتبط بالاستعمار نفسه وبانسحاب رؤوس الاموال الاجنبية من تونس في 1955 وهذا ما ادركه سكان الجنوب ودفع بهم الى مقاومة الاستعمار واستئصال جذوره ، في حين رأى البعض منهم الحل في النزوح أو الهجرة .

وليس النزوح ظاهرة جديدة في منتصف الخمسينات بل هي قديمة مثلما اسلفنا القول ، لكنها استفحلت بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة تتالي سنوات الجفاف وتفاقم البطالة والجوع والفاقة من ناحية ومن ناحية ثانية تفكك البنى القبلية - بفعول استقرار القبائل وانتشار الملكية الخاصة وتراجع النمط الرعوي

---

1) مصدر سابق Bulletin éco, et Social, de la Tunisie...Op, Cit; p23

2) Stambouli, Systéme Urbain et Developpement du Maghreb; Harizon 4e Volumes, Cérés Production, Tunis, 1980 P P 54-66.

وضعف الشعور بالانتماء الذي كان يشد الفرد الى ارضه والى قبيلته بعد تحوله الى " بروليتاريا "فلاحية يمكن له ان يبيع قوة عمله لمن يدفع له بمقابل فارتحل الى المدينة : الى العاصمة او المدن الساحلية ذات الموانئ التي تشكل همزة وصل في انماء التراكم الرأسمالي الاروبي وتكونت تدريجيا حول هذه المدن احياء قصديرية كبيرة متوثبة للثورة .

* فرنسا وتونس : احتواء وصمود .

ادعت فرنسا لتبرير وجودها في تونس انها جاءت لتحسين اوضاع السكان وتحقيق رقيهم وتقدمهم بتأثير الحضارة الغربية وتوفير الامن والنظام والرخاء الا ان هذا الادعاء تكذبه منذ البداية قولة جوا فيري رئيس الحكومة الفرنسية ابان الاحتلال الفرنسي لتونس " ان التواجد الفرنسي تفسره الرغبة في احتكار بلد قليل السكان متأخر تقنيا واقتصاديا لم تستغل بعد جميع ثرواته لفائدة الرأسمالية والمنتجين الفرنسيين (1).

ومن خلال هذه القولة ندرك مصير البلاد التونسية الذي ارتبط منذ 1881 وحتى قبل هذا التاريخ بمصير النظام الاستعماري القائم على الاستغلال وامتصاص خيرات المستعمرة لفائدة "المتروبول" استغلالا لا يكلف فرنسا خسائر في المال ولا في الرجال .

فما جنت البلاد التونسية من التواجد الفرنسي على ارضها لمدة 75 سنة ؟ من المثيرات ان ندرك تلك السياسة الاستعمارية التي سلكتها فرنسا في البلاد التونسية وهي التي تدخلت سنة 1881 باسم مساعدة تونس" البلد الغير مصنع" على النهوض والتحضر واذا بها تدفع بهذا البلد بعد مرور خمس وسبعون سنة على تواجدها الى صف البلدان المتخلفة (Sous developpés) فكيف كان ذلك وما هي مظاهره وهل ذلك يفسر هو الاقف بعض الاطراف من الحركة اليوسفية ؟

(1) مصدر سابق :

1) Mahjoubi (A), L'etablissement...P: 387.

1)- على الصعيد السياسي والاداري :

لم تقض معاهدة باردو على الدولة الحسينية مثلما هو الحال في الجزائر نظرا للظرفية التاريخية التي قد حتمت ذلك على فرنسا حيثما زال المناخ العام بها تأثرا بهزيمة 1870 وبامل استرجاع منطقتي الالزاس ولورين بدفع من الاحزاب اليسارية واليمينية وبالتالي توجيه الجهود العسكرية لمحاربة المانيا وتحرير الاراضي الفرنسية وليس اكتساح اراضي اخرى من وراء البحار وان كان ذلك لابد منه مثل ما هو الحال بالنسبة لتونس فلا يجب ان يؤدي الى اضعاف الدفاع ولا ارهاق ميزانية الجمهورية الفرنسية ولا مس علاقتها الدولية . وقد مثلت هذه المشاغل الثلاثة - الدفاع - المالية حلفاء فرنسا دعائم السياسة الخارجية الفرنسية منذ مؤتمر برلين (1). ولهذا فضلت القوات العسكرية الفرنسية الزاحفة على البلاد التونسية . امضاء معاهدة الحماية عن احتلال البلاد عنوة وكان بامكانها ازاحة محمد الصادق باي وازالة دولته ولكن ذلك يجنبها اولا الصدام المباشر والعنيف مع المجتمع المحلي وثانيا يمكنها من استعمال الدولة المحلية بوصفها بنية عليا فوقية راسخة في الشرعية الايديولوجية التي اتى بها الاسلام كواجهة قانونية - ايديولجية تتستر ورائها السلط الفرنسية لممارسة سياستها الاستعمارية في افتكاك الاراضي وتجنيد التونسيين وفرض الجباية والغرامات ومن ناحية ثالثة بالمحافظة على الدولة المحلية يمكن لفرنسا التملص من نفقات الاحتلال ومصاريف تواجدها بالتراب التونسي وبالاضافة الى ذلك " تعني استمرارية الدولة شكليا الحفاظ الجزئي على الاقل على امتيازات الارستقراطية الحاكمة وحتى الدينية التي ستواصل ممارسة سلطة ايديولوجية لا يمكن اغفالها وافترة اخرى على الفلاحين (2).

1) Mahjoubi (A), L'etablissement...OP:Cit. P: 48.: مصدر سابق

2) مصدر سابق : خالد المنوبي الانموذج التونسي في سيورة تفكك الدولة الخارجية اطروحات العدد السابع 1985. ص 38.

وقد اكتفت فرنسا بتحويل الادارة التونسية الى ادارة تخدم مصالحها دون السعي الى مقاومة سلبياتها وامراضها الموروثة منذ العهد الحسيني .

ورغم فرض نظام الحماية وسعي المقيمين العامين لسحب السلطة الفعلية من الباي وجعل الحكومة التونسية شبحا للسلطة التنفيذية بقي الباي والحكومة المحلية المتفق عليها رمز الذاتية التونسية ومنبع الشرعية الرسمي حتى في نظر السلط الاستعمارية نفسها فالقرارات والاوامر كانت تصدر بامضاء البايات الحسينيين الذين واصلوا توارثهم العرش الحسيني في ظل الحماية . وادرك " بن يوسف" هذا الخلل في نظام الحماية فتمسك بشرعية الباي واستغلها في المسألة التونسية سواء في المفاوضات التونسية الفرنسية (1950 - 1951) او في عرض القضية التونسية امام منظمة الامم المتحدة (1952 - 1954).

2)- على الصعيد التشريعي :

كانت فترة الحماية مليئة بالتشريع سواء في الميدان الاداري اوالقضائي او المالي او العقاري الا ان هذه القوانين كانت تهدف الى تعزيز الاستعمار المباشر لصالح المعمرين الاوربيين . والى جانب هذه القوانين " الضريبة " عن تقاليد المجتمع التونسي تركت السلط الاستعمارية تداول التشريع الاسلامي بل عمدت في بعض الاحيان الى استعماله استعمالا يتماشى ومصلحتها في توسيع قاعدتها بمركزة الاراضي بين يديها مثلا من "احي ارضا مواتا فهي له . وهكذا نلاحظ ان السلط الاستعمارية ابقت على وجود امير مسلم على رأس البلاد وحافظت على استمرارية جهاز حكومة محلية حتى تضمن قبول تواجدها بأقل تكاليف الخسائر وعمدت من ناحية اخرى الى توظيف هذا الجهاز المحلي لخدمة مصالحها واستغلالها كقناة واداة لتمرير سياستها "الداخلية" بواسطة قوانين وقرارات يصدرها " الباي " بنفسه بعد

خضوعها لتأشيرة المقيم العام الفرنسي بمقتضى الامر الصادر
من رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ 10 نوفمبر 1884 ومن ناحية
ثانية حال التواجد الاستعماري دون تكوين " دولة حديثة "
اذ لم يعمل على تطوير جهاز " للدواة المحلية " وتنمية
مؤسساتها وتنوع مجالات مراقبتها الادارية بل عمل الاستعمار
على تركيز مجرد هيكل بيروقراطي قبل بوضع التذيل
للامبريالية العالمية فهو مجرد مجموعة اداريين
في خدمة رأس مال " البتروبول " عاجزة عن تمثيل مصلحة
الطبقات المحلية وتكوين امة واعية بتناقضها مع النظام الاستعماري
وبالتالي الوصول الى درجة " دولة وطنية " قادرة على تغيير
نمط الانتاج مع خلق علاقات جديدة ، لقد حال الاستعمار
دون ان تنجح الدولة المحلية في تهيئة الارضية لرأس المال
والنمط الرأسمالي السليم فكان ادخال نمط رأسمالي متطور
فرضته الهيمنة الاستعمارية الى جانب تواصل العمل بنمط
انتاج محلي تقليدي موروث .

3 ـ على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي :

أ ـ الاقتصاد التونسي خلال الخمسينيات :

بعد مرور ثلاثة ارباع القرن من التواجد الاستعماري بتونس
اصيب الاقتصاد التونسي بالانفصام ناتج عن تواجد نمطين
متناقضين ـ

- نمط رأسمالي استعماري " متطور " .
- نمط محلي معاشي " متخلف "

1) ـ النمط الرأسمالي الاستعماري (الكولونيالي) وتتوفر به معطيات
النظام الرأسمالي .

* التجهيزات الاساسية :

لقد عمل الاستعمار حتى قبل مجيئه على تعزيز البنية الاساسية
من طرقات وسكك حديدية وموانئ . . وقد مول التونسيون هذه
الاعمال الهيكلية اما عن طريق الجبائية او العمل التطوعي وحتى

مسرا " السخرة" او عن طريق القروض المحمولة على عاتق الدولة المحلية رغم ان هذه التجهيزات قد ركزت حسب استراتيجية مدروسة تدعم التغلغل الاستعماري وتسهل عمليات التصدير نحو " المتروبول" وقد مس التصدير كل الثروات الطبيعية للبلاد من منتوجات فلاحية ومنجمية وحتى القوى البشرية .

ولذا وجب ربط المناطق ذات الزراعات المخصصة للتصدير (الحبوب العنب - الزيت) بالموانئ وربط المناطق المنجمية بالموانئ مع ربط المدن الكبرى في ما بينها وربطها ايضا بالموانئ دون ان تنسى ربط المدن الداخلية بالسواحل ...

من هنا جاء الاهتمام بالموانئ القديمة واحداث اخرى جديدة في اطبرقة وبنزرت وتونس والسخيرة وصفاقس وسوسة كما وصلت خطوط السكك الحديدية الى توزر والى قابس في نطاق اهداف الاستعمار الاستراتيجية والعسكرية الاوهي اخضاع كامل البلاد الى الهيمنة والمراقبة .

وهكذا نلاحظ توظيف طرق المواصلات التي هي بمثابة شرايين للاقتصاد لصالح " المتروبول " وليس للنهوض بالاقتصاد المحلي التونسي وقد ادرك التونسيون هذه الحقيقة فكانت طرق المواصلات كالسكك الحديدية والقناطر وخطوط الهاتف عرضة لعمليات التخريب والاتلاف ولا سيما اثناء انفجار الغضب الشعبي ...

* دور البنوك الاجنبية :

لعبت البنوك الاجنبية دورا اساسيا في عملية التوغل الاستعماري في البلاد التونسية وفي بقية اقطار المغرب العربي .

لقد نصت اتفاقية المرسى المبرمة في 8 جوان 1883 على تحويل الديون التونسية في شكل قرض يقع تسديده من خزينة

(1) جاء في البند الثاني من اتفاقية المرسى : تضمن الحكومة الفرنسية قرضا يعقده سمو الباي لتحويل أو لدفع الدين الموحد البالغ 125 مليون فرنك والدين السائر الذي لا يمكن ان يتجاوز 17.500.000 . ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموفقة لذلك . وقد تعهد سمو الباي المعظم بان لا يعقد قرضا في المستقبل لحساب المملكة التونسية دون اذن سابق من الحكومة الفرنسية .

البلاد التونسية . كما منحت البنوك الفرنسية الدولة المحلية عدة قروض اخرى. وهذا ما جعل البلاد سجينة ديونها والتي ترهن اقتصادها ... حتى ان اصدار الاوراق المالية اصبحت من مشمولات البنك الجزائري التونسي (1) من ناحية اخرى فتحت البنوك الاجنبية مجال الاستثمارات امام المعمرين في حين تشددت امام مطالب الاهالي الذين كان عددهم بالتعامل البنكي قصيرا وحتى يدهم بهذا التعامل محدودا وهذا ما ادى الى سيطرة الشركات الاجنبية فمثلا يورد الاستاذ عزام محجوب (2). ان نسبة 80 ٪ من الشركات هي على ملك فرنسيين و 8 ٪ تونسيين و 4 ٪ لاروبيين من غير الفرنسيين ويحتكرون 9 مؤسسات من جملة 11 التابعة للتونسيين متواجدة في الصناعة الفلاحية والغذائية و 2 في النسيج وذلك سنة 1953 ، كما يوضح الاستاذ عزام محجوب هيمنة رأس المال الفرنسي على ميدان الاستثمار بتونس خاصة بعد الحرب العالمية الثانية فالاحظ ان 71،5 ٪ من الاستثمارات تقدمها الدولة والشركات العامة و 80 ٪ منها تاتي من " المركز" المتروبول " وموجهة اساسا الى التجهيز بنسبة 47،8 ٪ اما الاستثمارات الخاصة فقد كانت بنسبة 3/4 ٪ موجهة الى الصناعة كما بين ايضا ان 77 ٪ من الاستثمارات كانت من نصيب 7 شركات كبرى وان 2 ٪ من مجموع المؤسسات تشغل اكثر من 50 عاملا ومع ذلك تشغل نصف العاملين في الصناعة ولا يشغل هذا القطاع سوى 12 ٪ من مجموع العاملين (11،800 من 994،000) [2]

لقد تجمعت في تونس ظواهر رأس المال الاحتكاري ورأس المال الاجنبي بصفة عامة ففي مجال رأس المال الاحتكاري نجد عدد

---

(1) الامر العالي المؤرخ في 5 اوت 1948 .

(2) عزام محجوب : الصناعة وتراكم رأس المال في تونس منذ نهاية القرن الثامن عشر اطروحة دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية جامعة العلوم الاجتماعية بقرونبول ، جوان 1978 .

شركات احكمت استغلال خيرات البلاد مثل شركة صفاقس قفصة ، الشركة العامة لمعاصر الساحل التونسي(1) " شركة التبغ والسكر ، شركة الملح والصودا . . .وكانت هذه الشركات تسيطر على مجموعة صناعية وتحتكرها وتحقق بها ارباحا هامة على كاهل قوة العمل المحلية بفضل الزيادة في الانتاجية كما ان رأس المال الاجنبي لم يكن يستثمر في الصناعة فحسب وانما في النشاط العقاري والتجارة والمصارف ووسائل النقل والمواصلات حيث يحصل على الربح بأقل جهد .

ولكن ما أن بدأت القلاقل والاضطرابات تتفشى في البلاد منذ مطلع 1952 حتى ساد الحذر والاحتياطات داخل البنوك والمؤسسات الفرنسية والاجنبية وبدأت تجمد اعمالها ونشاطاتها خوفا من التطورات السياسية الجديدة وما ستسفر عنه من انعكاسات دولية وخاصة العلاقة بين تونس وفرنسا ويتجلى ذلك من خلال الانخفاض الذي شهدته الاستثمارات ما بين 53/و57 بحيث انخفضت من 7، 1464 مليار فرنك سنويا الى 6، 581 مليار كما ان التشكل الخام للرأس المال القار (F.B.C.F) انخفض ما بين سنة 1950 و 1957 من 42 مليار الى 1، 23 مليار (2).

منذ صائفة 1955 اي بعد مصادقة البرلمان الفرنسي على اتفاقيات الحكم الذاتي بدأت الرأسمالية الاجنبة بالهروب وهذا من شأنه ان يخلق ازمة مالية ترثها الحكومة الجديدة سنة 1956 فمن اين الحصول على المال لتحقيق التنمية في غياب وجود بورجوازية وطنية فاعلة وانزلاق البلاد في شباك القروض والمديونية .

---

(1) تأسست شركة صفاقس ـ قفصة سنة 1897 للاستغلال مناجم الفسفاط تحت مراقبة رأسمال فرنسي وقد استولت على عديد الاراضي وانتزعت ملكيتها من الاهالي .

(2) المصدر السابق : عزام محجوب

* النظـــام الجمـركـــي :

منذ القرن التاسع عشر عملت الدول الاروبية الصناعية على تحطيم السياج الجمركي الذي يحول دون تطور الانتاج المحلي والبلدان غير المصنعة من قبل بضائعها وذلك بعقد اتفاقيات ومعاهدات لا متكافئة . وبعد ترسيخ الحماية الفرنسية بتونس في فترة حرجة كان يعيشها الاقتصاد الرأسمالي بسبب ازمة 1873 - 1896 لذا عملت السلط الاستعمارية على رفع الحواجز الجمركية عن الاقتصاد التونسي امام البضائع الفرنسية مع تسهيل المبادلات بحيث تمتعت المواد الفلاحية والمنجمية بتسهيلات عند دخولها فرنسا في حين وضعت الحواجز امام تصدير مواد مصنعة تونسية بينما انفرد المستعمر بحق ادخال المواد المصنعة الى تونس وقد افرقت هذه البضائع السوق المحلية وقتلت التصنيع المحلي نظرا لجودتها وسعرها المناسب وتلبيتها الذوق التونسي .

ويجسد تطبيق نظام جمركي منحرف نحو " البترول " التقسيم الاستعماري للعمل المتمثل في وجود مركز وهو "المتربول" ومحيط وهو المستعمرات التي تدور في فلك المركز فتموله بالمواد الاولية وتستثمر فائض انتاجه وتزيد في ارباحه وبالتالي تعزيز قوة رأس المال الاستعماري الذي بدوره يزيد في هيمنة المركز على المستعمرات وتطالب الرأسمالية الاستعمارية بمزيد من الامتيازات وتوسيعها وفي سنة 1928 وقع تطبيق " الاتحاد القمرقي " على تونس فزادفي تضييق الخناق على اي تصنيع محلي واصبح التحكم في النظام الجمركي بما يخدم مصالح رأس المال الاستعماري واحكام المراقبة الاقتصادية . وهذا ما جعل فرنسا تلح على ادماج تونس داخل الاتحاد الجمركي وضمن دائرة الفرنك من خلال ما جاء في الفصول 11و 14 و 15 من الاتفاقية الاقتصادية والمالية وهي احدى اتفاقيات جوان 1955 محل الخلاف بين البورقيبية وبن يوسف .

* قـــوة العمـــل :

الزيـادة في الارباح وغلبية مطالب اقتصادها المنهار من جراء الازمات والحروب سعت الرأسمالية الاستعمارية الى استغلال مكثف لخيرات البلاد وقواها العاملة وقد عانى العمال التونسيون مصدر الزيادة في الانتاجية خاصة في الخمسينات عند ما بدأت الرأسمالية الاجنبية تجمد نشاطها بتونس ويظهر ذلك من خلال الرسم البياني بعجز يتقاضاه العامل ما بين 1945 ـ 1955 خاصة وان الشغيلة التونسية اغلبها عمال غير مختصين بنسبة 73 ٪ (1).

بطـور الاجـور والاسعـار : (القاعـدة سنة 1944 ـ 100(1).

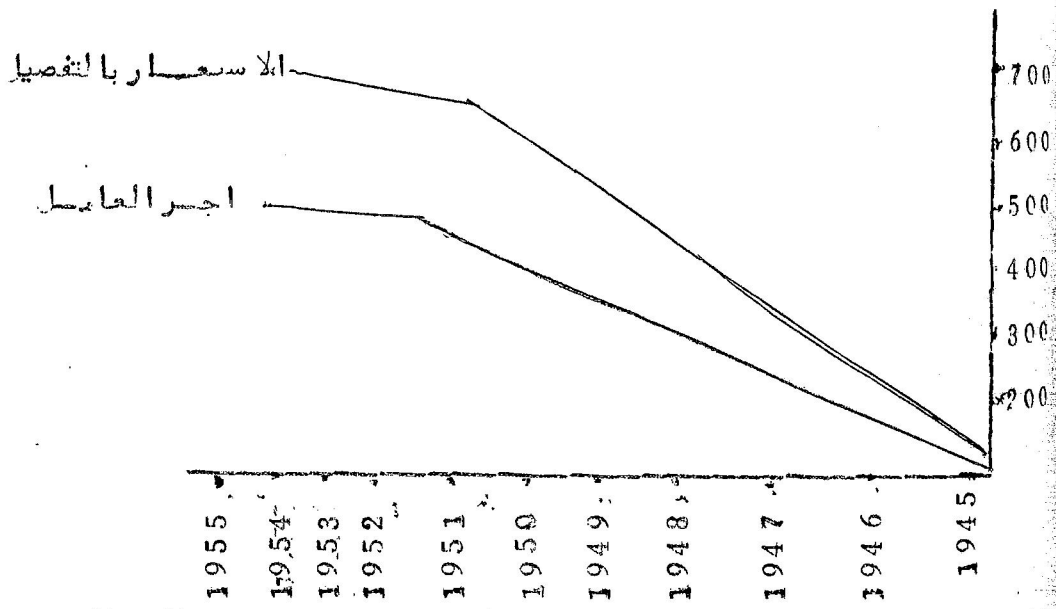

ومن هنا نلاحظ تجمد الاجور منذ مطلع الخمسينات بالنسبة للعامل صاحب عائلة يفضل المنح العائلية التي تحصل عليها منذ سنة 1941 في حين انخفض اجر العامل الاعزب بين 1938 و 1951 بنسبة 18 ٪(3) ويحتد الفارق بين الاجور والاسعار لو قارنا بين مؤشر الاجور ومؤشر الاسعار

1)Ben Hamida(A),Le Syndicalisme Tunisien de la 2eme Guerre Mondiale à l'Autonomie interne,Publications de l'Université de Tunis,I, 1989,P: 38.

2) نفس المصدر ص 39

3) مصدر سابق : عزام محجوب : الصناعة وتراكم رأسمال .

مع افتراض سنة 1939 كقاعدة 100(1).

	مؤشر الاجور	مؤشر الاسعار
1939	100	100
1948	103	1630
1951	111	2480
1954	108	2800

من هنا نلاحظ ان مؤشر الاجور لم يرتفع الا بنسبة طفيفة ما بين 1939 و 1954 في حين التهبت الاسعار بعد الحرب خاصة في منتصف الخمسينات وهذا قد يفسر بالتضخم المالي الذي عانت شعيشه فرنسا في ظل ازمة النظام الاستعماري الاكلاسيكي وقد انعكس ذلك على تحركات الطبقة العاملة التونسية التي تألفت من شغيلة الاغرابات وقد احصى عزام محجوب 140 اغرابا ما بين 1945 و 1956 . كما تجذرت مواقفها وتحولت مطالبها من مجرد مطالب مهنية الى اخرى سياسية - وربما هذا يفسر مشاركة فعالة في توتر الاوضاع بتونس منذ مطلع الخمسينات وانقسام القوى العاملة بين مؤيد ومعارض للخلاف بين بورقيبه وبن يوسف في الدقائق الاخيرة من عمر الاستعمار المباشر

التعليم :

لقد كانت السلط الاستعمارية تدرك جيدا خطر نشر التعليم في البلدان المواطن عليها اذ يعمل على تعبئة الطاقات البشرية وتنشر الوعي العقلاني والعمل المبني على ادراك الفرد للظروف المحيطة به ومع ذلك بادرت السلط الاستعمارية منذ 1883 باقامة المؤسسات التربوية من مدارس ومعاهد ثم ارسال المتفوقين

1) Ben Hamida (A): Op,Cit . P: 40. المصدر سابق :

الى فرنسا المتابعة تعليمهم لانها تعرف بعدة تجربتها
في الجزائر ان الاستعمار الفعلي لا يكون بالتدخل العسكري
او بالمجهزة الادارة فحسب وانما عبر التعليم فهو يلطف من
طباع الحادة ويفتت جدار رفض الاخر ويهيء البلاد الى الانفتاح
على الحداثة والعصارة واستيعاب قوانين ولغة المستعمر
والاندماج تدريجيا في ثقافته وحضارته فمن خلال تدريس
مواد وبرامج منتقية بلغة المستعمر تنفذ الى المتلقي
التونسي ثقافة "المتروبول" وتاريخها ورموزها فتشكل
نظرة النخبة "الانتليجنسيا" الى ذاتها وثقافتها وتاريخها
وحضارتها وتطوع لسانها على نطق واستعمال اللغة الفرنسية
لغة العلوم والتقنية والتمدن" مستهينة بلغتها الاصلية "العقيمة"
رمونني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم اجزع لقول عداتي (1)

وتعظم نظرة الاعجاب لدى النخبة بثقافة المستعمر الى حد الاستيلاب
وتحقير الذات والتشبث بمحاكاة "الغالب" في لغته ولباسه
وحتى بعض تقاليده الخاصة المرتبطة بتاريخه ومعتقده ويعتبر ذلك
مقياسا لدرجة الرقي والمكانة الاجتماعية ولا سيما ان التعليم يمنح
ابناء البلاد فرصة الالتحاق بالوظيفة العمومية بالاضافة الى هذا
كانت الرأسمالية الاستعمارية تنظر الى التعليم كوسيلة لتكوين
وسطاء بين المستعمرين والمستعمرين واعوان في خدمتها
كما تنظر اليه كعامل للتنمية الاقتصادية اذ يقول "الفريد مارشال" (2)
"ان التعليم ميدان استثماري ضخم يمثل افضل انواع الاستثمارات
على الاطلاق وان له عائدا يفوق كثيرا عائد كثير من العمليات
الاقتصادية على المدى الطويل".

لقد بينت التجربة ان مستوى بسيطا من التعليم يؤدي الى زيادة
كبيرة في انتاجية العامل وقد أكد "السفياتي . ستروميلين"

---

(1) من قصيد حافظ ابراهيم "العربية تندب حظها بين اهلها".

(2) الفريد مارشال: مبادئ الاقتصاديات "لندن، 1930، ص ص 787/788.

ان اربع سنوات من التعليم يمكن ان تزيد في فاعلية عمل إنساني بنسبة لا تقل 44٪ (1).

في حين يرى الصحافي " تريدون" Tridon ان التعليم يوفر للعمومين والصناعات الفرنسية يدا عاملة جيدة(2).

اما في اطار المد الوطني يشكل التعليم محور الاهتمامات السياسية والجماهيرية لعدة اسباب من بينها الاعتبارات التي كانت ترى من خلالها الحركة الوطنية ان الاستعمار الفرنسي هو خطر ثقافي ديني يهدد الهوية الوطنية ووحدتها وكذلك لكون التعليم يشكل وسيلة لتحسين الوضعية الطبقية بما انه اداة للارتقاء الاجتماعي ومزود للدولة بما تحتاج من الاطر لذا انتشرت المدارس العمومية والخاصة بمعنى التي تمولها الدولة والاخرى التي يمولها الاهالي خاصة البرجوازية المحلية وهي المدارس القرآنية "العصرية" اما المدارس العمومية فتتنوع الى مدارس فرنسية واخرى فرنكو عربية وتكاثرت بتفاعل الاستعمار في الجهات والمدن والقرى التونسية اينما يتواجد السكان الاروبيون ولكن دون ان تكون حكرا عليهم وقد بلغ عدد هذه المدارس سنة 1930 : 470 مدرسة خصص لها مبلغ 59.714.958 فرنك وتضم 64.025 تلميذا او اخر 1929 منهم 31.030 من المسلمين (3). الا ان عدد هذه المدارس تكاثر بعد الحرب العالمية الثانية بحيث اقيمت المدارس الابتدائية حتى بالقرى الجبلية اذا حدثت مثلا مدرسة بني خداش سنة 48 واخرى في رمادة سنة 1952 والبئر الاحمر سنة 1954 (4) كما ارتفع عدد التلاميذ كما بينه هذا الجدول .

---

(1) فادة قصيب البان : التعليم مشروع اقتصادي ، المستقبل العربي ، مركز الدراسات الوحدة العربية - لبنان - عدد 146 / افريل 1991 ص ص 61 و 82.

2) Daniel Goldstein, Op.Cit; P: 31. المصدر سابق :

3) ... l'Oeuvre Scolaire de la France en Tunisie (1883-1930), Direction Generale de l'Instraction Publique et des Beaux-arts, Bourg, Imp. Victor Berthod, 1931, P: 26

4) Louis (A), La Tunisie du Sud: Ksars et Villages de Crêtes, C.N.R.S Paris, 1975.

	الفرنسيون	المسلمون	
		المسلمون	اليهود
1897	2.683	4.656	/
1913	9.072	12.197	8.296
1938	21.890	45.462	11.935
1947	21.081	63.000	12.403

لقد انطلقت المدارس العصرية في تدريس العلوم الصحيحة واللغات الاجنبية وهي بذلك تعكس التوجه العلماني للبرجوازية الغربية الذي نجحت منذ عصر النهضة والتنوير في فصل الدين عن السياسة والتشريع والتعليم وجعلت الدين شأنا خاصا بين الفرد وربه داعية الى مبدأ " حرية المعتقد ".

لم تمس السلط الاستعمارية الى اقصاء نظام ونمط التعليم التونسي الذي كان سائدا قبل حلول الاستعمار فتواصل التعليم في الكتاتيب والزوايا ... كما واصل جامع الزيتونة الذي تأسس منذ 734 م يعطي دروسا في العلوم العصرية (التفسير - الحديث المنطق - الفقه - تاريخ التشريع) والعلوم العربية (النحو البلاغة - العروض - الاداب) وبمقتضى قانون الاصلاح التعليم بالجامع لسنة 1933 ادخلت العلوم العصرية (التربية وعلم النفس - الحساب التاريخ والجغرافيا - الحساب - خصائص الاشياء (علوم طبيعية كيمياء) الهيئة والميقات (1).

ظل بعد بعض الامصار من " الجامع الاعظم " بقيت مدرسة الصادقية التي تأسست منذ 1875 تدرس العلوم الصحيحة واللغات الاجنبية كان التعليم الابتدائي في هذه المؤسسات " القرآنية " بمقابل بسيط عينا او نقدا يدفع الى المؤدب (جديا - قمحا - أو حتى دجاج أو بيضا) اما التعليم الثانوي او العالي في جامع الزيتونة

(1) د: علي الزيدي :الوضع العام بالتعليم الزيتوني حتى اصلاح سنة 1895 المجلة التاريخية المغربية السنة الحادية عشر العدد 33/34 جوان 84 تونس ص 71/109.

او الصادقية فهو مجانا او بمقابل زهيد اذا كانت هذه النفقات تأتي من اموال "الاوقاف" ويظهر ان جمعية اعانة الضعفاء من تلاميذ الجامع الاعظم وفروعه التي تأسست سنة 1932 كانت تساهم في مد الاعانة للضعفاء من التلاميذ من حديث المأكل والملبس والسكنى والحالة الصحية (1).

ومع ذلك لم يعم التعليم كل ابناء التونسيين اذ بقيت نسبة التعليمية (scolarité) في صفوفهم منخفضة رغم ما حققته من تحسن ما بين 1930 و 1951 اذ كانت هذه النسبة سنة 1930 تقدر 6,66 % مقارنة بمجموع الذين هم في سن التدريس (375.000)(2). في حين اصبحت هذه النسبة سنة 1951 تتراوح بين 10 و 12 % بينما بلغت نسبة التعليم في صفوف الاطفال الفرنسيين بتونس (ما بين 5 و 14 عاما 94 %)(3). ويمكن ان نفسر هذه النسبة التعليمية المنخفضة في صفوف ابناء التونسيين بعدة نقاط :

- عدم اجبارية التعليم رغم المطالبة بذلك منذ مطلع القرن العشرين مع حركة الشباب التونسي . . . فلابد من اصلاح جذري التعليم ويحق لفرنسا ان تقوم بعمل يلائم تقاليدها وروحها الديمقراطية فتقرر التعليم الابتدائي الاجباري والمجاني في كامل انحاء الايالة وبالاضافة الى ذلك يجب على حكومة الحماية ان تيسر للسكان الاصليين الدخول للتعليم العالي(4).

- تدهور الظروف المادية للشعب التونسي كان عائقا امام ارسال الاطفال الى المدارس رغم انخفاض التكلفة نسبيا وذلك لان العائلة بحاجة الى سواعد لاطعامها بحيث ينظر الى الابن كاداة انتاج فالمثل العامي يقول "عندك المال والا مخاطفه "(5). ولذا يزج بالاطفال الى العمل منذ سن

---

1) المصدر نفسه : ص 93 .

2) مصدر سابق : Mahjoubi(A):Les Origines. P: 614.

3) = = : Ben Hamida(A):Les Syndicalisme. P: 61.

4) علي باش حامبة : الافتتاحية للعدد الأول لجريدة التونسي، 1907/217

بصورة ان تحصلوا في احسن الظروف على ابجديات اللغة العربية وحفظوا بعض الصور من القرآن تسمح لهم بأداء فرائضهم الاسلامية وتعرفوا على بديهيات الحساب حتى يستعينوا بها في تعاملاتهم اليومية .

ورفض اغلبية الاهالي الاستعمار وكل ما يمت له بصلة عملا بالقاعدة لا ياتي من الغرب ما يفرح القلب " (1) فمن الغرب كان وحش الجزائر يهاجمون البلاد وينهبون ويسلبون ، ومن الغرب جاء الغزاة الفرنسيون واجتاحوا البلاد وسيطروا على خيراتها ومن الغرب تهب رياح السموم " الشهيلي "فتحرق الزرع وتهلك الماشية ، ومن الغرب يزحف الجراد القادم من الصحراء فيأتي على الاخضر واليابس .

وارتباط السياسة التعليمية بالاختيارات والتوجيهات السياسية في التونسول لهذا سعت السلط الاستعمارية الى تشجيع التعليم "العصري " في حين اوصدت ابواب امام خرجي المؤسسات التونسية "الدينية" اذ لم يسمح لخرجي الزيتونة بالمشاركة في المناظرات التي من شأنها ان تفتح لهم ابواب الوظائف الادارية . ولذلك ظل الزيتونيون يشعرون بالغبن والميز الذين لا مبرر لهما سوى انتمائهم القومي وثقافتهم العربية الاسلامية (2). وهذا قد يفسر تعاطف الزيتونيين مع الحركة اليوسفية التي رفعت شعار القومية والثقافة العربية الاسلامية .

ومن الملاحظ ان اهتمام السلط الفرنسية بالتعليم كان لغاية توفير يد عاملة صالحة لخدمة مصالحها الاقتصادية ترضى بأجور زهيدة وليس لتوفير الاطارات العليا الفنية والتقنية أو القدرات الكفأة للنهوض بالمجتمع التونسي فكان الانتقاء التعليمي

---

(1) مثل عامي متداول لدى سكان الجنوب التونسي .

(2) مصدر سابق : علي الزيدي " الوضع العام بالتعليم الزيتوني ... ص.ص 108-109 .

توجيه ابناء التونسيين نحو الشعب المهنية والادبية وقلة نادرة منهم نحو اختصاصات علمية وتقنية وهذا ما خلق نقصا في الاطارات العليا التونسية .

فمثلا في سنة 1951 توجد 5 مهندسين تونسيين فقط مقابل 423 مهندس فرنسي بتونس (1) وجعل البلاد مرتبطة بالمتربول في ميدان التقنية والعلوم .

مع ذلك ساهم التعليم في ادراك التناقضات بين مالكيه الثقافة الغربية من ديمقراطية وتسامح ومبادئ الثورة الفرنسية وما تمارسه السلط الاستعمارية والمعمرون من اضطهاد وميز وتعسف وهذا ما ادى الى يقظة الشعور الوطني والتحصن بالهوية العربية الاسلامية في مواجهة الآخر .

ونظرا لأهمية التعليم كما رأينا سيكون قطاع التربية واللغة محل تضارب وجهات النظر بين المتفاوضين التونسيين والفرنسيين ابان مفاوضات الحكم الذاتي كما سيكون نوع التعليم عصري او تقليدي وراء بعض المواقف والاختيارات الحاسمة في الصراع اليوسفي البورقيبي

* استخدام التقدم التقني والعلمي :

يعتبر منتصف القرن العشرين طفرة التقدم العلمي والتقني وأوج استخدام التكنولوجية المتطورة في العالم المتقدم اذ غرضت الآلة الانسان واكتسحت المكننة مختلف فروع النشاط الانساني واقصرت المسافات بفضل ثورة المواصلات - وادى ذلك الى توفير الوقت وربح المال والضغط على التكاليف . . .

والاستغلال افضل لخيرات البلاد المستعمرة حلت الرأسمالية الاستعمارية " الثورة التكنولوجية " الى المستعمرات وظهرت نتائجها تعزيز فلاحة احتكارية وصناعة تحويلية خفيفة عمقت الارتباط بين المحيط والمركز .

---

1) المصدر سابق :

2)Ben Hamida (A):Le Symdicalisme. P: 62

- فلاحة احتكارية :

بعد ان استحوذ الفرنسيون على اخصب الاراضي التونسية الصالحة للزراعة بنسبة 774.000 (1). يوجد معظمها بالشمال والوسط والساحل (2). اما في الجنوب فقد تمركز المعمرون بالمناطق الساحلية خاصة بسهلي الاعراض وجفارة حيث تتمتع الجهة ببعض التساقطات (200 - 250 مم) السنة) واين تتوفر تربة ملائمة للغراسات خاصة غراسة الاشجار المثمرة ومنها الزيتون وقد كان في جرجيس وحدها قبيل الاستعمار (1.135.000 شجرة زيتون) وقد غرست هذه الاشجار على النمط الصفاقسي في صفوف متوازية تفصل بينها مسافة محددة وعهدت بالحرث الخفيف والدائم لامتصاص اكثر ما يمكن من التساقطات ومقاومة الاعشاب الطفيلية التي قد تنافس الشجرة في كمية الماء بالاضافة الى استعمال وسائل وطرق عصرية من مكننة وآلات فلاحية كالآلات الزراعة الحاصدة والطائرة لرش الأسمدة والادوية ومطاردة الاعشاب الطفيلية وقد انجز عن ذلك ظهور الاختصاص في انتاج واحد وفق المعطيات الطبيعية للمناطق فكانت سهول مجردة للزراعات الكبرى اما الشمال الشرقي فللكروم والاشجار المثمرة خاصة القوارص في حين اختص الساحل وجرجيس بغراسة الزياتين وهذا ما يفسر كثرة المعاصر بهما فمثلا توجد في جرجيس سنة 1955، 33 معصرة عصرية و 8 معاصر تقليدية (3). وهو ما ساهم في ارتفاع حصة الاروبيين من انتاج الزيت رغم انهم لا يملكون سوى 1974.000 شجرة من جملة 16.128.000 شجرة كانت بالبلاد (4).

1)Poncet(J):La Colonisation et l'Agriculture europeenne en Tunisie Depuis 1881, Etude de Geographie,Historique et économique,Thése de Lettres,Paris 1958,Imp.Nationale;1961;P: 327.

2)Mzabi(H):La Tunisie de Sud-Est,2eme Serie.Geographie Vol.30, Faculté des Ciences Humaines et Sociales Tunis 1993,P: 210. (2)

3)Mzabi (H):La Tunisie de Sud-Est,Op;Cit, P: 210. (3)

4)Sebag (P):La Tunisie;Essai de M onographie,Edition Sociales; (4)

وهكذا تواجد بتونس قطاع فلاحي استعماري يقوم على انتاج ثلاث منتوجات اساسية :الحبوب ـ الكروم ـ الزيت (1). وهي مواد تحتاجها السوق العالمية لهذا عملت الادارة الاستعمارية على تدعيمها فقد خصصت الشركة التونسية للقروض (S.T.P.) * في خريف 1954 : 967 مليون فرنك لبذر 366. 223 قنطار من الحبوب (2). في حين حالت دون تطوير منتوجات اخرى خاصة منتوجات صناعية كالحنة والتبغ والحرير وقد اخضع التبغ للمراقبة في حين اخضع الحرير لإجراءات جمركية تساعد على توريد بضائع فرنسية (3). ولتوفير الانتاج وتفاقم الارباح الغى المعمرون العمل بنظام راحة الارض (Jachère) لسنة او لسنتين واصبحت الارض تجبر على الانتاج طول السنة ومرتين او ثلاثة بفضل استعمال الاسمدة الكيمائية والعمل المأجور . وقد اعطى قوار فيفري 1950 حرية اكبر لهؤلاء حتى يحتزوا قوة العمل التونسية بمنحهم حرية تعيين العمال الفلاحين وتحديد ظروف العمل وفق اتفاق الطرفين (4).

وهذا من شأنه ان يدخل علاقات انتاج رأسمالية لكن دون القضاء على اشكال وعلاقات الانتاج القديمة التي وظفها المعمرون لخدمتهم كالمغارسة والمساقاة ... ومع ذلك احدث التغلغل الاستعماري في الارياف التونسية تحولات اجتماعية نتجت البنى القبلية وساهمت في تفكيك المجال بين الريف والمدينة ومع ان بعض الفلاحين التونسيين قد استفادوا من اتباع خطوط التعصير المرسومة من طرف الرأسمالية الاستعمارية الا ان اغلبية الاهالي قد تضرروا من ذلك اذ حالت هيمنة

---

1) المصدر سابق : 1)Mahjoub Azzam:Industrie et Accumulation.S.T.P: Societés Tunisiennes de Prévoyance.

2)Bulletin économique et Sociale de la Tunisie,Mars 1955,Chronique du mois deFevrier1955;La Vie économique et Financiere,p16

3) المصدر سابق 3)Poncet (J) La Colonisation.---

4) المصدر سابق : 4)Ben Hamid (A),Le Syndicalisme...Op,Cit. P: 35.

الاروبيين على اراضي التل والظاهرية (1). د. ون ولوج بطعان الماشية في الاراضي المستغلة بصفة مكثفة. بما ادت المكننة الى تقلص طلب اليد العاملة الفلاحية بما دفعها الى النزوح نحو العاصمة والمدن الكبرى او نحو المناطق المنجمية ، بينما ادى تصدير المنتوجات الفلاحية خارج البلاد الى قطع مسالك المبادلات التقليدية المتكاملة بين مختلف الجهات : فالحبوب كانت تاتي من التل والزيوت من الساحل والتمر من الجريد والصوف والجلد والحليب من الوسط والجنوب . لكن هذا التكامل افسدته المراقبة الاستعمارية للانتاج التونسي الذي حولته الى خارج البلاد عبر شبكة مواصلات تشد تربط مواطن الانتاج بموانئ التصدير . هذه الموانئ التي تحولت الى موانئ تورد للآلات الفلاحية وقطع الغيار والاسمدة الكميائية التي تحتاجها الفلاحة الكلونيالية .

- صناعة تحويلية في خدمة "المتروبول" :

تحالف العلم والتقنية من اجل اتقان افضل لانتاج المصنوعات بخفض اسعار كلفتها بزيادة انتاج العمال والمكننة الذاتية تزادت حاجة المصانع الى المواد الاولية ومصادر الطاقة في حين انخفضت حاجتها من اليد العاملة وفي نطاق تقسيم العمل بين المركز والمحيط ركزت السلط الاستعمارية بتونس سياسة اقتصادية استعمارية تهدف الى ربط المستعمرة بالمتروبول عبر تكثيف تصدير خيرات البلاد الفلاحية والمنجمية وقد انجر عن هذه السياسة .

---

1) لقد استحوذ ألفا معمر على 98 الف هكتار شرق الظهرية التونسية على حساب اراضي الوقف فيها بين 1930/1920 . حسب ما ذكره

1)Charke (J.M):le Probléme du nomadisme Estival vers le Nord de la Tunisie,Bulletin des geographies Français,Paris, 1952, P 134- ..

احداث بعض الصناعات الخفيفة القائمة اما على تحويل المنتوجات الفلاحية كالزيتون والكروم والحبوب او على استخراج المواد الاولية مثل الفسفاط والرصاص والزنك والفاطع وتصديرها خاما او نصف مصنعة الى المتروبول لتحويل صناعتها الثقيلة بالمواد الاولية وبعد ذلك يعاد تصديرها الى المستعمرات في شكل مواد مصنعة لمواد تجهيز او استهلاك وقد شجعت الادارة الاستعمارية رؤوس الاموال الفرنسية على الاستثمار في ميدان الصناعات التحويلية وذلك بتوفير كل الوسائل لتسهيل اقامة صناعة استخراجية سواء عبر القوانين والتشريعات او عبر اعداد التجهيزات الاساسية وتشجيع الشركات الاستعمارية بالمنح والاعفاءات .

ففي اواخر القرن التاسع عشر بعد اكتشاف الفسفاط بجهة قفصة عمدت السلط الاستعمارية الى افكاك 30.000 هكتار باسم حقوق الدولة لفائدة شركة فسفاط قفصة التي تأسست سنة 1897 برأس مال يقدر 18 مليون فرنك فقط لاستغلال منطقة فسفاطية بمساحة 500 كلم (1). توجد جنوب غرب قفصة وارتبطت بمدينة ومناء صفاقس عبر خط حديدي بواسطة الخزينة التونسية . واحتكرت شركة صفاقس قفصة 3/4 الانتاج المنجمي بتونس و 1/5 الانتاج العالمي (2) ولهذا تعتبر تونس بلد الفسفاط بامتياز(3). وقد شهدت عدة قطاعات صناعية اخرى سواء التي ارتبطت بالفلاحة كصناعة الصابون والعجين او تصدير المواد الغذائية والمناجم والحديد والرصاص والزنك

---

1) نور الدين : د وقي : دراسة مونوغرافية لمؤسسة استثمارات كبرى : شركة الفسفاط والسكك الحديدية بقفصة (1897/1930) اطروحة دكتوراه دولة 29 جوان 1991 كلية العلوم الانسانية بتونس تحتوي الاطروحة على 605 صفحة وهي غير منشورة .

2) Mahjoub Azzam: l'Industrie...Op,Cit.P: 186

3) مصدر سابق :

4) نفس المصدر : ص 131 .

والحاجر والمقاطع .. نموا هاما منذ الحرب العالمية الثانية وحتى من قبلها وذلك لتوفير حاجيات الاقتصاد الفرنسي المتضرر من الحرب والازمات الاقتصادية فكشفت الشركات الاستعمارية استغلا لها للمناجم بفضل يد عاملة غير مختصة وليس لها تقاليد صناعية (1) تقبل العمل في ظروف صعبة وباجور زهيدة تقارب 40 فرنك الساعة سنة 1950 (2). بذلك تحقق اقصى ما يمكن من الارباح بأقل ما يمكن من الاستثمارات ومن الملاحظ ان الانتاج المنجمي قد ارتفع ما بين 1947 و 1953 من 1.597.000 الى 2.630.000 طن كما زادت مدة العمل من 272 يوما سنة 1938 الى 305 يوما سنة 1953 (3).

ذلك
رغم تبقى نسبة مساهمة الصناعة في التشغيل العام لسنة 1956 لا تتجاوز 8،4 ٪ امام الفلاحة التي تشغل 73،1 ٪ اذ كانت الصناعة سنة 1953 لا تشغل الا 12 ٪ من جملة السكان العاملين اي 11،800 عامل من جملة 994،000 عامل (4).

كما ان ارتباط الانتاج المنجمي بالسوق الرأسمالية العالمية الفائدة رأس مال اجنبي حال دون تراكم رأسمالي وطني قادرا على تحقيق ذاته خارج دائرة الامبريالية وهذا قد يحسر البرجوازية المحلية الى نفوذ الحركة الاصلاحية بتونس الى "الحكم الذاتي" وضعة مواقفها من الاستقلال التام والقطع مع اشكال التبعية .

---

(1) المصدر سابق : نور الدين الدوقي : دراسة مونوغرافية .

2)Ben Hamida(A),Le Syndicalisme...Op,Cit,P: 37 : المصدر سابق

(3) المصدر سابق : عزام محجوب : الصناعة وتراكم رأس المال .

(4) نفس المصدر .

2)- نمط انتاج محلي (معاشي في مواجهة النمط الرأسمالي).

لا اريد ان اتوقف كثيرا عند هذا النمط الذي تطرقت اليه سابقا ولكن سألفت الانتباه الى بعض تغييرات التي طرأت عليه بمفعول أحتكاكه بالنمط الرأسمالي .

اذ رغم توسع نمط الانتاج الرأسمالي وانتشار العمل المأجور بالمدينة والريف واستفحال حركة النزوح في صفوف الفلاحين المفقرين والتحاق افواج من الشباب بسوق البطالة فقد بقيت مظاهر نمط الانتاج التقليدي المحلي قائمة وعلى قيد الحياة وهذه رغبة من فرنسا في تعزيز الهياكل الاقتصادية ما قبل الرأسمالية واعادة انتاج "التخلف" باعتباره شرطا ضروريا لاستمرار سيطرتها على تونس(1).

أ- في الفلاحة : لقد سيطر المعمرون على اخصب الاراضي التونسية ولم تسلم منهم حتى اراضي الجنوب المعروفة بقلة خصوبتها ونفاذية تربتها واقاموا الضيعات الكبيرة واستخدموا الآت عصرية واعتمدوا طرق استغلال حديثة ، كما استفادوا من الطرق المحلية كاستعمال الخماسة والشركة والمغارسة . . .

في الطرف المقابل (اي تونسيون) فقد حاول البعض من كانت تتوفر له الاموال والاراضي ان يطور وسائل انتاجه اما الاغلبية وخاصة بالجنوب فقد حافظت على طرق واساليب انتاج عتيق تحدد الزمن وتناقلتها الاجيال مما جعل مردود الارض ضئيلا وغير كاف دون ان ننسى ان هذه الارض عرضة الى التفتت والانقسام على الورثة الذين قد يفرطون فيها بالرهن او البيع حتى ان الاراضي الجماعية تحول قسم منها الى املاك خاصة بدعوى الحيازة كما كان جزء منها عرضة الى الاقتطاع بمفعول اسلوب المغارسة وهي عقد بين طرفين

1) الهادي التيمومي : نقابات الاعراف التونسيين (1932 / 1955) ، دار محمد علي - صفاقس تونس 1989 / الطبعة الاولى ص 146 .

يقدم الاول الارض والثاني وهو المغارسي يقوم بالعمل وغراسة الاشجار وذلك بمقابل نسبة متفق عليها من الارض والاشجار عادة ما تكون النصف ويشترط على على المغارسي عدم التصرف في نصيبه قبل المدة المعلومة (10 او 12 عاما) كما يشترط ان تكون المزروعات من نوع الاشجار المثمرة التي تطول مدة بقاءها كالزيتون والتين واللوز والبرتقال والنخيل . . .وكثيرا ما استفاد المعدمون من هذه الطريقة اذ تحصلوا على اراضي جاهزة للانتاج بعد مدة زمنية بذل خلالها المغارسي جهده حتى تنموا الاشجار وتثمر . ورغم محاولة السلط الاستعمارية تفكيك اراضي الحبس والاراضي الجماعية بمفعول قرار 1935 الا ان نسبة كبيرة من الاراضي التونسية بقيت خاضعة الى هذا النوع من العقارات اذ بقيت اراضي العروش تغطي في الخمسينات قرابة 3.000.000 هكتار ،في حين كانت مساحة الاحباس العامة والخاصة والمشتركة تساوي في الخمسينات قرابة 1450.000 هكتار (1) .

وفي نطاق مخططها الرامي الى تشجيع البدو على الاستقرار حاولت السلط الاستعمارية تفجير المياه بالجنوب التونسي بحفر آبار ارتوازية مثلا في جهة المرازيق بعثت 18 بئرا ما بين 1941 و 1953 وفي نفزاوة 47 بئرا (2). وتوفر المياه من العيون والابار امتدت الزراعات السقوية من خضر وعلف واشجار مثمرة خاصة غراسة النخيل التي انتشرت بكثرة حول شط الجريد ولا سيما من نوع " الدقلة" الا ان الانتاج كثيرا ما يعاني من التلف نتيجة تعرضه الى التساقطات (امطار - برد -) من قلة التسويق اذ كان انتاج الدقلة يصدر بنسبة 60 % الى الخارج (3) بعد ما كان في القرن 19 يدخل ضمن الحركة المثلثة للمبادلات التجارية الداخلية .

---

(1) مصدر سابق :الهادي التيمومي :نقابات الاعراف. . .ص 121 .
(2) معهد تاريخ الحركة الوطنية (المنار/ تونس) :
(3) حسنة الهمامي : المجتمع التونسي : دراسة اقتصادية اجتماعية نشر /صامد للنشر والتوزيع صفاقس / تونس 1989 / ص 31 .

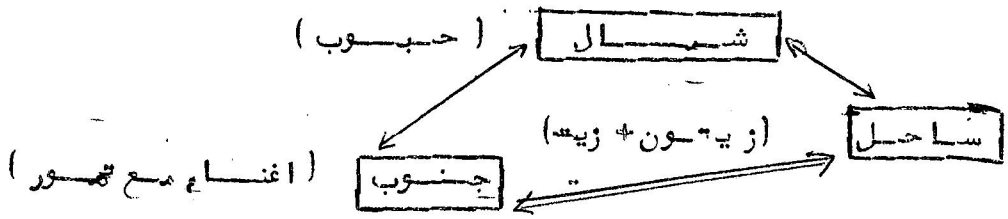

وعموما بقيت الفلاحة التونسية عرضة للتقلبات المناخية تكون الصابة في السنوات الممطرة ويكون الجدب والمصغبة سنوات الجفاف . كما استمر استنزاف الفلاحين عبر الضرائب مثل الاداءات المسلطة على مزارعي البقول والخضر وهي منتوجات كانت تمول السوق الداخلية كما استمرت ضريبة القانون الموظفة على النخيل والزياتين وهي ضريبة كانت محل انتقاد الفرنسيين في القرن التاسع عشر بحيث قال عنها السيد " ادوار بلان "(Edouard Blanc) في تقرير رفعه الى الجمعية الوطنية الفرنسية في 16 افريل 1889 يحث فيه المعمرين الفرنسيين على التمركز في الجنوب التونسي لرفع مظاهر التخلف والظلم عن هذه الجهة التي كانت ترزح تحت وطأة ضريبة القانون : ان هذه الضريبة لا تمس الانتاج الذي يخضع لضريبة "المكس" وانما تمس اداة الانتاج وهي النخلة والزيتونه وهي لذلك تكون معرقلة لنمو الانتاج الفلاحي اذ كثيرا ما يضطر الفلاح الى قطع الاشجار تهربا من هذه الضريبة المجحفة التي يزداد حملها كلما ازدادت سيقان الاشجار وهذا سبب من الاسباب التي ادت الى خراب واحة حامة الجريد مثلا (1).

ب - الصناعة :

لقد سيطر الاجانب على هذا الميدان سيطرة كاملة مع التركيز على الصناعات الاستخراجية المنجمية الى جانب الصناعات التحويلية الخفيفة في حين كانت الصناعات الثقيلة تكاد تكون منعدمة .

والى جانب الصناعات الاستعمارية المتطورة ظهرت صناعات تونسية بعثها رأسماليون تونسيون خاصة ابان الحرب

---

1) مكتبة معهد اللغات الشرقية بباريس : CC VIII 77 ;

1)Edward-Blanc: L e Sud de la Tunisie;Renseignement Agricole, économique et Commerciaux.

العالمية الثانية الا ان اغلى الصناعات العصرية التي استطاع التونسيون تركيزها زمن الحرب تفتقر الى المقومات التي تمكنها من الصمود زمن السلم امام الصناعات الفرنسية (1). وذلك لانها نيل للرأسمالي الاحتكاري الفرنسي وغير قادرة على مزاحمته ، علاوة على ان هذه الصناعات تنحصر في بعض القطاعات الثانوية فمثلا سنة 1950 توجد 12 مؤسسة تونسية تشغل 50 أجيرا مقابل 89 اجنبية وهي موزعة على النحو التالي صناعات غذائية ؛ 9 ، نسيج 1 ، جلد 1 ، ورق 1 ، 3 والى جانب هذه الصناعات العصرية ورغم منافسة البضائع الاجنبية صمدت الصناعة الحرفية التي كانت تشغل في 1955 ما بين 20 و 25 الف حرفيا (2) كثيرا ما كانوا يعيشون الفقر والخصاصة في دكاكين ضيقة اظفت في اسواق المدن او تناثرت في القرى والارياف كما كانت المرأة خاصة في الجنوب التونسي تصنع حاجياتها من اللباس والاغطية وخيام في بيتها مستوحاة من مصادرة حضارية مختلفة تتالت على الجنوب التونسي (بربرية - افريقية - شرقية - ومتوسطية (3) مما جعل كل جهة منه معروفة برموز متميزة كالمرقوم الوذرفي او القفصي او الحولي الجريدي وهو من الحرير الخالص (4).

ومع ان الجنوب التونسي كان يعيش في اقتصاد شبه منغلق فقد بدأت الصناعات الحرفية تتضرر خاصة تلك التي كانت تعتمد على مواد اولية مستوردة كصناعات الحرير بالجريد نتيجة الضغوطات الجمركية من ناحية وتلاشي بقايا التجارة الصحراوية من جهة اخرى .

---

1) مصدر سابق : الهادي التيمومي : نقابات الأعراف .. ص 192
2) مصدر سابق : حمه الهمامي : المجتمع التونسي : ص 33
3) مصدر سابق : 3)Mzabi (H):La Tunisie du Sud-Est...P: 295.
4) مصدر سابق : تقرير السيد ادوار بلان : " Edward-Blanc"

ج - التجـــــارة :

لقد تحولت تونس الى سوق واسعة امام البضائع الاجنبية الفرنسية وسيطر التجار الاجانب على التجارة الخارجية وحاول بعض اعيان المدن اتباع خطواتهم ولكن دون تحقيق الاستقلال بهم اما التجارة الداخلية فكانت بيد التجار التونسيين بنسبة 3/4 بحيث يبلغ عددهم في سنة 1955 ما بين 35و37 الف تونسيا يوجد معظمهم ضمن فيئة التجار الصغار (1) لما عملت السلط الاستعمارية على تكسير النسق القديم المبادلات الداخلية بتوجيه المنتوجات الفلاحية نحو اسواق المتروبول كما قضت نهائيا على بقايا التجارة الصحراوية بحيث تضررت قبيلة ورغمة التي كانت تفرض الاداء على القوافل التي تجتاز اراضيها (2) مثلما تضررت منطقة الجريد التي كانت محطة رحال هذه التجارة في اتجاه الاراضي الجزائرية ربما هذا ما يفسر بعض السلوكيات المناهضة للاستعمار بالجهة رغم حالة الحصار في ظل الحكم العسكري المفروض عليها طيلة الفترة الاستعمارية ويمكننا ان نلاحظ بوضوح ان اولى مهام السياسة الاستعمارية كانت تدمير قوى الانتاج المحلية المتوازية تقليديا وتحويل علاقات الانتاج في اتجاه محطم لقوى الانتاج فالارض تحولت من انتاج الغذاء الضروري للسكان المحليين الى انتاج الخامات الزراعية المطلوبة من قبل الاقتصاد المسيطر واصبح الاقتصاد المحلي مجرد مستهلك للسلع الاستعمارية وبذلك انفك الارتباط المتبادل بين الزراعة والحرفة وكانت التجارة قد انفكت على كليهما لتلعب دور الوسيط بين الخارج والداخل واصبح رأس المال الخارجي والربائي اهم وسيلة لتعبئة النهب الداخلي لصالح الخارج ..

---

(1) مصدر سابق : حدّة الهامي : المجتمع التونسي . . ص 34

(2) ملتقى مصباح الحروب للمقاومة الشعبية لمدنين ايام 14 و 15 و 16 مارس 1936
محمد العبادي العوني : منصور الهوش ومقاومته للحماية .

هكذا نستنتج ان الحصيلة الاقتصادية للتواجد الفرنسي على التراب التونسي لمدة 3/4 القرن قد افرز ارتباط الاقتصاد التونسي بالامبريالية العالمية القائمة على نظام رأسمالي تعزز بعد الحرب العالمية الثانية بفضل اعادة بناء اقتصادياتها اوربا على اسس غير التي انبنى عليها اقتصادها اثر الحرب العالمية الاولى من حيث التكنولوجية المتقدمة ونسق الانتاج المتطور الذي يحتم اشكالا جديدة للتقسيم العالمي للعمل وهذا ما خلق علاقة " عرجاء " بين البترول والمستعمرات التي لم تتخلص بعد من انماطها الاقتصادية القديمة فأصبحت تعرف ضربات النمط الاستعماري الاستغلالي ومتاعب نمطها التقليدي فارتفعت اصوات شعوبها مطالبة بحل لقضاياها .

ب/ التحولات الاجتماعية :

ان الاحتكاك بين نمط انتاج متقدم تقنيا مع محيط اجتماعي اقتصادي منغلق على ذاته ادخل بعض التغييرات فرضتها العلاقات الجديدة المستحدثة التي حالت دون تراكم رأسمالي تحلي وتمثل هذه التحولات في ثلاث نقاط :

1)- ظهور طبقات اجتماعية جديدة :

المتفوقون : وهم الاجانب يبلغ عددهم حسب احصاء 1946 : 239.600 أوروبيا اي بنسبة 65٪ أي (144.0000) فرنسيا وهو ما يقارب 4،5٪ من مجموع السكان (1). ومع ذلك فهم يسيطرون على خمس الارض الفلاحية الصالحة للزراعة وعلى معظم الانتاج الصناعي وكامل شبكة الطرقات والسكك الحديدية وعلى القسط الاوفر من النشاط التجاري وعلى القطاع البنكي (2). فالعائلة والخمسون الف فرنسي استقروا في تونس وصاروا يحتلون فيها " وضعا يفوق المجالية فهم

---

(1) مصدر سابق : 1)Ben Hamida(A):Le Syndicalisme Tunisian.P: 18.

(2) مصدر سابق : حسن الهامي : المجتمع التونسي ص 35.

اقلية متفرقة تتمتع بحقوق سياسية وهذا واقع قائم الذات وحقيقة من صنع التاريخ " (1). فالفرنسيون بتونس يعتقدون انهم قد حققوا ازدهار البلاد ورقيها بمجهودهم وبفضل تضحيتهم لذلك هم لا يتنازلون قط عن امتيازاتهم ويرون في كل اصلاح خطرا على وجودهم كفئة متميزة من ذلك ما جاء في كلمة "كولونا" في مجلس الجمهورية الفرنسي بتاريخ 31 جانفي 1951 : هذه الاصلاحات ضارة وخطيرة لانها تنهي الحماية عمليا ولانها تضع حدا لنظام السيادة المزدوجة الفرنسية الذي لا يقبل الطعن قانونيا هذه الاصلاحات ضارة وخطيرة لانها في ميدان الوظيفة العمومية على الاخص نحشر الفرنسيين الذين تدين لهم تونس بكل شيء في زمرة الاجانب (2).

- بورجوازية تونسية : وهي وليدة النظام الرأسمالي الاستعماري وهي في معظمها بورجوازية تتعاطى القطاع الفلاحي وقلة منها تتعاطى الصناعة والتجارة والوظيفة العمومية ويمكن ان نقسمها الى قسمين :

* بورجوازية "كبيرة" وهي لم تكن نتيجة طبيعية لتراكم رأسمال محلي في اطار ثورة بورجوازية للاطاحة بالاقطاع ومختلف انماط الانتاج التقليدية والعتيقة واحلال علاقات الانتاج الرأسمالية الجديدة بل جاءت ولادتها في كنف "احضان" رأس المال الغربي ولهذا نجدها عبر تشكلها واستمرارها تتعايش مع "الاقطاع" وتتحالف معه ومن ناحية اخرى تربط برأس المال الاستعماري وتعتمد عليه نظرا لارتباطها العضوي به وكمثال لذلك يمكن ان نستشهد بالطاهر بن عمار (3). وهو من مواليد 1889 بالعاصمة زاول تعلمه بمعهد كارنو ثم تفرغ للفلاحة وقد شغل عدة مناصب سياسية بارزة : فقد تولى رئاسة القسم التونسي "

---

(1) صحيفة لوموند : 15، 16، 17، 18 جويلية 1950 هنري دي منتبنر : تونس في مفترق الطرق ورد بكتاب تاريخ الحركة الوطنية التونسية ص 56.

(2) نفس المصدر : تاريخ الحركة الوطنية : ص 330

(3) مصدر سابق : الهادي التيمومي : نقابات الاعراف : ص ص 56، 57

المجاهر الكبير للبلاد التونسية بين 1943 - 1954 وشغل خطة وزير اول بين 1955 و 1956 وتفيد التقارير السرية الفرنسية انه كان يملك سنة 1920 اربع ضيعات فلاحية تتراوح مساحتها الجملية بين 2091 هكتارا و 2600 هكتارا موزعة على عدة مناطق في الشمال التونسي كما يملك 6500 زيتونة و 2500 رأس غنم في حين كانت قبلية بني زيد جميعها تملك في 1950 / 7600 اغناما و 5400 ماعزا.

وكانت هذه الاقلية من المجتمع التونسي "بفخرة الاستعمار الفرنسي" تستعمل الآلات العصرية والاسمدة الكيميائية التي تجلب من المتربول ولتنتج الا المنتوجات الزراعية المعدة للتصدير الى المتربول خاصة ولهذا سنجدها ضمن القوى المتعاونة مع النظام الاستعماري المباشر الا في اواخر تواجده فقد حاولوا ان يواقف اتسمت بالحذر وعدم الانحياز في بعض الاحيان بالتأييد للحركة الوطنية عند ما ادركوا ان انتصار هذه الحركة اصبح مسألة وقت (1). سعيا منهم الى الحفاظ على مصالحهم في ظل النظام الجديد الذي سيقوم في المستقبل. ومن هنا اصبح بعضهم يقدم براهين الاخلاص لمن يعتبرونهم "اسياد الغد" حتى يتجنبوا تهمة "العملاء" التي تعني لدى "العامة" الخونة وبالتالي وجوب تصفيتهم.

*البرجوازية "الصغيرة": وهي اكثر عددا من البورجوازية التونسية الكبيرة (بين 115 و 135 الف) (2). اذ تشمل الحرفيين الصغار والتجار الصغار والموظفين الصغار والمتوسطين في الادارة العمومية الى جانب اصحاب المهن الحرة: الاطباء - المحامين - الاساتذة - المدرسين وكانت هذه الفئة من المجتمع التونسي تشعر بوطأة الحضور الفرنسي عليها، فالحرفيون والتجار كانوا يعيشون الخصاصة والفقر نظرا لاغراق السوق المحلية بالبضائع "الافرنجية" التي كثيرا ما تلبي الذوق التونسي وباسعار منخفضة عن البضائع المحلية وهذا ما ساهم في كساد بضائعهم وافلاسهم...

(1) نفس المصدر: ص 57

(2) مصدر سابق: حمه الهامي: المجتمع التونسي... ص 36.

يا الموظفون التونسيون وان بدا وضعهم متميزا عن عامة الشعب
ل الاقل يتمتعون بدخل قار ومضمون فهم يعانون الاستغلال
يزعلى صعيد الامتيازات المهنية والارتقاء المهني
لمائدات المالية (1). وليس اصحاب المهن الحرة باحسن حال
هم فرغم ان معظمهم من خريجي الجامعات والمعاهد
لعليا الفرنسية وقد تشبعوا بما درسوا من مبادئ الثورة
لفرنسية وحقوق الانسان والديمقراطية ... الا انهم يعايشون
تناقض النظام الاستعماري الفرنسي بين ما درسوه وعاشوه في
لرنسا وأوروبا فهم في نظر المستعمر من درجة ثانية مع انهم
يعتبرون انفسهم في مكانة ارفع من عامة الشعب وعليهم ان
يروا هذا الشعب لكنهم وجدوا باب المشاركة في الحياة السياسية
موصدا امامهم نتيجة طبيعة حكم البايات الاستبدادي كما ان
باب المساهمة في تسيير شؤون البلاد اداريا غير ممكن
لتنفذ الفرنسيين في المراكز الادارية الهامة واستحواذهم على مصادر
القرار ...

هذا شكل هذه الشريحة "المثقفة" المحرك الاساسي للحركة الوطنية
التونسية" وناوعت الطبقة العاملة على قيادتها رغم تناقض مصالحها
مع الطبقات الشعبية ولكن من اجل تحقيق مصالحها في الوصول الى
السلطة اعتمدت اولا على الطبقات القادرة على الهيمنة (كبار العقاريين
الذامي المضررين من نظام الحماية وطبقة البرجوازية "الكومبرادورية"
الطامحة لنفوذ سياسي واقتصادي اوسع) وثانيا رفعت شعارات سياسية
متعددة : "حكم ذاتي" "نظام ملكي دستوري" "دولة عصرية"
"نظام ديمقراطي" "برلمان تونسي".

*طبقة عاملة تونسية : أدى الانتقال من الملكية الجماعية الى الملكية الخاصة
الى تمركز الملكية في يد اقلية من الملاكين العقاريين الكبار
تحولوا في اغلبهم الى "برجوازية فلاحية" (2) في مقابل تفقير الكثير

---

1) Mahjoubi(A): Les Origines du Mouvement. P.P:587-591.

(1) مصدر سابق :

2) Ben Hamida(A): Le Syndicalisme Tunisie... P: 25.

(2) مصدر سابق :

من العائلات وتحولها الى "بروليتاريا فلاحية" او الى المدن او المناطق الصناعية فهذه الطبقة لا يفرقها عن الطبقة الملاكين لا الاصل ولا الجنس فهي تنحدر من نفس المجموعة اللاتينية تجمعها علاقات العرف واخلاقيات الضمان القبلي ولعل هذا ما يفسر ضعف الوعي الصراع الطبقي داخل هذا المجتمع الجديد الذي يشبه نمايه المستعمر . وقد غذى النمو الديمغرافي بعد الثلاثينات والمعطيات الطبيعية (جفاف + مجاعات بعد الحرب العالمية الثانية الى جانب استمرار سياسة افتكاك الاراضي حركة النزوح نحو المدن والمناطق المنجمية حيث تشكلت البروليتاريا صناعية) كانت اكثر وعيا بفضل احتكاكها بعمال اجانب جاؤوا من بلدان عريقة في النضال النقابي كايطاليا وبلجيكيا وبولونيا وفرنسا لذلك شعرت بتناقض مصالحها مع الرأسمال الاجنبي كما اكتسبت خصوصية وضعها مقارنة مع بقية عمال آخرين لذلك انسلخت من الهياكل النقابية الاستعمارية مكونة من هياكل خاصة مستقلة مثل الاتحاد العام التونسي للشغل .

كما يمكننا ان نحشر في زمرة الطبقة العاملة العاطلين والعمال الموسميين سواء في القطاع الفلاحي او قطاع الخدمات فهم اكثر عرضة للاستغلال ولا يتمتعون بادنى الضمانات الاجتماعية كثيرا ما يكونون عرضة للبطالة كما ينقصهم الوعي لذلك يشكلون كتلة جاهزة للتحريك في كل الاتجاهات فقد وقع استعمالهم من طرف "البورقيبية" مثل ما استخدمتهم "اليوسفية"

2) الاتجاه نحو التبلد والاستقرار :

لكسر شوكة القبائل سعت السلط الاستعمارية الى تشجيع القبائل على الاستقرار عبر المرور من الملكية الجماعية وتحويلها الى ملكية خاصة وتغيير نمط العيش من نمط معاشي مغلق الى نمط زراعي فاستقر الافراد في "البلد" حيث تعددت المنازل المبنية بالحجارة او الطوب

المسكن الدائم للعائلة على حساب الخيمة التي قل استعمالها الا في فترات الانتجاع التي تراجعت امام سيطرة المعمرين على الاراضي الخصبة مواطن القشابة حيث المستقرون يتخلون تدريجيا عن عاداتهم وملابسهم القديمة وينغمسون في عادات جديدة مشجع على الاستهلاك لما بدأت تظهر " الفردية على حساب " التضامن القبلي " وفي الجنوب انبعثت نواتات حضرية كمراكز ادارية وعسكرية واخرى تجارية مثل بنقردان التي احدثت سنة 1905 على بعد 39 كلم من الحدود الليبية .

3) تلاشي البنى القبلية :

من طريق هذا الاستقرار احكمت السلط الاستعمارية مراقبتها الادارية والسياسية فقدت "حكمها الذاتي" فبعد ما كانت القبائل بمثابة " جمهوريات صغيرة " (1). لها فرسانها المكلفون بحمايتها وهي مسؤولة على توفير الغذاء والامن لافرادها الذين يجب عليهم ان يمتثلوا لقوانين القبيلة وعرفها تلك القوانين التي يشرف على تنفيذها اعيان مختارون اصبح هؤلاء "الاعيان" الخليفة والكاهية والشيخ) يعينون من طرف البلاي باقتراح من المراقب المدني او رئيس مكتب الشؤون الاهلية في منطقة التراب العسكري التي تخضع للمقيم العام وقائد قوات الاحتلال مباشرة لما ان لاسباب ادارية او سياسية حشر عدة عائلات مختلفة الاصل والمصلحة تحت اشراف نفس "الشيخ مثلا كان شيخ العزي بالحامية يشرف على شؤون الزمازمة والجماعيين الفياليف (2). واصبح القانون قانونا موحدا صادرا عن السلطة المركزية كما ادى توفر الامن مع انتشار الملكية الخاصة وظهور الاقتصاد النقدي الى ظهور اللحمة القبلية وبروز الانانية الفردية وانتهاء عهد "الغزوات" ومع ذلك تواصلت العلاقة التنافر بين " بدو " و " حضر " .

1)Le Boeuf (Jules):Les Confins de la Tunisie et de la Tripolitaine Berger-Levrault et Compagnie,Editeurs Paris-Nancy. P: 128

2) الاستجواب الحاج حسن الغيلوفي من طرف جمعية البحوث والدراسات التاريخية بقابس في فيفري 1985 .وهو حسن بالحاج محمد الغيلوفي مولود في 1920/12/1 بني غيلوف

واصبحت الخصامات تحل عبر جهاز اداري وليس عن طريق "الميعاد" مثل ما كان في السابق. وبدأت الذاكرة الجماعية تنسى ما حفظته عن الاجيال الماضية من : فروسية وبطولات وامجاد ونسي الناس الاحتفال بالمواسم الدينية وحتى الدين نفسه لم يسلم من التطاول عليه بالسب والثلب من المسلمين انفسهم . وبدأت ملامح الماضي تنمحي من المدن الكبرى تدريجيا فتخلى التونسي عن الجبة والبرنس ونزع الشاشية ليمشي مكشوف الرأس بعد ما لبس الكسوة الافرنجية وترك لغته المحلية التي ادخل عليها الفاظ وكلمات وحتى جمل مطولة من الفرنسية فاصبح يتكلم "فرنكو/عربية" حتى ذقنه تعهده بالحلق فغبت عن وجهه اللحية الكثة وحتى شاربيه انتزعهما وكانا رمزا الرجولة والفحولة .

وهكذا خلق الاستعمار مجتمعا لا جذور له يفتقد الطمأنينة الاقتصادية ويعيش الفقر المقضع في حين يتمتع المعمرون بالنفوذ الاقتصادي والسياسي ويعيشون في احياء خاصة ونظيفة او في ضيعات واسعة تحمل شوارعهم اسماء ابطالهم في بلادهم "الام" يأمون المدارس منذ سن مبكرة يؤهلون المراكز الهامة في الادارة والمجتمع يشبون على نزعة التفوق والتميز لكن الحد الفاصل بين المجتمعين : مجتمع "اهلي" ومجتمع استعماري يقوم على شبكة من الثكنات ومراكز البوليس والجندرمة والشرطة ويستعمل العنف ضد المجتمع الاهلي لكي لا يتحرك ولا يتكلم . اما تجاه المجتمع الاستعماري "صاحب القيم الحضارية" فيعامله بلين ويفتح المجال له ليعبر ويحاجج ويسهر على امنه وراحته .

هذا ما ولد لدى المجتمع التونسي المستعمر مشاعر الرفض الفرنسيين والرغبة في ان يحلوا مكانهم فتحول الصراع من صراع قبلي ، صراع صف ، صراف افراد للتخلص من عقدة الدون الى صراع ضد الاستعمار .

رغم ان الاستعمار قد عمل على تغذية الانقسامية منذ حلوله بتونس فقرب قبائل وابعد أخرى كما قرب " الاعيان " واضطهد الفقراء حتى انه اعاد لبعض الزوايا نشاطها محاولا كسر شوكة القبائل وان نجحت هذه السياسة في عهد البايات فانها في العهد الاستعماري قد فشلت لان الوضعية تحتم تظاهر البلاد من الحضور الاجنبي قبل كل شيء والاستعمار هو العدو المشترك لذا اجتمع المجتمع التونسي غده متناسيا انقساميته التقليدية بل ذهب الى التضامن مع مختلف الشعوب "المستعبدة" في انحاء العالم .

ويمكن ان نفسر ذلك بفشل الاستعمار في تجديد العلاقات وافاقها الايديولوجية نظرا لطبيعته الاستغلالية ومن هنا عمل الاستعمار الفرنسي على ربط صلات مع طبقة الاعيان التي كانت تساند حكومة الباي اذاك ولكن تحت غربال التشريعات الجديدة المستوحاة من طرف الادارة الاستعمارية من انتكاك الاراضي الخصبة وتحويل اراضي العروش الى ملكية خاصة تساوي الاسر الغنية القديمة تدريجيا وتحول النمط العقاري القبلي الى نمط عقاري خاص مع الابقاء على الارض كأداة انتاج ومصدر للثروة وتحول المجتمع الانقسامي المتكافل المتساوي الى مجتمع غير متساو ومرتبا عموديا ومراقبا بجهاز دولة مركزية وبدأت تظهر في المدن والارياف بعض الاسر الجديدة لقيت حظوظها في النظام الاستعماري باستنادها الى قاعدة اقتصادية قائمة على ملكية الارض قتعاطي التجارة وقبل الصناعة قد خلق في تنافر مع النخبة التقليدية " الاعيان " على مراكز النفوذ في الدولة المركزية لذلك تحالف هذه الطبقة الناشئة

مع السلط الاستعمارية (1). في حين ظهر الاضطراب في علاقة "الاعيان" بالدولة المستعمرة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية باعتبارهم يقفون موقفا يتعارض وموقف الاكثرية في البلاد فيظهرون في موقف حرج امام الرأي العام في البلاد المجافي لهم لذلك كثيرا ما لعبوا على الحبلين وتأرجحوا بين الجانبين (المستعمر والمستعمر) في حين دخلت البرجوازية الصغيرة المحرومة والمفقرة في نوع من التحالف مع "البروليناريا" الناشئة والجماهير الشعبية (2). المستعدة للتضحية لتخليص البلاد من الاستعمار وهي مسؤولية الجميع ومهمة كل فرد وهذا ما يجعل "الثوار في مستوى القادة ويجعل الكفاح المسلح يجمع كلمة الشعب ويدفع به في اتجاه واحد ويدخل في ذهنه مفهوم وحدة المصير ووحدة التاريخ وبالتالي الاحساس بالانتماء الى وطن واحد يعيش في خطر ولا بد من تخليصه وفي سنة 1952 انفجرت المقاومة المسلحة كرد فعل على النهب الاستعماري والسياسة التعسفية للسلط الفرنسية بتونس وتصلب موقف فرنسا من قضية "التحرر" واصبح مطروحا على جدول اعمال الحركة الوطنية مسؤولية اعادة النظر في اتفاقية نظام الحماية .

وكان نموذج المجابهة عن طريق الكفاح المسلح بالنسبة لسكان الارياف وعملية التخريب بالنسبة لفقراء المدن والعاطلين والمأجورين والنازحين وحتى بعض الموظفين .

غير ان عناصر من "البرجوازية" لم تكن ترى في الكفاح المسلح الا اسلوبا "غوغائيا" لا يمكن ان يتقدم بالحركة الوطنية الى مرتبة تحقيق الطموحات ومع ذلك أبقت على

---

1) Frej Stambouli: Système Urbain et Developpement prement au Maghreb, Harizon Maghrèbin, Vol IV, Ceres Production Tunis 1980. P.P: 54-66.

2) نفس المصدر .

هذا "السلاح" بمثابة اداة ضغط يمكن الرجوع اليه عندما يتعنت الطرف المقابل لاجباره على قبول اخف الضررين ومع ان هذه النخبة "المثقفة" "الانتليجانسيا" لا ترى الوقت قد حان لطرد المستعمر نهائيا بل ترى وجوب التعايش معه فكانت دعوتها الى "الاصلاح" للتخفيف من وطأة الادارة المباشرة وبذلك يمكن لها لامتصاص غضب الشعب ونقمته على الوضع الاستعماري ،كما يمكن لها ان تركب قيادة الحركة الوطنية على حساب القوى العاملة وان تحكم مراقبة (النظال الوطني) وتشرف عليه اذ قال بورقيبه في خطاب بنزرت يوم 13 جانفي 1952 : "لقد سال الدم بأمر من بورقيبه" وسيستمر سيلانه تحت امره ".(1)

ولكن هذا التوجه الاصلاحي (البرجوازي) لم يكن مقبولا تماما من طرف سكان الارياف والقبائل المعروفة بحدتها وميلها لاسلوب الحركة الوطنية من اجل تهذيب سلوكيات سكان الارياف والبوادي الذين مثلوا شوكة في حلق السلط الاستعمارية منذ انتصابها بالبلاد التونسية .واكسر هذه الشوكة عملت الادارة الاستعمارية على اجبار القبائل على الاستقرار والتبلد طبقا لقانون تونس 1918 و 1935 المتعلقان بالاراضي الجماعية . كما سعت فرض مراقبتها على منطقة التراب العسكري للتحول دون تنقلات القبائل وترحالها بما انها لا تعترف بالحدود وهذه الاجراءات كانت بقصد فرض طوق العزل عليها خاصة بعد فشل انتفاضاتها في حين عمل قادة الحركة الوطنية على التغلل في المناطق الداخلية قصد احتواء سكانها عن طريق "الاتصال المباشر" واقناعهم بتسليم زمام امرهم لقادة الاحزاب السياسية تلك النخبة "المتعلمة" "النيرة" التي استعملتهم كاداة ضغط لكسب "الشرعية" في تمثيل الشعب التونسي امام السلط الفرنسية .

(1) الارشيف الوطني بالوزارة الاولى ، لتقرير السيد Yves Perrussel. بتاريخ 16 فيفري 1952 .

1)C: 54;D 3, P: 72

وتجاوز وجود الباي " الشرعي " لكن دون التغافل عن ضرورة التعامل معه ولا سيما وانه يتمتع بمباركة الاقامة العامة الفرنسية بتونس وبالتالي استخدامه "كسلم" للوصول الى الحكومة الفرنسية واقتناص منها بعض " الاصلاحات " ثم المطالبة بأخرى تحت شعار خذ وطالب واستعمال سياسة الترغيب والترهيب فقد جاء في رسالة بعث بها بورقيبة الى صالح بن يوسف بتاريخ 1950 : " يجب استعمال الترغيب تارة والترهيب تارة اخرى وستظفر بمرغوبك " (1).

وهذا يتماشى والبرنامج الفرنسي في شمال افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية وهو (2).

- الحفاظ على السيادة الفرنسية .
- مشاركة مكيفة وتدريجية للمواطنين في تسيير شؤونهم .
- تحسين ظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وطبقا لهذا التوجه هل سنجد السلط الفرنسية طرفا " متفهما " افضل من قادة الحزب الدستوري الجديد ؟ وهل سيستطيع هذا الحزب ان يوفق بين اماله في الوصول الى السلط السياسية حتى ولو كانت في ظل نظام الحماية وبين طموحات الشعب التونسي في ازالة هذا النظام وتحقيق الاستقلال دون السقوط في شقاق مثلما هزه في منتصف الخمسينات ؟

---

(1) مصدر سابق : تاريخ الحركة الوطنية التونسية ب: ص 133 .

(2) عبد الفتاح الزين : السوسيولوجيا في المغرب : من اعلان الحماية الفرنسية الى المرحلة الراهنة المستقبل العربي عدد : 46 افريل / 1991 - ص ص 121 / 133

بجاوز وجود البلي "الشرعي" لكن دون التغافل عن ضرورة التعامل معه ولا سيما وانه يتمتع بمباركة الاقامة العامة الفرنسية بتونس وبالتالي استخدامه "كسلم" للوصول الى الحكومة الفرنسية واقتناص منها بعض "الاصلاحات" ثم المطالبة بأخرى تحت شعار نفذ وطالب واستعمال سياسة الترغيب والترهيب فقد جاء في رسالة بعث بها بورقيبة الى صالح بن يوسف بتاريخ 1950 : "يجب استعمال الترغيب تارة والترهيب تارة اخرى لنستظفر بمرغوبك" (1).

وهذا يتماشى والبرنامج الفرنسي في شمال افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية وهو (2).

- الحفاظ على السيادة الفرنسية .
- مشاركة مكيفة وتدريجية للمواطنين في تسيير شؤونهم .
- تحسين ظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وطبقا لهذا التوجه هل سنجد السلط الفرنسية طرفا "يتفهم" انبوفق النضال من قيادة الحزب الدستوري الجديد ؟ وهل سيستطيع هذا الحزب بيسن امكانه في الوصول الى السلط السياسية حتى ولو كانت في ظل نظام الحماية وبين طموحات الشعب التونسي في ازالة هذا النظام وتحقيق الاستقلال دون السقوط في شقاق مثلما حدث في منتصف الخمسينات ؟

---

(1) مصدر سابق : تاريخ الحركة الوطنية التونسية ج: م 133 .

(2) عبد الفتاح الزين : السوسيولوجيا في المغرب : من اعلان الحماية الفرنسية الى المرحلة الراهنة المستقبل العربي عدد : 146 افريل 1991 / ص 121 / 133

2. التحام الحركة النقابية بالحركة الوطنية :

فلو انطلقنا من ميثاق " أميناي " للنقابات الصادرة سنة 1906 لعرفنا : " ان الحركة النقابية ترمي من خلال مطالبتنا اليومية الى تنسيق جهود العمال والرفع من مستوى عيشهم بتحقيق تحسنات عاجلة مثل التخفيض من عدد ساعات العمل والترفيع من الاجور.

الا ان هذا الامر لا يمثل الا جانبا من الغاية التي تعمل الحركة النقابية على تحقيقها اذ هي تمهد للانعتاق التام الذي لا يمكن ان يتم الا بانتزاع رأس المال من اصحابه . وتحبذ الاضراب العام كطريقة عمل وتعتبر ان النقابة التي هي اليوم مجموعة نضالية ستصبح في المستقبل مجموعة انتاج وتوزيع ومنطلقا لنظام اجتماعي جديد (1) . ومن هنا يمكن ان نحوصل العمل النقابي في مطالبة دائبة بتحسينات مهنية في نطاق صراع متواصل بين رأس المال وقوى العمل الا ان ما يتميز به العمل النقابي بتونس فيما بعد الحرب العالمية الثانية هو ذلك الخلط العضوي بين العمل النقابي والعمل السياسي والذي ساهم في انجاح تجربة فرحات حشاد في حين احبطت تجربتا محمد علي والقناوي فقد ادرك النقابيون التونسيون ان مهمة العامل التونسي ليست كمهمة العامل الفرنسي أو الاروبي بصفة عامة فهو يعيش استغلال رأس المال مع هيمنة الاستعمار الفرنسي وليحقق الانعتاق الاقتصادي والاجتماعي عليه رفع الهيمنة الاجنبية . وقد عبر عن ذلك فرحات حشاد مؤسس الاتحاد العام التونسي للشغل في العديد من المناسبات بقوله :

1) مؤتمر (س ـ ج ـ ت) بأميانس في 1406 La Charte D'Amiens: Syndical Français.

" انه من العبث المطالبة ببعض التحسينات المتعلقة بالمسائل الاجتماعية عند ما تكون السياسة الحكومية هادفة بالظبط الى عكس ما تتطلبه المصالح الشعبية وذلك بتنفيذ ها لمبادي السيطرة القائمة على قوة السلاح (1).

وقابل الاتحاد العنف بالعنف طبقا لقول الشابي :

لاعدل الا ان تعادلت القوى * وتصادم الارهاب بالارهاب (2)

ولذا كثيرا ما استعمل " الاضراب " ليس لتخريب النظام الراسمالي وانما كأداة ضغط على السلط الفرنسية من اجل مطالب سياسية اذ يعتقد فرحات حشاد ان " النضال من اجل التحرير السياسي ليس الا مظهرا للكفاح من اجل التحرير الاجتماعي (3) هذا على الصعيد الداخلي ما على الصعيد الخارجي فقد ادرك فرحات حشاد ان الاتحاد لا ينجح في عمله الا بمساندة النقابات الامية لذا انخرط الاتحاد في المنظمة النقابية العالمية (F.S.M) في جانفي 1449 وقد تأسست هذه المنظمة النقابية العمالية العالمية اثر مؤتمر باريس في سبتمبر 1945 . الا ان الحرب الباردة التي اندلعت بين القطبين : الاتحاد السفياتي والولايات المتحدة الامريكية عصفت بوحدة المنظمة فدب الخلاف بين مؤيدي " مخطط مارشال " والرافضين له (4) مما ادى الى انسلاخ الاطراف المؤيدة وتكوينها الجامعة العالمية للنقابات الحرة (C.I.S.L) في ديسمبر 1449 .

---

1) عبد السلام بن حميده : الحركة النقابية الوطنية للشغيلة بتونس (1924/1956) دار محمد علي الحامي ـ تونس 1984 الجزء 1 ص 105

2) الديوان : " اغاني الحياة " الدار التونسية للنشر 1970 ص 277.

3) مصدر سابق: عبد السلام بن حميده : الحركة النقابية ... ص 106

4) Azaiez (B.L); Tel Syndicalistes Tels Syndicats... OP,Cit, P: 162.

و سرعان ما انسحب فرحات حشاد من المنظمة النقابية العالمية التي اصبحت منظمة " شيوعية " وانخرط في الجامعة العالمية للنقابات الحرة في سبتمبر 1950 و ذلك نتيجة عدم اقتناع حشاد بالمذهب الشيوعي الذي كان يعتبره لا يدافع الا على الشيوعيين من داخل المنظمة النقابية العالمية وايضا نتيجة ايمانه في ان النضال الوطني يكون على مستوى الشعب بأكمله وليس على مستوى العمال فقط (1) .

و منذ مطلع الخمسينات احتد الصراع بين الاتحاد العام التونسي للشغل والسلط الاستعمارية الفرنسية التي التجأت الى سياسة تعسفية لقمع المد الشعبي و بعثت المنظمات العالمية ببرقيات مساندة للتونسيين (L'IPTT-SPIE) ولربما هذا ماجعل المقيم العام CISL. الفرنسي بتونس "هوتكلوك" يتحرش بفرحات حشاد الذي اصبح المحرك الاساسي للمقاومة داخل البلاد خاصة بعد القاء القبض على القيادة السياسية و يتهمه بانه وراء تحركات افريل 1952 بالولايات المتحدة حول القضية التونسية رغم ان مجلس الامن قد رفض النظر في شكوى تونسية قدمتها الدول العربية الاسوية يوم 14 أفريل 1952 . و يدينه ايضا بأنه" سمح للاجانب بأن يتدخلوا في الشؤون السياسية التي لا تهم سوى فرنسا فقط(2) .

لذا اصبحت حياته مهددة خاصة وانه من الذين نددوا .

1) البشير العربي : الدور الاجتماعي لمثقفي المجتمع التونسي في فترة الاحتلال الفرنسي حتى 1956 شهادة الكفاءة في البحث / كلية الاداب والعلوم الانسانية 1983 جامعة تونس)ص 74 .

2) من تقرير فرحات حشاد لدى الجامعة العالمية للنقابات الحرة بتاريخ 16/7/1952 اورده بوبكر لطيف عزيز . ذكر سابقا / ص 183 .

باعمال اليد " اليد الحمراء" الاجرامية في استئصال الرجال الوطنيين على غرار ما تقوم به والمنظمة العسكرية السرية (O.A.S) بالجزائر وفي صبيحة يوم الجمعة 5 ديسمبر 1952 اغتيل فرحات حشاد في الوقت الذي بدأت فيه الجمعية العامة للامم المتحدة تناقش القضية التونسية من يوم 4 الى 12 ديسمبر52

واستطاع فرحات حشاد ان يقدم لهذه القضية بمقتله ما لم يستطع ان يقدمه في حياته اذ لفت الرأي العام العالمي كله لحقيقة ما يجري في تونس من ظلم وتعسف ومطاردة اصحاب الرأي المخالف الوطني واخرج القضية من كونها مجرد سوء تفاهم داخلي في صلب الامبراطورية الفرنسية (مثلما ترج لذلك فرنسا) الى كونها قضية شعب يتناقض أساسا وسياسة فرنسا الاحتوائية . وطالبت (C.I.S.L) بفتح باب التفاوض حول الحكم الذاتي بين تونس وفرنسا . وطالبت الجمعية العامة للامم المتحدة بضرورة مواصلة التفاوض بين الطرفين الفرنسي والتونسي " في سبيل تمكين التونسيين من المقدرة على ادارة شؤونهم بأنفسهم " ومع ذلك يبقى اغتيال فرحات حشاد في ظروف غامضة ودون عقاب للجاني صدمة حادة للشعب التونسي الذي كان يمر بفترة حرجة بتحسس طريقه لمواجهة موجة القمع الاستعماري وقد احدث هذا الاغتيال فراغا عميقا على الساحة السياسية والنقابية وكان السؤال من سيخلف فرحات حشاد ويكون فيى مستوى مسؤوليته ؟

فبوفات فرحات حشاد سيطرت البروقراطية النقابية على قيادة الاتحاد وافتكت زعامته لفائدة الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد الذي سيطر على هذه المنظمة العمالية منذ 1953 وهذا ما جعله طرفا هاما في الصراع اليوسفي البورقيبي ٪

3 سياسة الحوار مع فرنسا :

بفضل ما قام به في الحرب من مقاومة الفاشية والنازية كسب " اليسار الفرنسي " شعبية لدى الرأي العام جعلته يتنفذ في الجمهورية الرابعة ويضغط على الحكومة الفرنسية من اجل تطوير سياستها داخل المستعمرات باستنباط طرق جديدة للتعامل والوضع العالمي الجديد الذي فرضته الحرب

أ) ـ الاتحاد الفرنسي :

اثر الحرب ادركت فرنسا ضعفها امام القوى الجديدة : الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السفياتي (دول / قارة) وبناءها ان تصبح في ظل حماية الولايات المتحدة الامريكية ولو بصفة غير مباشرة لذا سعت الى خلق قوة سياسية واقتصادية انطلاقا من تجميع مناطق نفوذها الى ما وراء البحار ضمن " الاتحاد الفرنسي " الذي تبناه الفصل الثامن من دستور 1946 والاتحاد الفرنسي هو اتحاد ليس بدولة فدرالية وانما مجمع يتركب من الجمهورية الفرنسية التي تضم فرنسا الام والمقاطعات والممتلكات الواقعة عبر البحار * و من جهة اخرى المقاطعات والدول المشتركة (Associés) ** حسب البندين الستين من الدستور وتكون الحكومة الفرنسية العنصر الحقيقي المسير للاتحاد كما يقوم الاتحاد على نقاط وهي حسب (Guy de Carmoy) (1) .

- اشتراكية تطوعي بين فرنسا الام والمناطق التابعة .
- اندماج كلي بين الفرنسيين و رعايا المناطق التابعة .
- منح المقاطعات نظاما اداريا خاصا اكثر لا مركزيا .

* والمقصود الجزائر مستعمرات فرنسا الافريقية ومدغشقر
** المقصود المحميات وهي الفتنام وكمبوديا ولاوس وتونس والمغرب.
* الاراضي الواقعة تحت الانتداب وهي التوغو والكمرون .

1) مصدر سابق .Guy de Carmoy;Les Politiques...Op,Cit.P: 159.

تحت اشراف مجالس محلية منتخبة انتخابا عاما .

ويستبعد الاتحاد " كل فكرة استقلال وكل امكانية تطوير خارج كتلة الامبراطورية الفرنسية (1) رغم ان السياسة الفرنسية تعلن عاليا عن رغبتها في حمل البلدان المستعمرة على ادارة نفسها بنفسها لكن في نطاق الفرنسي و داخل الثقافة الفرنسية وليس في نطاق انعتاق تام من الهيمنة الاجنبية .

لذا وقف الوطنيون في المستعمرات ضد التمييز وعدم المساواة بين اقلية فرنسية محظوظة تتمتع بامتيازات عديدة واغلبية من الاهالي (الرعايا) بائسة محرومة و طالبوا بحكم ذاتي في انتظار تحقيق الاستقلال واندلعت حركات التحرير في ارجاء الامبراطورية الفرنسية وقد غذتها سياسة فرنسا المتصلبة بغية دفع شعوب المستعمرات الى الانضمام في الاتحاد الفرنسي فهو ملاذها الاخير" ومن ناحية اخرى مقارنة هذه السياسة المتخلفة(1) بالسياسة الانقليزية في المستعمرات التي منحتها انقلترا حكما ذاتيا على وجود دستور ينظم الحياة السياسية وينص على انتخاب مجالس تشريعية استشارية بالاقتراع العام واقامة حكومة مسؤولة مع تعزيز الروابط الاقتصادية مع بريطانيا العظمى اكثر مما مضى مثل ما هو الحال في افريقيا الغربية .

وأمام تصاعد نشاط الاحزاب السياسية والنقابات المستقلة عن النقابات الفرنسية بالمستعمرات واندلاع الحرب في الهند

---

1) مصدر سابق : موريس كروزيه : تاريخ الحضارات العام ... ص749 .

الصينية رضخت فرنسا الى سياسة التفاوض مع تونس والمغرب لتتفرغ لهذه الحروب .

ب ـ المفاوضات التونسية الفرنسية الاولى بعد الحرب . (1950 ـ 1951)

وبما ان فرنسا موطن فلاسفة التنوير مظهر " المجتمع المدني " و مهد حقوق الانسان و منطلق مبادئ الثورة الفرنسية فقد كانت محرجة امام هذا التاريخ الحضاري الذي اصبح نقطة ضعفها في مواجهة الحركة الوطنية في المستعمرات والتي تخشى عليها من تفشي الفكر الشيوعي في صفوفها و جموحها الى " الاستقلال التام " وبالتالي فصم العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تربطها بها .

و قد كانت فرنسا قد سمحت بتكوين الجمعيات والمنظمات الاجتماعية والثقافية منذ مطلع القرن في البلاد التونسية كما فتحت المدارس و نشرت التعليم و تفتحت " النخبة النيرة " على هذه المبادئ الانسانية (حرية ـ أخوة ـ مساواة ..) الا انها لاحظت تناقضها مع ممارسات السلط الاستعمارية القمعية من فرض حالة الحصار على تونس منذ 1938 و تنصيب " محمد الامين " و مراقبتها للحكومة التونسية باعطاء صلاحيات الباي للكاتب العام (وهو فرنسي) و منها صلاحيات مراقبة الوزراء (مرسوم 1943 ـ 44) (1) .

و بذلك خرقت فرنسا بنفسها معاهدة الحماية التي اصبحت محل انتقاد من طرف " المواطنيين " الذين التأم شملهم بعد ان اطلقت قوات المحور المعتقلين التونسيين .

---

1) مصدر سابق : عبد السلام بن حميده : الحركة النقابية الوطنية للشغيلة بتونس ـ الجزء الاول ص 34 .

واصبح المنصف باي " رمزا " وحدة صفوف الشعب التونسي وجمع كلمتهم لمعارضة الاصلاحات الفرنسية الجديدة في 1945 أوفي 1947 وهي فترة تاريخية هامة اتسمت بالمد الشعبي ويقظة الشعوب العربية الاسلامية المهيمن عليها و منها الشعب التونسي الذي تقاسم الادوار في الخارج والداخل للفت انتباه الرأي العام الفرنسي والدولي الى القضية التونسية .

النضال في الخارج : (1945_1949) .

اثر دخول الحلفاء الى التراب التونسي في 1943 فر العديد من الوجوه البارزة في الحركة الوطنية الى الخارج مثل الحبيب ثامر ويوسف الرويسي والطيب سليم والهادي السعيدي والحبيب بوقطفة و رشيد ادريس وحسين التريكي و مصطفى الغربي والصادق بسباس(1) والدكتور حافظ ابراهيم راجع احد قادة الحزب الدستوري والبشير المهذبي ... وذلك خوفا من نقمة السلط الفرنسية خاصة وان بعضهم متورط بصفة مباشرة مع الالمان . وكانت وجهتهم نحو بلاد المحور بعد ان نجحت نسبيا الدعاية الالمانية في كسب الرأي العام العربي الى جانبها فالمانيا حليف طبيعي للامة العربية والعالم الاسلامي بأكمله (2) فالمانية اشتركت مع الخلافة العثمانية في الحرب الاولى وهي عدو الصهيونية و تساند رموز المقاومة الفلسطنية وهي مستعدة لدعم الحركات العربية المناهضة للاستعمار الانقليزي والفرنسي و هي تدرك جيدا اهمية المغرب العربي في الاستراتيجية الدولية ولذلك كانت من اهم العراقيل في وجه الاستعمار الفرنسي للمغرب الاقصى في مطلع القرن العشرين واثناء الحرب العالمية الثانية فتحت المانيا ابوابها امام اللاجيين

1) Rachid Driss"Premières Années d'exil";Les Cahiers de Tunisie T.XXIX,N°:115_116,1er et 2er Trimestre 1981, pp. 405_424.

2) الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية التونسية 1830_1957 ، مكتبة الجماهير بيروت الطبعة الاولى 1976 ـ ص 78 .

Actes du 4eme Siminaire à l'Institut du mouvement national.Tunis 19
(Groupe à l'Inst.National du mouvement national.)

المغاربة ولعل ذلك لتجعل منهم ورقة مساومة في نزاعها مع فرنسا . وعلى كل فقد تمكن هؤلاء اواخر 1943 من انشاء المكتب العربي ببرلين" والذي يقول عنه احد مؤسسيه "يوسف الرويسي" ان المكتب العربي ببرلين نشأ في ظروف كانت فيها المانيا مقرا لعدد وافر من رجال السياسة والفكر والادب والصحافة من مختلف البلاد العربية في المشرق.

وعند ما عاد الاخوان العرب الى بلدانهم في سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والاردن كانوا خير دعاة لقضية المغرب العربي (1) كما اشرف يوسف الرويسي على جريدة " المغرب العربي " الناطقة باللغة العربية والصادرة ببرلين ايضا .

وهكذا نلاحظ من مناضلي الحركة الوطنية في المهجر الغربي قد بدؤوا يخرجون بالقضية التونسية من اطارها الاقليمي الى نطاق اوسع و هو نطاق المغرب العربي الذي يشترك في مواجهة عدو مشترك و هو الاستعمار الفرنسي .الا ان هذا التوجه سيتعمق اكثر عند تحول هؤلاء المناضلين الى الشرق فلماذا هذا التحول الى الشرق ؟ هناك عدة عوامل دفعت بالمناضلين المغاربة نحو الشرق حيث استقلت بعض الدول العربية كلبنان (1943) و سوريا (1945) و تأسست جامعة الدول العربية في مارس (1945) بمساندة ضمنية من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية و هذا ما احي امل الشعوب العربية في الوحدة" والوقوف في وجه الاستعمار خاصة وان الدول الغربية قد خرجت من الحرب منهوكة القوى واصبحت قضايا "التحرر" في العالم محل مزايدات بين القوتين العظميين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السفياتي وكانت حيرة الشعوب العربية

1) يوسف الرويسي :نشاط المغرب العربي بدمشق 46-1 6المجلة التاريخية المغربية ،العدد 6 جويلية 1976 ص ص 123 / 124 .

المناضلة الطامحة الى الاستقلال " من نمّوء يدلكسب قضيتها ؟ انبدّل استعمارا باستعمار او اننا نحسم مع كل اشكال التبعية ونثبت هويتنا العربية الاسلامية ؟ لعل الاجابة المقنعة توجد في رحاب جامعة الدول العربية بالقاهرة التي طار اليها قادة الحركات الوطنية بالبلاد العربية وفي 26 مارس 1945 خرج الحبيب بورقيبة خفية من تونس بعد ان ابت السلط الاستعمارية منحه تأشيرة الخروج الى الخارج وكانت وجهته الى المشرق حيث اعلن عن انشاء جامعة الدول العربية في 22 مارس 1945 بعد ان وضع موء تمر " عين شمس " دستورا للجامعة يخول لها تبني القضايا والمشاكل التي تهم البلدان العربية غير الاعضاء فيها والتي لم تتح لها فرصة المساهمة في اعمال اللجان (1) ولكن اسئلة كثيرة تخامرنا بعد اطلاعنا على خطب و مذكرات الحبيب بورقيبه .فهل ارتحل بورقيبة الى القاهرة عن اقتناع جعله يقاطع شعاره الذي رفعه في وجه هجرة المناضلين التونسيين الى الخارج بعد انتصار الحلفاء : " الدفاع عن قضيتنا يجب ان نبقى بتونس (2) اوكان ذلك تحت تأثير صالح بن يوسف الذي دفع به الى هذه المغامرة فقبلها عن مضض (3) ؟ و هل كان بن يوسف يسعى فعلا مثلما يريد بورقيبه ان يوحي لنا به ـ الى ازاحته من على رأس الحركة الوطنية لتصفو له الساحة ؟ ولكن ما الذي جعل بورقيبه يندفع الى "المجهول" وهو رجل القانون الذي يحسب لكل خطوة حسابها .

وعلى كل فقد غادر بورقيبه البلاد التونسية في اتجاه القاهرة التي لم

---

1) صالح الدريدي : المسيرة الكبرى /دار بوسلامة للطباعة والنشر،تونس1966 .

2) Habib Bourguiba;Ma Vie,mes idées, mon Combat ;Publications du Secrétariat d'Etat à l'imformation,Tunis,1977,P:210 .

3) نفس المصدر : ص223 .

الحزب واثناءها و بعدها المقيم العام الفرنسي يغمض عينه على ملاحقة طريدته " الحبيب بو رقيبه" فلا نظن انه تعوزه الوسيلة او الحيلة للوصول اليه اذا شاء ذلك ... ولكن يبدو ان السيد " هوكرد ولتيل " الذي كان قنصلا للولايات المتحدة الامريكية سنة 1945 بالاسكندرية و هو من اصدقاء بو رقيبه باستقرار بو رقيبه في القاهرة و لكن كيف سيطيب له العيش وهو لا يملك مالا ؟

لقد دخل " بورقيبه القاهرة و هو لا يملك سوى بعض الجنيهات القليلة وكان في اشد الحاجة الى الاموال لمجابهة حياة في المدينة الاحترام فيها للبهاوات" علاوة على ما تطلبه تحركاته و نشاطاته من نفقات و أرسل اليه صالح بن يوسف 150 جنيها في ثلاث مناسبات حتى يساعده على الاقامة في العاصمة المصرية (1) ولكن حسب ما جاء في مذكرات بو رقيبه قد قلت الارسالات المالية حتى انه" لم يتلق خلال شهري ديسمبر و جانفي مليما واحدا من تونس(2) مما ادى به الى شظف العيش رغم سياسة التقشف التي اجبر نفسه عليها و مع ذلك كانت الديون متراكمة من كل جهة و ربما هذا ما جعل "اصدقاءه" و خاصة قنصل الاسكندرية السيد " دوليتل "Doolittle" يتدخل ليساعده ماديا (3) الى جانب المساعدات الاخرى في تسهيل انتقاله الى الخارج لبسط القضية التونسية على الرأي العام العالمي وكسب انصار لها في صفوف العرب والامريكان فيمكن ان نتساءل " الا تخلف هذه الازمة المالية توترا بين من هم خارج تونس من الدستوريين والذين هم داخلها مع انهم ليسوا باحسن حال من الاخرين .

---

1) مصدر سابق : Sophie Bessis et Belhassen:Bourguiba...Op.Cit. P 111.

2) مصدر سابق : Bourguiba : Ma Vie ..., P. 245 .

3) نفس المصدر ص 245 .

كما ان اللقاءات والمقابلات المتكررة التي قام بها بو رقيبه مع الفرنسيين والامريكان بمصر خاصة مع السفير الفرنسي " لوصيي " "Lecuyer" والقبطان "سوليي" "Soulié" والقنصل الامريكي "دوليتل" "Doolittle" من شأنها ان تثير حوله الشكوك " (1) كما سيبث خلافات وصلت الى حد القطيعة بينه وبين كل من الحبيب ثامر وعبد الكريم الخطابي ومحي الدين القليبي ويوسف الرويسي (2) وكانت وراء فصله من منصب الامانة العامة للجنة تحرير المغرب العربي المنبثقة عن مؤتمر المغرب العربي المنعقد من 15 الى 22 فيفري 1947 في حين يرجع بو رقيبة هذا الفصل الى اتهامات لا اساس لها من الصحة بانه تلقى " اموال " من امراء ورؤساء حكومات البلدان العربية التي زارها : عمان ـ سوريا ـ لبنان ـ السعودية ... (3) دون ان نغوص في اتهامات اخرى شخصية تتعلق بسلوكياته الاخلاقية ولو ان سليمان بن سليمان قد تعرض في مذكراته الى بعض مغامرات بو رقيبه العاطفية وجعل لها اثرا في علاقاته مع "رفاق الكفاح" ومنهم حسين تركي والحبيب ثامر (4) اللذان لعبا دورا كبيرا في "عزلة" بو رقيبه خاصة في الاشهر الاخيرة من اقامته بمصر وعلى كل فقد أبدى بو رقيبه خلال باقامته بمصر من 1945 ـ حيوية فائقة للتعريف بالقضية التونسية فكأنه ادرك ان على " تونسران تعتمد على نفسها لحل مشكلتها بعد ما صرح له الامين العام لجامعة الدول العربية السيد عبد الرحمان عزام باشا بان " المشكل الفلسطيني يحتل مقدمة الاولويات والاهتمامات وعليه انتظار حل هذا المشكل حتى يتم ادراج القضية التونسية في جدول اعمال الجامعة (5).

1) نفس المصدر : ص239.
2) مصدر سابق: الطاهر عبد الله؛ الحركة الوطنية التونسية: ص85.
3) مصدر سابق:
4) "CERES PRODUCTIONS"
5) مصدر سابق :

3)Bourguiba:Ma Vie...Op.Cit,P: 242.
4)Sliman BenSliman:Souvenirs Politiques,Tunis,1989,P: 243.
5)Bourguiba, Ma Vie . P: 248 .

وايقن بورقيبة انه" لمن الغباء الاعتقاد بان الدول العربية سوف تدخل في نزاع مع فرنسا لنجدتنا (1) فحل القضية التونسية رغم حشرها ضمن مشكلة "المغرب العربي "او شمال افريقيا ـ ليس في الشرق وليس بيد العرب فالعرب مشغلون بمصيبتهم بعد هزيمة 1948 امام اسرائيل اذ اضافة " اليهود اكثر من 24٪ من الاراضي العربية عما وهبتها لهم منظمة الامم المتحدة بمقتضى التقسيم .فاذن المجال لا يسمح بطلب السلاح ولا حتى التدخلات السياسية لفائدة القضية التونسية (2) لذا يرى بورقيبة ان الوجهة يجب ان تكون في اتجاه "الغرب" والى الولايات المتحدة الامريكية بالذات فخلال زيارته لها في ديسمبر 1946 الى مارس 1947 وعده وزير خارجيتها بان الحكومة الامريكية تؤيد مطلب استقلال تونس لو رفعت هذه القضية الى الامم المتحدة (3) ولهذا اصبحت غاية بورقيبة البحث عن انصار لعرض القضية التونسية على منبر الامم المتحدة فالتمس ذلك في صفوف الدول العربية الاعضاء في المنظمة الدولية: السعودية ـ العراق ـ ولكن بلا جدوى.

وازداد ايمان بورقيبه رسوخا في ان حل القضية التونسية ليس بيد العرب وان حلها لا يكون الا بالطرق السلمية وبالحوار ،فبورقيبه لم يؤمن " بنضال المغرب العربي " ولا بالوحدة العربية" ولا بكون القضية الفلسطينية هي قضية كل العرب" بل هي قضية الفلسطينيين وحدهم مثل ما ان القضية التونسية هي قضية التونسيين فحسب .وفي الشرق

---

1) مصدر سابق: 1)Bessis et Belhassen:Bourguiba,Op.Cit.P: 113.

2) مصدر سابق : 2)Bourguiba, Ma Vie... P: 248.

3) الحزب الاشتراكي الدستوري بعث امة وبناء دولة (1934ـ1974) تونس (بدون التاريخ) ص41.

لم تجد فكرته صدى حتى عند رفاقه الدستوريين المهاجرين في مصر الذين انقسموا الى شقين : شق ذو نزعة راديكالية يصهر القضية التونسية ضمن محيط اوسع داخل قضية " المغرب العربي " ويرى حلها عبر الكفاح المسلح طبقا لمقررات مؤتمر "المغرب العربي" (1) المنعقد في فيفري 1947 في غياب الحبيب بو رقيبه كان بالولايات المتحدة الامريكية ومع ذلك انتخب امينا عاما للجنة تحرير المغرب العربي كما انتخب عبد الكريم الخطابي " بطل الريف" رئيسا لها . ويتزعم هذا الشق الحبيب ثامر - يوسف الرويسي - الحسين التريكي ... اما الشق الاخر فذو نزعة معتدلة اقليمية سياسية يمثلها بو رقيبة - الطيب سليم - خليفه حواص - رشيد ادريس(2) .

وعمل الشق الاول على محاصرة الشق الثاني فهاجمه عبر الصحف المصرية وتوترت العلاقة بين الحبيب ثامر والحبيب بو رقيبة وزادها الوضع المالي " المتدهور " تعفنا فالحبيب ثامر كان المشرف على توزيع الاموال المرسلة من تونس الى البعثة الدستورية بالقاهرة وكانت طلبات بو رقيبه المالية لا تنتهي رغم 30 جنيها الجراية الشهرية التي يتقاضاها من جامعة الدول العربية (3) كما ان "الحكيم" الحبيب ثامر ذلك الرجل الذي عرف بجديته وبهدوئه رفض الانقياد الى مواقف بو رقيبه والتصفيق لخطبه الساخبة ... ووصل الامر الى حد القطيعة بين الرجلين .

ولعل زيارة صالح بن يوسف الى القاهرة في 1948 كانت لاصلاح ذات البين وفي الآن نفسه لاطلاع بو رقيبه عما يدور في البلاد التونسية

---

1) ومما جاء في هذه المقررات :
- ان تلتزم كل الاحزاب رسميا ق عمل وطني تحريري مشترك .
- لا يجوز لاي حزب ولا اي حركة ان تنفرد بمفاوضة مع الاستعمار الفرنسي او تبحث عن حل انفرادي .

2) Ezzedine Azzouz; l'Histoire ne Pardonne pas: (Tunisie. 1938_1969) l'Harmatran, Dar Achraf, Editions, Tunis. 1988

3) مصدر سابق: P: 114.

3) Bessis et Belhassen: "Bourguiba... Op. Cit, P: 118 .

وخاصّة في صلب الحزب الدستوري الجديد من انشقاقات تناقلها القادمون من تونس الى القاهرة وهي ايضا فرصة ليتحسس بورقيبه مكانته داخل الحزب بعد غياب فاق ثلاث سنوات ، ولكن الفرصة الحقيقية كانت لصالح بن يوسف اذ وقف على وضع الجالية المغاربية بالقاهرة ومواقفها من قضية التحرر كما ادرك ما يعانيه بورقيبة من عزلة وقلق فهو كما عبر عن ذلك بنفسه : نبتة اقتلعت من وسطها الطبيعي تعمل بكل قواها لتصل بالارض التي انجبتها والكائنات التي من اجلها تعيش" (1) .

لقد بدأ بورقيبة يشعر بالملل ويتضايق بالمحيطين به فهؤلاء الذين ساعدهم على الالتحاق به في مصر يقاطعونه اليوم ويرمونه بشتى " التهم" حتى انهم يخططون لمستقبل البلاد بعيدا عنه ، فلماذا لا يعود الى تونس؟ وهل ما يجري بها يوافق هواه؟ او هو عكس ذلك فكان لا بد من العودة لتصحيح المسار؟

النضال في الداخل (1945_1950) :

يبدو ان الحرب قد قربت بين التونسيين في خوفهم من اهوالها كما سوى بينهم اضطهاد السلط الفرنسية التي عادت الى الهيمنة على البلاد مع دخول الحلفاء اليها في ماي 1943 فأطلقت يدها في الاموال والارواح والقت بالعديد من المواطنين في السجون والمحتشدات بتهمة التواطئ مع المحور (2) .

1)Habib Bourguiba:La Tunisie et la France(Vingt_Cinq ans de lutte pour une Coopération Libre)Maison Tunisienne de l'Edition; Tunis 1954.P: 217.

2)حسب استجواب محمد لعطروهو من مواليد الصباط سنة 1913 القي عليه القبض مع مجموعة من سكان الحامة وقامت ارلقوات الفرنسية بالعبث بممتلكاتهم و هم ينظرون كما اجبروا على اعالتهم طيلة مكوثهم بالحامة وبعد ذلك حكم على المجموعة بالسجن بتهمة التعامل مع المحور باحكام تتراوح بين السجن والمنفى .

ولم تحدد تمييز بين من هو معها اوضدها وفي هذه الحال الى من سيلجيء من تبقى من الدستوريين وقد تملكهم الخوف رغم مواقفهم " المناصرة" للحلفاء ؟

لقد اعتقد الدستوريون ان الولايات المتحدة الامريكية يمكن ان تكون سندا لتونس في مطالبها ضد فرنسا مثلما وقفت بريطانيا الى جانب سوريا ولبنان ضد فرنسا (1) ولكن الولايات المتحدة هي حليفة لفرنسا فالامريكان بموجب الحرب القائمة مع قوات المحور لم يكن من مصلحتهم احراج الفرنسيين ولا التدخل في شؤونهم الداخلية ومع ذلك لعب قنصل الولايات المتحدة بتونس السيد " دوليتل "DOOLITTLE وراها ما في دفع تهمة التعامل مع المحور عن عناصر الحزب الدستوري الجديد ولكن هذه المساعدة كانت حذرة نظرا لحساسية الموقف وحتى لا تتورط الولايات المتحدة مباشرة وتتهم بسحب البساط من تحت اقدام فرنسا في مستعمراتها خاصة وانها تنظر الى قيام نظام عالمي جديد يستعمل الايدلوجية عوض القمع وأدواته ؟

ولكن هذا القمع الذي سلطته السلط الفرنسية بتونس على كل فئات المجتمع التونسي وفي كافة البلاد جعل مختلف التيارات الفكرية والسياسية تتوحد في صف غير متجانس معارض للحضور الفرنسي منتقدا تجاوزه معاهدة بارد وبتعديه على الباي محمد المنصف باي وذلك خرقا للبند الثالث من معاهدة 1881 والذي جاء فيه :

" تتعهد الجمهورية الفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن ان يهدد ذاته اوعائلته.

---

1) Sliman Ben Sliman, Souvenirs Politiques. P: 198. مصدر سابق :

او يعبث بممتلكاته " ولعل الوضع الاقتصادي والاجتماعي لفترة ما بعد الحرب زاد في تكتل التونسيين في جبهة واحدة دون ان تجمعهم ايديولوجية واحدة فهي كثيرا ما كانت ضبابية اوغائبة مثلما كان البرنامج العام مفقودا افتقاد المخطط الدقيق والواضح للتصدي للحضور الاجنبي ... ورفعت الجبهة " الوطنية التونسية " في فيفري 1945 شعار الاستقلال الداخلي "للامة التونسية" على اساس ديمقراطي وفي ظل ملكية دستورية (1) واستمال هذا الشعار عطف العالم الحر خاصة الولايات المتحدة الامريكية التي رهان " الدستوريين في مواجهة فرنسا " المتعنتة فهم ينتظرون من الامريكان الضغط على حليفتهم (فرنسا) حتى تستمع الى مطالبهم " الاصلاحية" الهادفة الى تطوير نظام الحماية ولا الى ازالته.

ولا يخفى علينا ايضا مدى تأثر هذا الشعار بالحركة المتصفية فما هي هذه الحركة ؟

يبدو ان هذه الحركة لم تأخذ حظها من الدراسة المعمقة بعد وهذا ليس مجال بحثنا وعلى كل سميت بهذا الاسم نسبة الى " سيدي المنصف باي".

ولد المنصف باي في 4مارس 1881 وهو حفيد محمد باي واضع عهد الامان (1857) ،وهو ابن محمد الناصر (1906_1922) المعروف بمواقفه المؤيدة لتطلعات الشعب التونسي وصل المنصف باي العرش في 19 جوان 1942 وابدى تعاطفا كبيرا مع الحركة الوطنية وسعى الى اطلاق سراح المعتقلين التونسيين واعادتهم الى تونس

---

1)Charles,André Julien:Et la Tunisie Devint Independante(1951 1957) Les Editions J.A/S.T.D,1985, P: 24.

كما كانت له ميولات شعبية حتى انه اوصى قبل وفاته بدفنه في مقبرة الجلاز (1) بدلا عن مقبرة العائلة الحسينية وكان المنصف باي يتمتع بشعبية واسعة تخطت الحدود التونسية ووصلت الى الجزائر والى المغرب الى جانب دعم ومساندة كل افراد العائلة الحسينية (2) رغم قصر حكمه اذ سرعان ما عزلته قوات الحلفاء في 14 ماي 1943 بتهمة التواطيء مع المحور وهي تدرك جيدا موقف القصر المناهض للفاشية والداعي لعدم الانحياز ولكن فرنسا كانت تخشى استعانة " الباي " بالانقليز والامريكان لتحقيق طموحاته الوطنية (3) ونفيه الى الجزائر ومنها الى "بو (Pau) جنوب فرنسا حيث توفي في الفاتح من سبتمبر 1948 الا ان ابعاده عن البلاد جعل منه بطلا شعبيا" ووفاته في ظروف غامضة جعلت منه " بايا شهيدا" وعن غير قصد عملت السلط الفرنسية على جمع كلمة التونسيين حول هذا" الباي" ليستثنى من قائمات البايات المستبدين وانساب " الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد " مع الحركة المنصفية وناصرها مسيروه ومنها صالح بن يوسف خشية التهميش نتيجة سبع سنوات من القمع وفرار بعض عناصره الى الخارج (4) اثر دخول الحلفاء التراب التونسي سنة 1943 خوفا من نقمتهم خاصة وان بعضهم متورط بصفة مباشرة مع الالمان .

---

1)Rachid Driss,Premiéres Années D'Exil;Les Cahiers de Tunisie T:XXIX;N°115.116,1er et2eme Trimestre 1981.P.P: 405_424

2) نفس المصدر .

3)Sophie Bessis et Sonhayr Belhassen;Bourguiba à la Conquéte d'un Destin (1901.1957)Jeune Afrique livres,Paris; 1988

4) ومن هؤلاء نذكر: الحبيب ثامر، يوسف الرويسي، الطيب سليم، الهادي السعيدي، الحبيب بوقطفه، رشيد ادريس، حسين التريكي، مصطفى الغربي، الصادق بسباس (مصدر سابق)

وفي غياب الحبيب بو رقيبه الذي غادر البلاد خفية الى ليبيا ومنها الى القاهرة بمساعدة الحبيب عاشور (1) في مارس 1945 انعقد مؤتمر ليلة القدر في 23 أوت 1946 بمنزل محمد جراد وترأسه القاضي محمد العروسي الحداد وحضره العديد من العناصر (200) من الاتحاد العام التونسي للشغل ومن الحزبين القديم والجديد و شيوخ جامع الزيتونة وقدم صالح بن يوسف للحاضرين تلخيصا لفحوى " وثيقة الاستقلال " التي اعدتها مسبقا لجنة خاصة تمخضت عن سلسلة من اللجان انعقدت من 1944 الى 1946 . وتتركب اللجنة من اربعة اعضاء وهم الهادي نويره وعلي بلهوان عن الديوان السياسي والشاذلي الخلادي والمنصف المستيري عن اللجنة التنفيذية (2).

وتعتبر هذه الوثيقة اجماعا عاما لمختلف القوى الحية في البلاد حول انتقاد نظام الحماية والاعلان عن "عزم الشعب التونسي الثابت على السعي في استرجاع استقلا له التام وفي الانظمام الى جامعة الدول العربية و مجلس الامم المتحدة و المشاركة في مؤتمر السلام (3).

وتجاوب الحاضرون مع مبدأ الاستقلال و هتفوا " الاستقلال ! الاستقلال ! ولكن قبل ان يصدر المؤتمر لوائحه من المؤتمرين و منهم صالح بن يوسف وصالح فرحات ...

لقد ردت السلط الفرنسية بتونس على هذا الاجتماع حول الاستقلال بسياسة قمعية خشية ضياع هيبة فرنسا بالتمادي في الانتقادات

---

1) Habib Achour: Ma Vie Politique et Syndicale, Enthousiasme et Deceptions, T:1, (1944_1981) Alif, Tunis, 1989. P.P: 12.13 .

2) م. مختار ناصري : الحركة الوطنية التونسية بين البورقيبية واليوسفية، شهادة كفاءة في البحث كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس/1991، ص 4.

3) احمد بن ميلاد : وثائق عن مؤتمر ليلة القدر "المجلة المغربية عدد 24 نوفمبر 1981 م. ص. ص 332 - 334 .

الموجهة لسياستها وبازدياد خطورة المتمردين في الجنوب (ثورة المرازيق) والساحل (ثورة زرمدين) ولامتصاص الغضب عينت فرنسا مقيما عاما جديدا على تونس وهو الخامس في ظرف اقل من اربعة سنوات اذ تناوب في الاشراف على دور المقيم العام كل من الجنرال "جوان" ثم الاميرال" استيفا" ثم "جيرو" ثم الجنرال ماست ثم "بان مونس" الذي حل بتونس في بداية مارس 1947 ومعه مشروع اصلاحات جديدة يهدف الى تشكيل حكومة من اسماء فرنسية وأخرى تونسية بتعيين ستة وزراء تونسيين بدلا من اربعة برئاسة مصطفى الكعاك كوزير اول مع الابقاء على النفوذ الواسع للمقيم العام وللكاتب العام للحكومة .

ولم تلب هذه الاصلاحات أمال الشعب التونسي في الانعتاق والتسيير الذاتي لذا عارضها بشدة بالمظاهرات والاضرابات تحولت في بعض الاحيان الى تصادمات دموية مثل ما وقع في صفاقس يوم 5 أوت 1947 (1) .

ومنذ صائفة 1947 تميز "الاتحاد العام التونسي للشغل" بديناميكيته وتأطيره النضالات الشعبية والعمالية مستغلا الانقسامات التي تشق الاشتراكيين والشيوعيين من ناحية ومن ناحية اخرى الصعوبات المالية التي اصبحت تثير التباغض بين من هم في الداخل من الدستوريين ومن هم في الخارج كما بدأت نزعة انشقاقية تظهر داخل الحزب الحر الدستوري الجديد فاطردت بعض العناصر مثل الشيخين الفاضل بن عاشور والشاذلي بالقاضي بتعلة الممارسات البرجوازية التي يسلكها "بن عاشور وعائلته مثل تقمص الازياء الانيقة .

1) Habib Achour, Ma Vie Politique et Syndicale. PP: 16.20 مصدر سابق

لتفاخر والتباهي امام الملأ . وعدم تقدير قيادة الحزب حق
قدرها في المناسبات الرسمية وفي ذلك تطاول على " ممثلي الامة"
وانعدام النضالية و التقارب مع الاستقراطية والبرجوازية التونسية (1)
ويذهب سليمان بن سليمان و مجموعة من الشبان الدستوريين
الى اتهام قيادة الحزب باهمال العمل القاعدي في الاوساط الشعبية
والاهتمام بالقوى البرجوازية والتقارب مع القصر والحكومة (2)
وبالتالي تهميش العمل الوطني (3) كما وقع طرد سليمان نفسه
في 18 / 3 / 1950 فهذا الحزب رغم قيادته للحركة الوطنية لم يكن
قويا على وجه يكفيه لحسم تناقضه مع الاستعمار الفرنسي بمفرده
فكان مضطرا الى التحالف مع اكثر ما يمكن من الفئات والشرائح
والطبقات الاجتماعية الاخرى المناهضة بصفة أو بأخرى للاستعمار (4)
الفرنسي ولهذا كان الحزب الدستوري التونسي يتقرب الى الاتحاد
العام التونسي للشغل ويقف وراء بعث منظمات اجتماعية عديدة
"كمنظمات سياسية متخفية بصفة نقابات" ونذكر منها :

1) ـ الجامعة العامة للفلاحة التونسية افريل 1947 والتي غيرت اسمها
في جوان 1947 باسم " الاتحاد العام للنقابات الفلاحية التونسية (5)
وقد حرص صالح بن يوسف في " اختياره" لاعضاء مكتبها على ان تكون
اغلب جهات البلاد ممثلة فيه (6) .

ـ الاتحاد العام للفلاحة التونسية " : انبعث في ماي 1950 يرأسه
الحبيب المولهي ، اما ابراهيم عبد الله فهو امين عام له . وستصبح هذه

1) مصدر سابق : محمد المختار الناصري : الحركة الوطنية بين البورقيبية واليوسفية ص27 .
2) يمكن ان نذكر منهم : الشاذلي قلالة ـ بالحسن جراد ـ محمود شرشور .
3) Sliman Ben Sliman : Souvenirs Politiques ... Op. Cit, P: 213
4) مصدر سابق : الهادي التيمومي " نقابات الاعراف التونسيين " ص 119
5) = = : = = ص 100
6) = = : = = 101 .

المنظمة من اهم ركائز الحزب الدستوري الجديد في استقطاب قسط من الارستقراطية والبرجوازية الفلاحية التونسية و سينعكس ذلك على موقفها من الصراع اليوسفي البورقيبي في 1955 .

3)ـ " الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة " و هو الاسم الجديد الذي اقترحه صالح بن يوسف " الاتحاد لنقابات الصنائعية وصغار التجار بالقطر التونسي " في مؤتمره الثاني في افريل 1948 (1)و ذلك لفتح المنظمة امام كبار الحرفيين وكبار التجار.كما حرص الحزب الدستوري على نشر مكاتب الشبيبة الدستورية لاحتواء اكثر ما يمكن من الشباب في مختلف انحاء البلاد الى جانب بعض الغرف التجارية و الفلاحية. و يمكن ان نستنتج ان الحزب خلال ثلاث سنوات (1945ـ1948) قد تقارب مع مختلف التيارات الفكرية والسياسية رغم تناقضها وانفتح على مختلف شرائح المجتمع رغم اختلاف مشاربها من اليمين الى اليسار (من القصر الى الشيوعيين فالبرجوازية والارستقراطية الى العمال والفلاحين) كما بذل جهدا في زرع " خلايا " له داخل المجتمع في المدن والريف واعاد تنظيم هياكله رغم انه في حالة حصار و هذا يفسر بعدة اسباب ـ حسب مواقفه ـ تقاربه مع القصر و مع الاستقراطية والبورجوازية و مختلف المنظمات التونسية يمكن ان نفسره بخوف الحزب الدستوري الجديد والتهميش امام ظهور الحركة المنصفية من ناحية وصعود الحركة العمالية بقيادة الاتحاد العام التونسي للشغل من ناحية ثانية كما يفسر ايضا بحاجته الى الاموال استعدادا للدخول في خط المواجهة مع " الحضور" الفرنسي . اما سياسة التأرجح على الحبلين "بين مهادنة الاشتراكيين والشيوعيين ونصرة الديمقراطيين الغربيين فهي تتجاوز نطاق البلد وترتبط بالوضع الدولي ويمكن تفسيرها بضبابية المستقبل الذي

1) نفس المصدر : ص188 .

ستسفر عنه " الحرب الباردة" الدائرة بين الاتحاد السفياتي والولايات المتحدة الامريكية • فلمن ستكون الغلبة ياترى؟ ولهذا سلك الحزب في هذه المرحلة سياسة مزدوجة تناصر هذه الدولة او تلك دون ان يبرز انحيازا كاملا لا لاتحاد السفياتي ولا للولايات المتحدة الامريكية لضمان وقوف احداهما مع القضية التونسية •

وهكذا جاءت تشكيلة الحزب في تلك الفترة (1945/1948) حبلى بالتناقضات فقد جمع الديوان السياسي مثلا بين الشيخ الفاضل بن عاشور والاستاذ صالح بن يوسف وبين سليمان بن سليمان والهادي نويرة ••• الخ

وانعكست هذه التناقضات على مواقف الحزب الدستوري فظهر بوجوه عدة فمرة ينادي بالاستقلال التام (مؤتمر ليلة القدر 1946) ومرة يكتفي بالحكم الذاتي وحينا يقف ضد مخطط مارشال • وهو معه (1) وبينما كان زعيمه الشرق يدعو الى احداث اضرابات في تونس يمكن استغلالها لدعم دعايته للقضية التونسية كان قادة الحزب في الداخل يميلون الى "الهدوء" ففي جويلية 1946 بعد التنكيل بقرية زرمدين وبني حسان قام صالح بن يوسف بزيارة القرية وحرر تقريرا حول الاحداث قدمه من اعيان زرمدين وسكانها لجلالة الملك المعظم (2) الذي أعلن فيما بعد عن افتتاك الاكتتاب معلنا بتبرعه بخمسين الفا من الفرنكات (3) ولكن اعمال "فلاقة زرمدين" اصبحت ما بين 1947 و 1948 مقلقة للسلط الفرنسية التي اغرت رئيس الجامعة الدستورية لجنوب الساحل التابعة للحزب الدستوري الجديد الطاهر بطيخ وهو رجل نساج ببلدة قصر هلال وقد

1) مصدر سابق : محمد المختار ناصري : الحركة الوطنية بين البورقيبية واليوسفية : ص35
2) جريدة الزهرة : 7 جويلية 1946 •
3) = = 16 = 1946 •

التزم هذا الاخير بالتواطيء معها للقضاء على الفلاقة . فهل تم ذلك في غفلة من قادة الحزب ؟ اوكانوا على علم وأرادوا التخلص من عناصر تعمد الكفاح المسلح وتشوش عليهم خطة اغواء فرنسا لجرها الى تلبية مطالبهم الاصلاحية عبر التفاوض والحوار ،كما ان في 9 أوت 1947 اثر حوادث 5 أوت اكتفى الحزب الدستوري الجديد " باصدار بيان حول حوادث صفاقس بشهر بالاعتداء الفضيع ويعلن تضامن الحزب مع الاتحاد والعمال (1) كما كان قادة الحزب اشد تعلقا بالهدوء اثر وفاة المنصف باي في 1 سبتمبر 1948 في منفاه بمدينة "بو" جنوب فرنسا وفي اليوم نفسه ابرق الديوان السياسي ببرقية احتجاج الى رئيس الجمهورية الفرنسية ووزير خارجيتها والمقيم العام بتونس يحملونهم فيها مسؤولية موته (2) وفي اليوم 6 سبتمبر 1948 عاد جثمانه الى تونس ليدفن في مقبرة الجلاز وقد غصت شوارع تونس العاصمة المؤدية الى المقبرة بالجماهير المطلومة لفقدان بابها " الشهيد " وبينما كان الزعيمان بورقيبة وابن يوسف في القاهرة يتوقعان اندلاع اضرابات بتونس في هذه المناسبة عمل قادة الحزب وخاصة المنجي سليم على تهدئة الجماهير وعدم اختلال النظام وربما نتساءل هل كانت هذه التطورات الاخيرة سببا لاسراع بن يوسف في العودة الى تونس وعقد مؤتمر دار سليم ؟

رجع بن يوسف من القاهرة محملا بتوجهات (الواو مفتوحة) وتوجهات الزعيم الحبيب بورقيبة لمعالجة الوضع الراهن داخل الحزب ولرسم

---

1) مصدر سابق: لمحة عن تاريخ الحزب الدستوري :ص41.
2) نفس المصدر : ص42.

الخطط الجديدة في سياسة التعامل مع الخصم (فرنسا) وكان لابد من عقد مؤ تمر الحزب على ضوء المعطيات الجديدة داخليا (الانشقاق في صلب الحزب ـ حكومة الكعاك ـ تطبيق الفصل الثامن من دستور 1946 الفرنسي بالمستعمرات ومنها تونس ،نهاية الفلاقة بالساحل والجنوب ـ وفاة المنصف باي " وخارجيا (ميلاد دولة اسرائيل ـ هزيمة 1948 انعقد المؤ تمر بدار سليم من الساعة الثامنة صباحا الى الساعة الخامسة صباح اليوم الموالي (1) .

وكان الصراع حادا بين عناصر" شابة" كانت تعيب على الحزب تقربه من البرجوازية والارستقراطية واهماله " العمل القاعدي " وبين قادة الحزب الذين حاولوا ايصاد الباب امام هذه العناصر حتى لا يحدث لهم ما حدث للجنة التنفيذية في ماي 1933 من ذلك اقصاء المنجي سليم ،شاذلي قلالة و محمود شرشور من المجلس المركزي للحزب (2) امام اتهامهما له بالتقصير في ارسال الاموال الى بورقيبة بما انه هو المسؤول المالي في الحزب .

ولتلافي ما قد يطرأ عمد بورقيبة و بن يوسف ابان لقائهما في القاهرة الى توزيع المراكز الحساسة في الحزب بينهما بحيث تكون الرئاسة لبرقيبة والامانة العامة لابن يوسف .كما تم الاعداد للمؤتمر تنظيما يضبط قائمة اسماء المدعوين (3) .

واثناء المؤ تمر حاول قادة الحزب فرض خط وحيد على المؤ تمرين بذريعة انهما " اوامر بورقيبة " وهذا ما جعل بورقيبة الغائب حاضرا و عرضة لبعض الانتقادات ولكن دون التطاول على سلطته (4) واسفرت المداولات عن انتخاب مكتب سياسي جديد ولو انه يضم اغلب عناصر التشكيلة

---

1) نفس المصدر :ص42
2) مصدر سابق: الطاهر عبدالله ؛الحركة الوطنية التونسية :ص86
3) مصدر سابق : محمد المختار ناصري :الحركة الوطنية التونسيةبين البورقيبية واليوسفيةص33
4) مصدر سابق:
4)Bessis et Belhassen،Bourguiba...P: 122.

القديمة وقد اسندت الرئاسة فيه الى الحبيب بورقيبة والامانة العامة الى بن يوسف ولكن ولاول مرة في تاريخ الحزب نجد ثلاثة نواب للرئيس وهم الهادي شاكر في تونس (1) الحبيب شامر في القاهرة ويوسف الرويسي في دمشق وهذان الاخيران هما في تنافر مع بورقيبة. الذي رأى في ضمهما الى الديوان السياسي تقليصا لنفوذه في الحزب ومع ذلك لم يحتج وكبت غيضه ولعل ذلك زاد في شعوره بالوحدة والعزلة وربما شكى جحود رفاقه بينه وبين نفسه فازدادت حاجته الى " الدفء العائلي " وهو في منفاه وربما شعر بالنقمة على بن يوسف بالذات فهو يعيش في وطنه وسط عائلته يغدق الاموال " ويعقد علاقات مريبة مع الراقصة دنيازاد " (2) بالاضافة الى عقده مؤتمر الخيانة" وسماحه بهذه التجاوزات الا ان الظروف لا تسمح " بتصفية الحسابات" فالمعركة مع الاستعمار تستوجب رصّ الصفوف وتوحيد " الأمة" وليكن ذلك مؤجلا الى ما بعد " (3).

غير ان هذا التجلد انهار امام الصفحة الثانية عند ما بلغته مناقشات المجلس الملي المنعقد في 2 أوت 1949 حول زعامته للحزب " فلولا مجهودات الهادي نويره و سليمان بن سليمان لرجحت الكفه ضده

اذن لا بد من العودة لتصحيح الاوضاع . فما ذا حتى من بعد اربع سنوات من الهجرة ؟؟

فاسرع بورقيبه يخبر ابنه بعودته الى تونس يوم 8 سبتمبر 1949 الا ان هذا القرار اثار ردود مختلفة في صفوف الدستوريين وان كان منتظرا من بعض الاطراف التي كانت تحرضه على العودة برفعها له تقارير " مأساوية" عما

1) ولد الهادي شاكر بصفاقس 1908 تحصل على الدبلوم التجاري العالي واشتغل بالتجارة حضر في مؤتمر قصر هلال 1934 واسس اول شعبة تابعة للديوان السياسي بصفاقس، القي القبض عليه عدة مرات (1935) و (38-1952) ترأس مؤتمر جانفي 52 ووقع ابعاده الى اطبرقة ثم رمادة وجربة وتطاوين ودخل مستشفى قابس من جراء التعذيب ثم اعيد الى السجن 53 ابعد الى نابل وفي 13 سبتمبر 53 اغتالته اليد الحمراء .

2) Bourguiba :Ma Vie ... op. cit , P: 252 . مصدر سابق :

3) نفس المصدر السابق ص P: 251

عما يجري في تونس من تخاذل سلطة الحزب و تقلص الشعبية وميو له الى الدعة و الهدوء و عن انشقاقه وانقسم صفوفه و خاصة عن اهتزاز مكانة بورقيبه داخله. فان اطرافا اخرى فاجاها قرار العودة في ظروف غير ملائمة ان لم يتم الاعداد مسبقا لهذه العودة فبورقيبة خرج من تونس سنة 1945 بصفة غيرقانونية " ويخشى ان يقع ايقافه" (1) وأبرق بن يوسف الى الحبيب بورقيبة يطلب منه تأجيل موعد عودته كما نصحته سفارة فرنسا بالقاهرة بالعدول عن رجوعه الى تونس أو ارجاء ذلك الى تاريخ لا حق على الاقل (2) و مع ذلك اتخذ قرارا لا رجعة فيه وأصر ان يكون يوم العودة معلنا عنه ،فهل هذا تحدي للسلطات الاستعمارية ؟ أو تحدي لخصومه التقليديين و قدماء الدستوريين والشيوعيين) والجدد (من داخل الحزب) أو هو اختبار لوزنه و قيمته و مكانته داخل الحزب وفي الحركة الوطنية بعد مرور اكثر من اربع سنوات و نصف وهو خارج البلاد .

وفي 8 سبتمبر 1948 نزل بورقيبة مطار " العوينة" و مر من امام اعوان الجمارك كأي رجل عادي دون التعرض له ! وكان في استقباله رجالات الحزب من مختلف انحاء البلاد و جمع غفير من التونسيين الذين هتفوا بحياته ،وامتطى بورقيبة سيارة مكشوفة و جابت شوارع العاصمة بين تصفيق و هتاف سكانها مدة ست ساعات فانتعشت روحه و هو المولع بالظهور والتكبر والمفتخر بالتميز والتعالي فهو الرجل الذي يأمر ولا يقبل الاعتراض ولا المعارضة (3) و شعر بانه "زعيم الامة" وليس مجرد رئيس حزب ،ولعل هذا الاحساس جعله يتذكر .

1) ما اجاب به بن سوسف عن سؤال بورقيبة عن سبب اعتراضه على عودته من القاهرة و رد في مصدر سابق: تاريخ الحركة الوطنية / الاستعداد للمحنة الثانية /ص20

2) نفس المصدر: ص/ص10 و 11.

3) مصدر سابق: Charles André Julien, Et la Tunisie...Op.Cit P: 23.

" الباي محمد الامين " فانعرج الى ضاحية قرطاج ليؤدي له الزيارة وفي ذلك اكثر من معنى فقد اصبح " محمد الامين " بايا شرعيا " بعد وفاة المنصف باي سنة 1948 في اعين التونسيين الذين كانوا اعتبروه خائفا لسلفه بقبوله العرش الحسيني سنة 1943 ومن ناحية اخرى اراد بورقيبة ان يدعم امام الجميع الفكرة الرائجة حول تقارب الحزب الدستوري الجديد مع القصر وفي ذلك تعزيز لموقف بن يوسف امام خصومه الذين يعيبون عليه ذلك ،كما قام بورقيبة بزيارة الى قبر المنصف باي وفي ذلك محاولة كسب انصار المنصفية واخيرا عاد الى منزله " برحبة الغنم " .

ولكن لماذا سكتت السلط الاستعمارية عن عودة بورقيبة الى تونس ولم تلق عليه القبض حال نزوله من الطائرة او عند تجواله في شارع العاصمة أوحتى بعد رجوعه الى منزله ؟

يقول بورقيبه انه استظهر بجواز سفر باسمه كان استخرجه سنة 1947 من مقاطعة " السين " بفضل مجهودات صديق له يقيم بباريس يدعى الهادي الجلولي (1) في حين اتهمه محي الدين القليبي في مقال نشر بجريدة "الارادة" في شهر سبتمر 1949 بكونه متواطئا مع سلطات الحماية (2) " لتغذية الخصومات والانقسامات في صفوف الوطنيين التونسيين وتذهب الجالية الفرنسية بتونس من خلال مذكرة الى روبار شومان بتاريخ 25 ماي 1950 الى حد عتاب السلط الفرنسية بتونس على ارتكابها " غلطة السماح للدستور الجديد باستئناف نشاطه علنا وقد سبق حله بصورة قانونية وأرتكابها غلطة اخرى لا تقل فداحة عن الاولى وهي الترخيص في عودة بورقيبة الى المملكة في ش9/49 (3) .

1) Bourguiba, Ma Vie... Op.Cit. P: 248 .

(1) مصدر سابق :
(2) مصدر سابق : تاريخ الحركة الوطنية التونسية ... الطبعة الثالثة ، ص : 13 .
(3) نفس المصدر : ص 162 .

كما يذكر بو رقيبه نفسه قبيل موعد عودته الى تونس اتصلت به السفارة الفرنسية ترجوه ان يؤجل موعد العودة لان هناك مفاوضات جارية في تونس ولعل وجوده بها يدخل اضطرابا عليها فوعد بو رقيبة بالسعي لانجاحها (1) وقد عبر بو رقيبة عن استعداده للتفاوض مع فرنسا على اساس منح تونس اصلاحات مقابل عقد معاهدة مع فرنسا تخول لها امتيازات استراتيجية واقتصادية هامة وقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي حدا به للعودة وليس ما ادعاه بان صالح بن يوسف والمنجي سليم قد خانا الحركة (2) والدليل انه لم يقم بتصفية الحساب معهما حال عودته.

ويمكن ان نذهب الى ان سكوت المقيم العام بتونس "مونص" الذي بقيت له بعض الاموال المعلقة على عودة بو رقيبة لانقاذ مشروعه الاصلاحي" الفاشل" يدعم الفكرة القائلة بان بو رقيبة عند ما هاجر الى الشرق في 1945 كان بموافقة السلط الفرنسية و باتفاق مع الولايات المتحدة الامريكية .ففرنسا تعرف جيدا الفكر البو رقيبي "الاصلاحي" و مواقفه "المعتلة" من الحضور الفرنسي بتونس و عودته في ذلك الحين ستكثر التقارب الذي حدث اثناء غيابه بين الدستوريين والشيوعيين من ناحية والتقارب بينهم و بين احزاب المغرب العربي (حسب الاستقلال المغربي و حزب الشعب الجزائري) و يبرز ذلك من خلال ما اقره مؤتمر دار سليم في اكتوبر 1948 من تمتين الوحدة القومية حول ميثاق الاستقلال ، و تعزيز خطة الكفاح العليا للمغرب العربي ضمن وحدة الشعوب العربية" (3) و هذا يفند الفكرة القائلة بان سكوت سلطات الحماية كان خشية من اندلاع اضطرابات جديدة هي في غنى عنها (4) اذن هل عاد بو رقيبة لترتيب البيت داخل الحزب او لتصحيح مسار الحركة الوطنية؟ او لدفع فرنسا الى تنازلات جديدة في نطاق حل وسط؟

1) Bourguiba : Ma Vie... Op.Cit. P. 250.

1) مصدر سابق :
2) = = : الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية التونسية، ص/887.
3) = = : لمحة عن تاريخ الحزب الاشتراكي الدستوري ص/ 42
4) = = : تاريخ الحركة الوطنية التونسية : ص/11 .

كما يذكر بو رقيبه نفسه قبيل موعد عودته الى تونس اتصلت به السفارة الفرنسية ترجوه ان يؤجل موعد العودة لان هناك مفاوضات جارية في تونس ولعل وجوده بها يدخل اضطرابا عليها فوعد بو رقيبة بالسعي لانجاحها (1) وقد عبر بو رقيبة عن استعداده للتفاوض مع فرنسا على اساس منح تونس اصلاحات مقابل عقد معاهدة مع فرنسا تخول لها امتيازات استراتيجية واقتصادية هامة وقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي حدا به للعودة وليس ما ادعاه بان صالح بن يوسف والمنجي سليم قد خانا الحركة (2) والدليل انه لم يقم بتصفية الحساب معهما حال عودته.

ويمكن ان نذهب الى ان سكوت المقيم العام بتونس "مونص" الذي بقيت له بعض الاموال المعلقة على عودة بو رقيبة لانقاذ مشروعه الاصلاحي " الفاشل" يدعم الفكرة القائلة بان بو رقيبة عند ما هاجر الى الشرق في 1945 كان بموافقة السلط الفرنسية و باتفاق مع الولايات المتحدة الامريكية .ففرنسا تعرف جيدا الفكر البو رقيبي "الاصلاحي" و مواقفه "المعتلة" من الحضور الفرنسي بتونس و عودته في ذلك الحين ستكثر التقارب الذي حدث اثناء غيابه بين الدستوريين والشيوعيين من ناحية والتقارب بينهم و بين احزاب المغرب العربي (حسب الاستقلال المغربي و حزب الشعب الجزائري) و يبرز ذلك من خلال ما اقره مؤتمر دار سليم في اكتوبر 1948 من تمتين الوحدة القومية حول ميثاق الاستقلال ، و تعزيز خطة الكفاح العليا للمغرب العربي ضمن وحدة الشعوب العربية" (3) و هذا يفند الفكرة القائلة بان سكوت سلطات الحماية كان خشية من اندلاع اضطرابات جديدة هي في غنى عنها (4) اذن هل عاد بو رقيبة لترتيب البيت داخل الحزب او لتصحيح مسار الحركة الوطنية؟

او لدفع فرنسا الى تنازلات جديدة في نطاق حل وسط ؟

---

1) Bourguiba : Ma Vie... Op.Cit. P. 250.

1) مصدر سابق :
2) = = : الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية التونسية ، ص/887.
3) = = : لمحة عن تاريخ الحزب الاشتراكي الدستوري ص/ 42
4) = = : تاريخ الحركة الوطنية التونسية : ص/11 .

الاعداد للتفاوض :

* من داخل الحزب : لما عاد بورقيبة الى تونس في 8 سبتمبر 1949 فما كان عليه ان يفعل لمجابهة الوضع الذي آل عليه الحزب اثناء غيابه و الذي وصلته اخبار غير مرضية عنه و هو في " ديار الغربة" فكان من المتوقع محاسبة صالح بن يوسف و المنجي سليم عن " خيانتهما " و تواطئهما مع السلط الاستعمارية لوضع نهاية " فلاقة زرمديين " في 1948 ، ولكنه لم يفعل ! كان عليه ان يسترضي المجموعة "الشابة" بدمج بعض عناصرها فالديوان السياسي لكنه لم يفعل ! وكان عليه ايضا تصفية اجواء الحزب في الداخل باقصاء العناصر المناوئة له والتي وقفت ضده في اجتماع المجلس الملي المنعقد في 2 أوت 1949 و شككت في زعامته لكنه لم يفعل ! فماذا فعل اذن ؟

لقد قام بورقيبة باقصاء احد اعضاء الديوان السياسي و من وقف الى جانبه في اجتماع المجلس الملي المذكور انفا و هو سليمان بن سليمان فلماذ رفت سليمان بن سليمان من الديوان السياسي و هو المناضل المسؤول في الحزب لاكثر من خمسة عشر سنة ؟ فما هو الذنب الذي اقترفه حتى ينال هذا العقاب ؟

جاء في قرار الرفت الصادر عن اجتماع الديوان السياسي المنعقد في 8 مارس 1950 " انه تقرر فصل الحكيم سليمان بن سليمان عن الديوان السياسي و رفته من الحزب لمظاهره من الاصرار على منهضة المقررات الحزبية و التجاهر علانية بمقاومة الاتجاه الوطني البحت ذلك الاتجاه الذي يضمن للامة التونسية اجتناب كل خطر تريده لها حركات اجنبية لا تمت الى مصلحة الوطن بأدنى سبب" (1) .لقد اشار قرار الرفت" الى تعنت" سليمان بن سليمان و تمسكه " بحركة اجنبية" فما هي هذه الحركة ؟

1)"Mission " le 24 Mars 1950 (1

انهـا لا شـك الحـركـة العـالـمية للسلـم التي تنتمـي لـهـا اللجنـة التونسية للحـريـة والسلـم التي تـم الاعـلان الـرسمـي عـن بعثهـا خـلال اجـتماع عـام انعـقد بقصـر الجمعيـات يـوم 17 مارس 1949 و شـارك فـي هـذا الاجـتمـاع اللجنـة الوطنيـة للمثقفيـن التـونسييـن مـن اجـل الدفاع عـن السلـم ." الدستور الجـديد" الحـزب الشيوعـي التـونسي والاتحـاد العـام التـونسي للشغـل الاتحاد النـقابـي لعملـة القطـر التـونسـي . الشبيبـة الدستورية. الاتحـاد النسائـي بتونس والاتحـاد التـونسـي للشبيبـة الديمـقراطيـة (1) .

و من الملاحـظ ان هـذا الهيكـل قـد جمع بيـن الدستوريين والشيـوعيين (2) . مـن اجـل المشاركـة فـي المـؤتـمـر العـالمـي لانـصار السلـم المنـعـقد بباريس مـن 20 الـى 24 أفـريـل 1949 .

وفـي مـاي 1949 اصـدرت اللجنـة بيـانا بمنـاسبـة الـذكـرى 68 لانتـصاب الحمـايـة ذكـرت فيـه ان " النـضال مـن اجـل السلـم لا ينفصـل عن النضال ضـد الاستعمـار الـذي يمـثـل الـسـبب الـرئيـسي للحـروب (3) .

---

1) الحـبيب القـزدغـلي : اللجنة التونسيـة للسلـم والحرية : من الاجماع الى الاخـتلاف (1949 ـ 1951) : اعمال النـدوة الدولـيـة الخامسـة حول البلاد التونسية في فترة مـا بعد الحرب : 1945 ـ 1950 . ايـام 26 و 27 و 28 مـاي 1989 بكلية العلوم الانسانيـة والاجتماعيـة بتونـس منشورات المعهد الاعـلى لتاريخ الحـركة الوطنيـة ، تـونـس 1991 / ص ص 339 ـ 367 .

2) ونذكر من الدستوريين : علي بلهوان ـ النوري بودالي ـ عزوز الرباعي ـ الفرجاني بن الحاج عمار و بشـره بن مراد . اما من جانب الشيوعيين فنجد محمد مـراد الحبيب الدلاجي منجيـة المولدي ـ الهادي فـارج و مجيـد بودربالـه ـ . (نفس المصدر) .

3) l'Avenir de la Tunisie : 11 Mars 1949 (3

اما سليمان بن سليمان فقد شارك في هذه اللجنة بعد اتصال بعض اعضائها به وعرضوا عليه تمثيل اللجنة في اجتماع رومة المنعقد في 2 اكتوبر 1949 جانب محمد جراد والنوري بودالي ٠وكانت هذه المشاركة بموافقة الحزب(1)٠وكان ذلك ليس رعن اقناع من الحزب بجدوى الحركة العالمية للسلم وانما مناورة وتكتيكا انذاريا للكتلة الغربية خاصة امريكا التي كان الدستوريين يعولون على تدخلها لفائدة القضية التونسية بالضغط على فرنسا حتى تسعى الى تقديم " تنازلات" تلبى من خلالها طلبات الحزب ٠

فالحزب اراد اذن جلب انتباه الامريكان الى القضية التونسية بالتظاهر بمد اليد الى الشيوعيين (2)٠وكانت اداة التواصل سليمان بن سليمان وعزوز الرباعي في حين ابقى بن يوسف وصحبه على ولائه للكتلة الغربية٠

ومن هنا يبدوا وان هناك اتفاق ضمنيا بين اعضاء الديوان السياسي في تقاسم الادوار في هذه المرحلة من تاريخ الحرب الباردة بحيث لم تتبلور الرؤية بعد فلمن ستكون الغلبة ؟ للولايات المتحدة الامريكية او للاتحاد السفياتي ؟

الا ان اللجنة التونسية للحرية والسلم (C.T.L.P) قد توطدت فعلا في الاتجاه نحو المعسكر الاشتراكي الذي رأته خير سند ضد الامبريالية الغربية حليفة الامبريالية الفرنسية (3)٠وقد عبر بن سليمان عن هذا التوجه من خلال مقالاته في جريدة المسيون (4)٠

---

1) Sliman Ben Sliman: Souvenirs Politiques... P 285

1) مصدر سابق:

2) نفس المصدر : ص 312

3) نفس المصدر : ص 314

4)"Mission" N 52, Jeudi 7 Avril 1949, Dr, Ben Salem "Pour la paix contre la guerre" .

ولما عاد بورقيبة الى تونس في اواخر صيف 1949 كان الضباب الذي يكتنف الحرب الباردة بين القوتين العضمتين قد بدأ ينجلي نسبيا بقيام حلف شمال الاطلسي في افريل 1949 بحيث تعزز موقف امريكا في اوروبا مما جعلها تدخل مباشرة في الاضطرابات التي اثارها الشيوعيون في اليونان في اكتوبر 1944 فكانت المسألة اليونانية فرصة مناسبة ستعمل الولايات المتحدة على استقلالها للتدخل بصفة مباشرة في الشؤون الاروبية والعالمية (2)(1).

ومن ناحية اخرى تدخلت الولايات المتحدة في كوريا الجنوبية كما وقفت الى جانب فرنسا في حرب الفيتنام وذلك حتى تبرز، وكان بورقيبه لا يخفي عداءه للشيوعيين وكان كثير الاستياء للتقارب بين الدستوريين والشيوعيين خلال السنوات الاخيرة من الاربعينات لذلك عمل بعد عودته على تنقية اجواء الحزب مما شابه من هذا التقارب بداية من شهري فيفري ومارس 1950 كشف الشيوعيون مهاجمتهم للسياسات الامبريالية في الفتنام ويعني ذلك التعرض السافر لفرنسا ولا مريكه المورطتين في حرب الفيتنام مباشرة .

ولرفع تهمة الشيوعية التي قد تلصقها الدوائر الاستعمارية والغربية بحزبه طلب بورقيبة من رفاقه الاقلاع عن " ازدواجية الانتماء " (3). ودعا الديوان السياسي الدستوريين الى عدم تلبية نداء اللجنة التونسية للسلم والحرب الداعية الى تنظيم يوم ضد الحرب في فتنام وذلك يوم 11 مارس 1950 لان مثل هذا العمل قد يفسر بتحرك ضد السياسة الامريكية وهذا ما لم يعد الحزب

---

1) مصدر سابق: Guy de Carmoy: Les politiques etrangeres de la France.. OP,Cit,P 28

2) مصدر سابق: الحبيب القزدغلي : اللجنة التونسية للسلم والحرب/ص 363 .

3) مصدر سابق : Bessis et Belhassen: Bourguiba... OP. Cit. P, 124

يرغب فيه في مطلع الخمسينات و هو يعد نفسه لاكتساح فرنسا من الداخل و من خلال خاصة حلفائها :الولايات المتحدة الامريكية"

فهل هذا يكفي لتفسير التحول في موقف الحزب من اللجنة التونسية للسلم والحرية ؟

بعد وان الحزب الدستوري الجديد قد ساهم في تأسيس هذه اللجنة قصد اجتوائها والسيطرة عليها و يبرز ذلك من خلال رئاسة هذه اللجنة فقد تراسها كل من علي بلهوان و هو من الحزب الدستوري وسليمان بن سليمان و هو ايضا من الحزب الدستوري الى جانب الحضور المكثف للدستوريين في اجتماع 7 فيفري 1950 (1) ٠ ولكن الحزب فشل في خطة السيطرة على اللجنة وافتكاكها من الشيوعيين فصمد الى دعوة منخرطيه لعدم المشاركة في الاجتماعات والتظاهرات التي شوي هذه اللجنة تنظيمها على لسان كاتبه العام صالح بن يوسف "ان الديوان السياسي يحذر الشعب التونسي بصفة عامة والدستوريين بصفة خاصة من كل مشاركة من هذا النوع و يرغب من جميعهم الامساك عن التعاون تنشده لجنة الحرية والسلم اذ انه موجه الى غير مصلحة تونسية بحتة (2) ٠

الا ان سليمان بن سليمان لم يستجب لا لدعوة بورقيبة بالكف عن مغازلة المعسكر الاشتراكي ولا لنداء صالح بن يوسف لمقاطعة لجنة الحرية والسلم٠

وفي 17 مارس 1950 اجتمع بورقيبة بالدكتور بن سليمان لمدة اربع ساعات بحضور اثنين من قدماء المناضلين و هما المسؤولان عن شعبة ترنجة : بالحسين جراد و عمار حمودة اللذان يكنان لسليمان بن سليمان ودا كبيرا (3) ٠ ولم ينجح بورقيبة و من معه في اقناع بن سليمان بالانسلاخ من لجنة السلم٠

---

(1) مصدر سابق :
(2) الحرية : 1950/3/5 عدد 102 وصحيفة (ميسون) 1950/3/9
(3) مصدر سابق :تاريخ الحركة الوطنية ،وثائق ،الاستعداد للمحنة الثالثة (60-51) ص14 ٠

1)Sliman Ben Sliman Souvenirs Politiques P: 292.

(الا ان رفت بن سليمان لم يكن الا يوم 1950/3/24 ، بعد ترأسه الاجتماع الذي انتظم بدار النقابات (نهج اليونان و هو مقر الاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي) يوم 1950/3/22 لاجتماع ضد انزال 50 طائرة امريكية بتونس واسلحة حربية اخرى في نطاق تمكين اعضاء الحلف الاطلسي من احدث الاسلحة. ونـدد سليمان بن سليمان في كلمته التي القاها في هذا الاجتماع بموقف امريكا الاستعمارية" من حرب الفتنام في حين اشاد " بالاتحاد السفياتي العظيم معقل الحرية و موطن السلم" (1). لقد كان بن سليمان " كبش الفداء" المأسوف عليه ترفع تهمته " الشيوعية" على الحزب الدستوري الجديد ولا يبقى امامه من يعرقل دخوله في حوار مباشر مع فرنسا .

* من خارج الحزب :

لقد كان هم بورقيبة في مطلع الخمسينات دفع فرنسا الى الحوار المباشر مع تونس و عليه ان يوحد صفوفه داخل الحزب ليصبح اكثر تجانسا في عيون " الغرب" و عليه ايضا ان يظهر زعامة هذا الحزب للحركة الوطنية التونسية و انه الممثل الوحيد لها امام انظار البلدان الانقلوسكسونية و خاصة فرنسا التي بيدها وحدها وليس بيدغيرها حل القضية التونسية و لكن على الشعب التونسي دفعها الى ذلك و لهذا نظم الزعيم الحبيب بورقيبة سلسلة من الحوادث داخل البلاد في نطاق سياسة الاتصال المباشر بالشعب و لعل في ذلك ردا عن القائلين بان الحزب الدستوري الجديد اصبح شبيها " بالقدماء" لما ابدته قادته في المرحلة السابقة من تقرب الى البرجوازية والارستقراطية واهمال الفصل القاعدي والاتصال المباشر"

---

1) الطليعة : مارس 1950 ذكره الحبيب الفزدغلي : اللجنة التونسية للسلم والحرية : اعمال الندوة الدولية الخامسة (مصدر سابق) ص/940 .

ومن ناحية ثانية كان يهدف الى اختيار مكانة وصمعة حزبه داخل البلاد كذلك اختبار مدى استعدادات الشعب التونسي للخطوة الموالية " في مواجهة" الحضور الفرنسي بتونس والصورة التي يجب ان يكون عليها في ظل التحولات العالمية الجديدة هي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية" .

وبما ان المقيم "العام" صونس" من انصار القيام " بالتطورات الضرورية والاقلاع عن سياسة الجمود(1) فقد تغافل او سمح لرئيس الحزب الدستوري الجديد بعقد الاجتماعات والقاء الخطب المتنوعة المحتوى "حسب سامعيه" ففي قفصة مثلا القى " بورقيبة خطابا عالج فيه تاريخ الحركة "القومية" وتدسين اصول الكفاح من الداخل والخارج وبرنامج الحزب للوصول الى الاستقلال برضا فرنسي اوغصبا عنها (2) ! ما في قابس التي حل بها يوم 19/3/1950 فاسرع سكانها لا ستقباله " صغيرا وكبيرا " بعضهم عن وعي واخرون " حب الاطلاع" وعقد اول اجتماع له ببطحاء وراء المستشفى (المنشر) وهو على ملك العموميين " بضحاء الزعيم" وقد حضره ما يقرب من 40 الف جاؤوا من مختلف انحاء الجنوب(3) . وقد اقام بورقيبة في قابس من 19 الى 30 مارس 1950 بدار العيساوي الامين (دار الزعيم) وكان يعقد اجتماعين في اليوم صباحا و مساء وفي الليل يعقد حلقات للنقاش حتى انه عقد اربعة وعشرين اجتماعا واحد منها لقده في " سيدي بولباة "بعدد من النسوة في زيارة" المقام الجليل" وهو ما ان يلتقي بجمع من الناس حتى يقوم فيهم خطيبا (4) وكان بورقيبة يحرض

(1) مصدر سابق :تاريخ الحركة الوطنية التونسية :ص/ 24 .
(2) مصدر سابق :لمحة عن تاريخ الحزب الاشتراكي الدستوري :ص/ 46 .
(3) استجواب صالح بن احمد الشين في افريل 1985 وهو من مواليد 10/6/1911 بقابس، دستوري بقابس من مؤسس شعبة جارة الدستورية سنة 35 شارك في لجان الرعاية "لجريد السلاح سنة 54 القي القبض عليه عدة مرات وتنقل بين المحتشدات ، عين معتمدا بقبلي سنة 56 .
(4) نفس المصدر :استجواب صالح الشين .

على العمل والاستعداد للمشاركة الحاسمة. ففي هذه المنطقة الحساسة ذات الاهمية الاستراتيجية المتخاصة" للتراب العسكري" وبين هذه الجماهير الغفيرة التي هبت من كل مكان في الجنوب التونسي والذي عرفه التاريخ بطبع اهله المتشامخ الصلب ومزاجهم الابي المتشبع بروح التمرد " والثورة" لم يتمالك بورقيبة للدعوة الى " احداث دامية" ولكنه استدرك ليبين انه لا يعني الحرب وانما يعني عمليات تخريب يقوم بها " الفلاقة" الذين يجب ان يلتحقوا بالاحراش والجبال ، وفي اليوم الذي يلقي فيه القبض على " المسيرين" او يجد هؤلاء انفسهم امام مستحيل ما " اعرفوا تبرزوا اتحادكم وتماسكوا لانجاز المعركة الاخيرة" ولا تخشوا الرشاشات ولا المدافع ولا الطائرات وبذلك تعطون الفرصة لمنظمة الامم المتحدة (O.N.U) للتدخل مثل ما كان لها ذلك في الهند الصينية وسياتي اليوم التاريخي الذي يجبر فيه العلم ذو ثلاث الوان (الفرنسي) على التنحي ليعوض بالعلم التونسي (1) ويذهب بورقيبة الى حد القول "وبدمائكم يولد الاستقلال " والحرية لوطننا العزيز (2).

وأمام ما لمسه بورقيبة من حماس وتجاوب من تلك النفوس المتأهبة للثورة قرر تحدي السلط الاستعمارية التي حددت مجال تحركه وحذرته من اختراق التراب العسكري على لسان احد محافظي الشرطة الفرنسية عند ما صرح له السفارة العامة تعلمه بان التراب العسكري منطقة حرام ويحجر عليه دخوله (3) ولكن بورقيبة تطاول على هذا القانون الذي يجعل الجنوب التونسي مقاطعة منفصلة عن بقية اجزاء البلاد يرضخ للحكم العسكري منذ انتصاب الحماية سنة1881 ورغب بورقيبة في تجاوز الممنوع والدخول الى مدنين لعقد اجتماع بها لكن السلط الاستعمارية حالت دونه وذلك فاضربت مدينة قابس اضرابا عاما

---

1) الارشيف الوطني بالوزارة الاولى : 1)Yeves Perrussel 72P-D3-C54. بتاريخ 15/2/32 ص12/13

2) نفس المصدر: ص13

3) مصدر سابق: لمحة عن تاريخ الحزب الاشتراكي الدستوري ص46.

يـو مـي 30 و 31 مـارس و بعـثت الجامعـة الدستـو ريـة بقابـس ببـرقيات احتجاج الـى البـاي والمقيـم العـام ووزيـر الخـارجيـة الفـرنسيـة حـتى ان القـابسيـات اللـفـن اغنيـة حـول هـذه الحـادثـة .

آه يـاليـل يـاليـل يـا أمـي العبيـديـة
آش بيـه بـو رقـيبـة متغـشـش ، متغـشـش؟
عـلـى ارض قـبـلـي اللـي مـا خـشـش
يـاعـمـالـي بيـدي
آش بـيـه بـو رقـيبـه غـضـبـان ـ غـضـبـان
عـلـى ارض مـدنـيـن وبـنـقـردان ـ بنـقـردان
يـاعـمـالـي بيـد ي

لـقـد تـأكـد بـو رقيبـة مـن خـلال هـذه الجـولات التي جـاب خـلالهـا البلاد مـن شمـالهـا الـى غـربهـا مـن مـدى تغـلغـل وانتشـار هـياكـل الحزب الدستوري الجـديد والمنـظمـات الاجتمـاعيـة التـابعـة لـه بـصفـة سـريـة فـي اعـماق التراب التـونسـي وبالتالـي امكـانيـة تحـريـك الشعب بـواسـطتهـا لاحـداث شعـب واعمـال تخـريبيـة تكـون اداة ضغـط عـلى فرنسـا لارغـامهـا عـلى تطـويـر سيـاستهـا اوتكـون دليـلا وبـرهـانـا عـلى فشـل سياسـة فرنسـا "التقـليدية" فـي مستعمـرتهـا امـام الـرأي العـام الـدولـي .

فهـل فعـل " شـن بو رقيبـة الحـرب على الـفـرنسيين في الساحـة العامـة" مـثلمـا يقـول كـولونـا ؟ (2) . فهـل حـرض الشعـب عـلى التحـرك وبالتـالـي التـحـرر مـن الاستعمـار الفـرنسـي ؟ وهـل اصبـح يؤمـن بجـدوى الكـفاح ابان تـواجـده بالقـاهـرة ؟

يبـدو لـنا بو رقيبـة من خـلال تـصـريحـاتـه وكتـابـاتـه انـه مـا زال عـلى مبدأ "اليـد المـمدو دة" والاستعـداد الدائم للتعامـل والتعاون مع فـرنسـا من اجـل تجـديـد قـواعـد نظـام الحمايـة وضمـان الحضـو ر الفـرنسـي بتـو نس .

) استجواب صالح بن احمد الشين (جمعية البحوث والدراسات التاريخية والجغرافيـة بقابس)

يـو مـي 30 و 31 مـارس و بعـثت الجامعـة الدستـو ريـة بقابـس ببـرقيات احتجاج الـى البـاي والمقيـم العـام ووزيـر الخـارجيـة الفـرنسيـة حـتى ان القـابسيـات اللـفـن اغنيـة حـول هـذه الحـادثـة .

آه يـاليـل يـاليـل يـا أمـي العبيـديـة
آش بيـه بـو رقـيبـة متغـشـش ، متغـشـش؟
عـلـى ارض قـبـلـي اللـي مـا خـشـش
يـاعـمـالـي بيـدي
آش بـيـه بـو رقـيبـه غـضـبـان غـضـبـان
عـلـى ارض مـدنـيـن وبـنـقـردان بـنـقـردان
يـاعـمـالـي بيـد ي

لـقـد تـأكـد بـو رقيبـة مـن خـلال هـذه الجـولات التي جـاب خـلالهـا البلاد مـن شمـالهـا الـى غـربهـا مـن مـدى تغـلغـل وانتشـار هـياكـل الحزب الدستوري الجـديد والمنـظمـات الاجتمـاعيـة التـابعـة لـه بـصفـة سـريـة فـي اعـماق التراب التـونسـي و بالتالـي امكـانيـة تحـريـك الشعب بـواسـطتهـا لاحـداث شعـب واعمـال تخـريبيـة تكـون اداة ضغـط عـلى فرنسـا لارغـامهـا عـلى تطـويـر سيـاستهـا اوتكـون دليـلا و بـرهـانـا عـلى فشـل سياسـة فرنسـا "التقـليدية" فـي مستعمـرتهـا امـام الـرأي العـام الـدولـي .

فهـل فعـل " شـن بو رقيبـة الحـرب على الـفـرنسيين في الساحـة العامـة" مـثلمـا يقـول كـولونـا ؟ (2) . فهـل حـرض الشعـب عـلى التحـرك وبالتـالـي التـحـرر مـن الاستعـمـار الفـرنسـي ؟ وهـل اصبـح يؤمـن بجـدوى الكـفاح ابان تـواجـده بالقـاهـرة ؟

يبـدو لـنا بو رقيبـة من خـلال تـصـريحـاتـه وكتـابـاتـه انـه مـا زال عـلى مبدأ "اليـد المـمدو دة" والاستعـداد الدائم للتعامـل والتعاون مع فـرنسـا من اجـل تجـديـد قـواعـد نظـام الحمايـة وضمـان الحضـو ر الفـرنسـي بتـونس .

) استجواب صالح بن احمد الشين (جمعية البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بقابس)

بصرف اخرى (1) غير الطرق الكلاسيكية التي لم تعد تتماشى والتحولات العالمية من فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ،فالحزب الدستوري الجديد يكافح معاهدة باردو ولا يطرح القطيعة مع فرنسا والحضور الاستعماري بتونس عبر " احداث اضطرابات في البلاد" واللجوء الى الكفاح المسلح فما ذاك الا مناورة تكتيكية للفت نظر منظمة الامم المتحدة الى اثارة القضية التونسية في صورة عدم الوصول مع فرنسا الى اتفاق جوهري مشرف ،اما اثارة القضية في ظرف هادئ فامر مستحيل (2) .فمن خلال اتصالاته المباشرة اراد بورقيبة ان يدفع الشعب الى احداث مناخ متوتر ليدعم مجهوداته السياسية في الخارج فهو يرى من ان الشعب التونسي هو شعب صغير واعزل "بمثابة "غبار من الافران "يهفو الى ان يصبح حرا غير انه ينتظر هذا الانعتاق من " معجزة خارجية "التي لن تاتي اذا لم يعمل "شيئا" في الداخل (3) .لذلك حتى لا يرى سبيلا الى حرب بين تونس وفرنسا وانما اللجوء الى الكفاح المسلح لمدة شهر او ستة اشهر او عاما في انتظار التدخل الخارجي والمقصود هنا " الانجلوساكسون " الذين سيجدون في المقاومة المسلحة مظهرا شرعيا للضغط على فرنساحتى تمتثل لبرنامج الحزب الاصلاحي المعروف بالسبع نقاط الذي عرفه بورقيبة في فرنسا خلال شهر افريل 1950 وجاء في تصريحه لوكالة فرنس بريس ما يلي :

1) بحث السلطة التنفيذية التونسية التي هي عنوان السيادة التونسية .

2) انشاء حكومة تونسية مسؤولة عن الامن العام يترأسها وزير اكبر تونسي يعينه جلالة الملك الذي يتولى رئاسة مجلس الوزراء بوصفه رئيس الدولة .

3) الغاء الكتابة العامة للحكومة التونسية التي تسيطر على جميع ادارات وهكذا

1) مصدر سابق : Bourguiba:La Tunisie et la France.P.P:397-398.

2) من رسالة بعث بها بورقيبة الى العابد بوحافة بنيويورك بتاريخ 50/7/5 نشرتها صحيفة (ليفاقرو) المؤرخة بتاريخ 1952/7/5

3) مصدر سابق : Bouguiba:la Tunisie...Op,Cit;P: 218.

4) من نفس الرسالة المذكورة سابقا .

بصرف اخرى (1) غير الطرق الكلاسيكية التي لم تعد تتماشى والتحولات العالمية من فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ،فالحزب الدستوري الجديد تيكافح معاهدة باردو ولا يطرح القطيعة مع فرنسا والخضوع الاستعماري بتونس عبر " احداث اضطرابات في البلاد" واللجوء الى الكفاح المسلح فما ذاك الا مناورة تكتيكية للفت نظر منظمة الامم المتحدة الى اثارة القضية التونسية في صورة عدم الوصول مع فرنسا الى اتفاق جوهري مشرف ،اما اثارة القضية في ظرف هادئ فامر مستحيل (2) ،فمن خلال اتصالاته المباشرة اراد بورقيبة ان يدفع الشعب الى احداث مناخ متوتر ليدعم مجهوداته السياسية في الخارج فهو يؤمن ان الشعب التونسي هو شعب صغير واعزل "بمثابة "غبار من الافران "،يهفو الى ان يصبح حرا غير انه ينتظر هذا الانعتاق من " معجزة خارجية "التي لن تاتي اذا لم يعمل "شيئا" في الداخل (3) ،لذلك حتى لا يرى سبيلا الى حرب بين تونس وفرنسا وانما اللجوء الى الكفاح المسلح لمدة شهر او ستة اشهر او عاما في انتظار التدخل الخارجي والمقصود هنا " الانجلوساكسون " الذين سيجدون في المقاومة المسلحة مظهرا شرعيا للضغط على فرنساختى تمتثل لبرنامج الحزب الاصلاحي المعروف بالسبع نقاط الذي عرفه بورقيبة في فرنسا خلال شهر افريل 1950 وجاء في تصريحه لوكالة فرنس بريس ما يلي :

1) بحث السلطة التنفيذية التونسية التي هي عنوان السيادة التونسية .

2) انشاء حكومة تونسية مسؤولة عن الامن العام يترأسها وزير اكبر تونسي يعينه جلالة الملك الذي يتولى رئاسة مجلس الوزراء بوصفه رئيس الدولة .

3) الغاء الكتابة العامة للحكومة التونسية التي تسيطر على جميع ادارات وهكذا

1) مصدر سابق : 1)Bourguiba:La Tunisie et la France.P.P:397-398.

2) من رسالة بعث بها بورقيبة الى العابد بوحافة بنيويورك بتاريخ 50/7/5 نشرتها صحيفة (ليفاقرو) المؤرخة بتاريخ 1952/7/5

3) مصدر سابق : 2)Bouguiba:la Tunisie...Op,Cit;P: 218.

4) من نفس الرسالة المذكورة سابقا .

تمسر بزمام جميع السلط الادارية في البلاد التونسية .

4) القاء المراقبين المدنيين الذين يقومون بالادارة المباشرة وهو ما يتنافى مع السيادة التونسية .

5) الغاء الجندرمة الفرنسية التي يرجع امرها الى وزارة الدفاع الوطني الفرنسية وهي لذلك تعتبر في انظارنا الاحتلال العسكري الفرنسي لبلادنا .

6) احداث بلديات منتخبة بها ممثلون عن المصالح الفرنسية وذلك في جميع الجهات التي توجد بها اقليات فرنسية .

7) احداث مجلس وطني منتخب بالاقتراع العام وذلك في نطاق البرنامج التشريعي ومهمة هذا المجلس الاولى تحوير دستور ديمقراطي يحدد العلاقات الفرنسية التونسية على قاعدة احترام المصالح المشروعة التي لفرنسا واحترام السيادة التونسية في نفس الوقت (1) .

ونلمس من خلال هذا البرنامج دعوة بورقيبة الى العودة الى روح المعاهدة بباردو التي الحقت بها عدة تجاوزات ولم "تطبق بصدق" وانما تحولت لتنفي السيادة التونسية خارجيا وداخليا لذا يرى بورقيبة ضرورة تركيز حكومة تونسية متجانسة يترأسها وزير اول يعينه الباي مع احداث " برلمان " منتخب يساهم التونسيون من خلاله في الحياة السياسية تكون مهمته الساسية اعداد دستور للبلاد وفي هذا ضرب للملك المطلق ودعوة الى نظام حكم جديد وهو " الملكية الدستورية" وهي فكرة طرحها صالح بن يوسف في جوان 1949 اذ قال ان الدولة التونسية ستكون دولة ذات نظام ملكي دستوري ديمقراطي (2) . والتي استجاب لها محمد الامين باي في خطاب العرش في 15 ماي 1951 لقد عزمنا تخطي خطوة اخرى تتناول في ان واحد تعديل اداة التنفيذ وكيفية تركيزها على قاعدة تمثل شعبنا في تشكيلات منتخبة وتحديد اختصاصات هاته التشكيلات امام المقيم العام الجديد السيد بيبريلي (Perillier) فقد رد على جزء من النقطة الاولى من برنامج بورقيبة بتخليه في فيفري 1951 عن رئاسة مجلس الوزراء . كما الغت اصلاحات

1) مصدر سابق : تقرير ايفا سيروسال Yves Perrus بتاريخ 16 فيفري 1952 ص 20-21 .
2) Charles André Julien: Et la Tunisie. P: 26-ssel

تمسر بزمام جميع السلط الادارية في البلاد التونسية .

4) القاء المراقبين المدنيين الذين يقومون بالادارة المباشرة وهو ما يتنافى مع السيادة التونسية .

5) الغاء الجندرمة الفرنسية التي يرجع امرها الى وزارة الدفاع الوطني الفرنسية وهي لذلك تعتبر في انظارنا الاحتلال العسكري الفرنسي لبلادنا .

6) احداث بلديات منتخبة بها ممثلون عن المصالح الفرنسية وذلك في جميع الجهات التي توجد بها اقليات فرنسية .

7) احداث مجلس وطني منتخب بالاقتراع العام وذلك في نطاق البرنامج التشريعي ومهمة هذا المجلس الاولى تحوير دستور ديمقراطي يحدد العلاقات الفرنسية التونسية على قاعدة احترام المصالح المشروعة التي لفرنسا واحترام السيادة التونسية في نفس الوقت (1) .

ونلمس من خلال هذا البرنامج دعوة بورقيبة الى العودة الى روح المعاهدة بباردو التي الحقت بها عدة تجاوزات ولم "تطبق بصدق" وانما تحولت لتنفي السيادة التونسية خارجيا وداخليا لذا يرى بورقيبة ضرورة تركيز حكومة تونسية متجانسة يترأسها وزير اول يعينه الباي مع احداث " برلمان " منتخب يساهم التونسيون من خلاله في الحياة السياسية تكون مهمته الساسية اعداد دستور للبلاد وفي هذا ضرب للملك المطلق ودعوة الى نظام حكم جديد وهو " الملكية الدستورية" وهي فكرة طرحها صالح بن يوسف في جوان 1949 اذ قال ان الدولة التونسية ستكون دولة ذات نظام ملكي دستوري ديمقراطي (2) .والتي استجاب لها محمد الامين باي في خطاب العرش في 15 ماي 1951 لقد عزمنا تخطي خطوة اخرى تتناول في ان واحد تعديل اداة التنفيذ وكيفية تركيزها على قاعدة تمثل شعبنا في تشكيلات منتخبة وتحديد اختصاصات هاته التشكيلات امام المقيم العام الجديد السيد بيبريلي (Perillier) فقد رد على جزء من النقطة الاولى من برنامج بورقيبة بتخليه في فيفري 1951 عن رئاسة مجلس الوزراء . كما الغت اصلاحات

1) مصدر سابق : تقرير ايفا سربروسل Yves Perrus بتاريخ 16 فيفري 1952 ص 20-21 .
2) Charles André Julien: Et la Tunisie. P: 26-ssq

نيفمبر 1951 خطة الكاتب العام للحكومة التونسية .

اما النقطة السادسة التي تمنح الفرنسيين حق التواجد في مجالس البلديات المنتخبة فقد اثار معارضة في تونس من خارج الحزب خاصة من طرف الحزب الحر الدستوري القديم اذ جاء في بيان اللجنة التنفيذية : "ان معاهدة باردو المنعقدة في 1881 وحتى اتفاقية المرسى التي تلتها في سنة 1883 لا تجيزان ابدا تلك المشاركة واذا كان الفرنسيون في الحالة الراهنة ممثلين في مجالسنا المنتخبة فان هذه الحالة المتناقضة للمشروعية من نتيجة القوة والقوة لا ينبني عليها الحق اصلا ولا تصلح ابدا ان تكون سدا له(1) .

ويمكن ان نجد اجابة عن هذا الموقف من خلال رسالة بورقيبة الى العابد بوحافة (مذكورة سابقا) .

"القدماء فمنذ امد طويل تقلص هذا الحزب الى شرذمة من الحساد والحاقدين الذين اعرضت عنهم الجماهير الشعبية وخسروا حظوتهم لديها فانحصر نشاطهم في اتخاذ مواقف صلبة يزداد تحجرها احيانا وذلك لمجرد الظهور وهدفهم الوحيد تخريب عملنا والسعي لتعطيله" ثم يضيف بورقيبة" وليس لهم من الاسباب التي تحدد مواقفهم السياسية غير الضغينة والحقد على الدستوريين الجدد والغيرة منهم.

ولكن ما هو موقف الرأي العام الفرنسي ولسيما الحكومة الفرنسية الموجه لها هذا البرنامج .

في فرنسا كانت لها القضية الهندية الصينية تخيم على الساحة السياسية وكانت محل جدال التيارات الفكرية والسياسية وجاءت المقترحات متضاربة بين الداعية للحزب وبين المنادية للسلم ففي 14 جانفي 1950 اعترف" هو شي منه" بالجمهورية الشعبية الصينية فرد عليه" ماوينتسي تونق" باعترافه بحكومة وفي 30/1 /اعترف الاتحاد السفياتي بالجمهورية الديمقراطية بالفتنام وفي 2 فيفري ضمت لاوس وكمبوديا كدول مستقلة

1) مصدر سابق : الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية التونسية ص100
وقد صدر هذا البيان في النهضة بتاريخ 6 ماي 1950 .

وفي نفس الشهر اعلن الجنيرال "جياب" (Giap) عن تحول حرب العصابات في الهند الصينية الى حرب حقيقية (1) يدعم من الصين .

وخوفا من انتشار الشيوعية نزلت الولايات المتحدة بثقلها في شرق آسيا فاتخذت الحرب صبغة دولية وفرضت نفسها على المجتمع الدولي وخاصة على الرأي العام الفرنسي في فترة بدأت الاحزاب اليسارية تنحصر امام التعبئة الكبرى ضد الشيوعية في سنة 1948 حتى ان الاحزاب الاشتراكية بدأت تتخلى عن فكرة " تحقيق الاشتراكية" بتكيف النظام الرأسمالي ببعض الاصلاحات لفائدة الطبقة العاملة وضعفاء الحال والتعاون بين الطبقات . ومع اشتداد الحرب الباردة ازداد العداء للشيوعية وتدعمت " اللبرالية" فتعزز موقف اليمين " مثلما يظهر في سيطرة "ديقوليين" على الحكومة وطغت فكرة المحافظة على اراضي الامبراطورية الفرنسية رمز القوة الفرنسية ومجدها ولكن كيف؟

وهنا تباينت الاتجاهات بين مؤيد لأستخدام القوة العسكرية للمحافظة على سمعة فرنسا وبين معارض اقتراح طرق سلمية تهدف الى اجراء التعديل والتحوير للنظام البائد دون ان يكون هناك ضغط محلي او دولي " (2) بينما ارتفعت اصوات اخرى ولو باحتشام تساند حركات التحرر وتدعم نشاط الشعوب ضد الامبريالية لتنفذ مبادي الثورة الفرنسية التي هي مجد فرنسا .

وخوفا من التسلل الشيوعي الى نفوس الدستوريين في صورة بأسهم من " احرار فرنسا " طالب الحزب الاشتراكي الفرنسي بفتح مفاوضات جديدة" لتحديد الغاء الحماية وابرام معاهدة ترابط لتنسيق عمل تونس وفرنسا في مجال الدفاع الوطني والسياسة الخارجية والروابط الاقتصادية والثقافية وذلك في نطاق الوحدة الفرنسية (3) ورغم ان الحكومة الفرنسية كانت تنزع

1) Guy de Carmoy: les Politiques...Op,Cit,P: 172.
1) مصدر سابق:
2) صحيفة "لوند" بتاريخ 19 / 4 / 50 : رسالة من شارل اندري جليان (مستشار الوحدة الفرنسية)
3) لو بشوماتان : 4/6/50 : بيان الحزب الشيوعي التونسي .

الى التصلب وتميل اكثر الى استعمال القوة لصهر الشعوب فيما وراء البحار داخل بوتقة "الاتحاد الفرنسي" عكس ما كانت تدعو اليه من استعمال اللين والاقناع لتحقيق الوحدة الاوروبية فقد استجابت الى وجهة نظر الاشتراكيين محاولة " ربح الوقت" وامتصاص غضب الشعب التونسي ولا سيما ان بورقيبة اصبح يلوح " بالكفاح المسلح " وينذر فرنسا بان ذلك في غير صالح فرنسا (1) واذانا منها بانها ستسلك سياسة جديدة في تونس مثلما جرت العادة عينت في 1 جوان 50 لويس بيريلي (Perillier) مقيما عاما جديدا بتونس وحدد روبار شومان (Robert Chuman) (2) مهمته في خطاب القاه في 9 جوان 1950 بمدينة والذي يقول فيه" ومنذ هذه الليلة اريد ان اعبر عن مبلغ تقديري للذين يبحثون عن فهمنا والذين يفهموننا و ذلك البحث عن التفاهم هو كل سر الوحدة الفرنسية .

و مهمته م بيرلي هي فهم الاوضاع وحمل تونس على السير في طريق الازدهار الكامل ازدهار ثرواتها و مواردها واقتياد هانحو الاستقلال الذي هو الهدف النهائي لجميع الاراضي الداخلة في نظام الاتحاد الفرنسي (3)

وامام ما اثارت هذه الكلمات من تأويل نورد نصّها الكامل بالفرنسية :
"M.Perillier, aura pour mission de comprendre et de Conduire la Tunisie vers le plein épanuissement de ses richesses et de l'amener vers l'independance qui est l'objectif final pour tous les territoires au sein de l'union Française."
لم يكن روبار شومان يتوقع منا هذه الكلمات ستثير بلبلة لدى الفرنسيين والتونسيين فيذهبون الى تفسيرها تفاسير شتى وتكون المواقف المتناقضة بين المستنكر

---

1) تصريح بورقيبة يوم 8 ماي 50 لجريدة : Le Journal de Genéve.

2) روبار شومان :كان يشغل اذاك منصب وزير الخارجية وهو نائب مقاطعة لاموزيل في البرلمان الفرنسي في حين كان لويسبيريلي وليا عليها قبل تنصيبه مقيما عاما بتونس

3) النهضة بتاريخ 31 جوان 1950 .

والمؤيد ولهذا اضطر وزير الخارجية الفرنسي الى التوضيح لرفع اللبس: " فانا افصحت عن يقيني بان السيد بيري سيتمكن من ادراك جوائح تونس ومطامحها كما وفق في خدمة سكان المنطقة الشرقية وفهمهم " (1) بما ان القضية التونسية مختلفة عن بقية الاقطار التابعة لفرنسا بحيث انها تخضع لعقد خاص وتطرح مشكلا خاصا (2). يرى السيد بيريلي حله في " اصلاح السلطة العامة و سير دواليب الادارات(3) استجابة لما جاء في رسالة الباي الى رئيس الجمهورية الفرنسية " فانسان أوريول بتاريخ 11 افريل 1950 : " اعتبارا منا لسنن التطور الحتمية (رغبنا) في تحقيق اصلاحات ملاحة وجوهرية تسهم في حل ناجح لكل المشاكل المتولدة عن النظام الذي تخضع له حاليا فرنسا العزيزة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد اكد الباي عن هذه الرغبة عند زيارة المجاملة التي اداها له المقيم العام الجديد يوم 1950/6/04 بقوله: "كيف لا ونحن نشعر جليا انه يروقكم ان تنتسبوا بالتبني الى البلاد التونسية نحسبكم ان تعلموا ان اخوتكم بالتبني قد كبروا منذ فارقتمونا حتى لا يتعذر عليكم ان تعرفوهم لما بلغوا اليه من التطور السريع اما النضج الفكري فانه ليبهركم بلا ريب" .

مثل هذا القول سيجعل مفاهمة باردو" المؤقتة" المتوقعة على نضج الشعب التونسي محل استفهام؟ كما ان هذا القول يوحي بالتقاء الباي مع مطالب الحركة الوطنية التونسية وفي ذلك خطر يقدر بما قد يقع في تونس على غرار ما يجري في المغرب من التحام بين الملك محمد الخامس والحركة المغربية.

فالباي رمز الذاتية التونسية والمعترف به من طرف فرنسا مثلما جاء في تصريح وزارة الخارجية الفرنسية في 15 افريل 1950.

---

1)Le "Monde": 13 juin 1950.

2) نفس المصدر.

3) من تصريح المقيم العام الجديد باذاعة تونس ونشرته جريدة "النهضة" بتاريخ 13 جوان 50

ليس لكائن من كان صفة التكلم باسم البلاد التونسية عدى جلالة الباي
يمكن لفرنسا المرتبطة بتونس باتفاقيات ذات صبغة دولية ان تجري مباحثات
سرية مع غير الممثل الشرعي للبلاد التونسية اي ملكها ؟

وكان الباي محمد الامين اراد التكفير عن ماضيه بالتقرب من الحركة الوطنية
ودعم مطالب الحزب الدستوري الجديد بايعاز من صالح بن يوسف الذي كان تربطه
بالقصر" علاقات شخصية والذي كان يسعى في ما يبدوا الى كسب هذا الملك
الشرعي " وبالتالي حرمان نظام الحماية اهم ركيزة تقليدية لها في تونس. وقد حاول
بورقيبة استغلال هذه الصلة فناشد بن يوسف على ان يحث الباي وابنه الشاذلي باي
على رفض مقترحات المقيم العام الجديد المتمسكة بمظاهر السيادة المزدوجة في رسالة
بعث بها الى صالح بن يوسف من باريس بتاريخ 14 جوان 1950 يقول فيها : "يتعين
علينا اذن افهام الباي و سيدي الشاذلي باي انه عليهما ان يكونا صارمين بخصوص
هذه النقطة (1) ازدواج السيادة في السلطة التنفيذية)في حين كان بورقيبة قبل
اسبوع من هذا التاريخ اي يوم 7 جوان 1950 قد بعث برسالة الى جلولي فارس يحذر
من استدراج القصر وادماجه في اللعبة " (2) اذ ان بورقيبة يعتقد جازما بان الباي
سيناضل دستوريا ولا يرغب بتاتا في الامضاء على مذكرة لمنظمة الامم المتحدة
تبحث القضية التونسية حتى لا يضع نفسه في موقع حرج ولا يريد التعرض لردود فعل
فرنسا الثأرية الماسكة بحظوظه وحظوظ عائلته وكذلك يتحتم استبعاده" (3).

ان الظرف التاريخي في بداية الخمسينات يحتم على بورقيبة و رفاقه ان يبدوا متحدين
ظليا في " وحدة صماء" حتى يكتسحوا الرأي العام الخارجي سواء في فرنسا او في
العالم الحر ولا سيما الولايات المتحدة الامريكية التي ما انفك بورقيبة يغازلها على حساب
البوعيين و يرى فيها اداة ضغط فعالة لاجبار فرنسا على حل المشكل التونسي بما ان
فرنسا هي " الخصم والحكم" !في اقامة النظام الجديد.

---

(1) مصدر سابق : تاريخ الحركة الوطنية التونسية ... (الصفحة الثالثة)
(2) نفس المصدر : ص 125.
(3) من الرسالة الثانية التي بعث بها الى العابد بوحافة بتاريخ 5 جويلية 1950.

ولكن ما هو هذا النظام الجديد الذي يرغب في اقامته الدستوريين و عناصر من الاتجاهات السياسية والفكرية وحتى من داخل الحكومة الفرنسية نفسها ؟ وهل هذا الاتفاق يعكس وحدة و جهات النظر بين الطرفين و بالتالي فض المشكل التونسي " بالتراضي " عبر المفاوضات ؟ لماذا ؟

* ـ المفاوضات :

في 17 اوت 1950 تشكلت وزارة جديدة برئاسة محمد شنيق بصعوبة جمة امام اعراض التونسيين عن قبول مناصب وزارية "موالية لفرنسا" (1) نظرا لما واجهته وزارة الكعاك من انتقادات واهانات حتى ان الكعاك نفسه قد صفع علنا في احد اللقاءات الرسمية ،كما انه من الصعوبة ايجاد وزراء يتمتعون بثقة الفرنسيين وفي الان نفسه ثقة التونسيين ولا سيما ان النخبة التي قررت فرنسا تشريكها في تسيير البلاد هي رافضة المتحويرات السطحية التي دعا اليها المقيم العام الجديد .

وأمام هذا المأزق يبرز الحزب الدستوري الجديد باسطا يده الى السلط الفرنسية مقترحا مشاركته في التشكيلة الوزارية الجديدة بعد ما تمكن رئيسه الحبيب بورقيبة وكاتبه العام صالح بن يوسف من اقناع اعضاء المجلس الملي للدستور الجديد مخططها من اجل "الخروج من ازمة الوضع الحالي والقضاء على سياسة الجمود بالغاء الحكم الفرنسي المباشر" (2) وبهذه المشاركة يقيم الحزب الدستوري الجديد " برهان صدق النية امام الاحزاب الفرنسية" المشككة فيه ومن ناحية اخرى يدفع التونسيين "المترددين" الى الاقتداء به وبالتالي يظهر امام الرأي العام الفرنسي مظهر القوة الحية الفاعلة في البلاد فيجبره على الاعتراف به كممثل للشعب التونسي وناطق بلسانه و معبر عن طموحاته . وفعلا دخل الحزب الوزارة المزدوجة وباحد ابرز عناصره كاتبه العام صالح بن يوسف .لماذا صالح بن يوسف وليس بورقيبة مثلا ؟اوكان بورقيبه لا يجد من بين رفاقه من هو كفء لهذه المهمة التي يعلق عليها آمالا كبيرة غيره .

1) من رسالة عضو مجلس الشيوخ انطوان كولونا الى صحيفة "لوموند" 5 ماي 1950 .
2) عن لائحة المجلس الملي للدستور الجديد في 4 اوت 1950 .

كن الاجابة تكمن في المرحلة التاريخية نفسها (بداية الخمسينات) فعلى بو رقيبة يختار من يتمتع بثقة الباي وحظوة الشعب في الآن نفسه وليس هناك من هو افضل من بن يوسف كما ان بو رقيبة يعرف جيدا نوع المهمة التي ستقوم بها الوزارة الجديدة تحت رئاسة محمد شنيق وهي التفاوض مع فرنسا . فبماذا يتعلق هذا التفاوض؟ وهنا يكمن الخلاف وجهات النظر بين الطرف التونسي والطرف الفرنسي ولا اظن ان هذا كان خافيا على بو رقيبة فالطرف التونسي الذي انظم الى وزارة يعتقد انه سيفاوض من اجل الاستقلال الداخلي كما يبرز واضحا في خطاب محمد شنيق عند تقديم الوزارة الجديدة الى الباي : ان الوزارة ستفاوض المسألة بين ايديكم ستأخذ على عاتقها ... مهمة قوة البلاد التونسية نحو الاستقلال الداخلي يتسع نطاقه شيئا فشيئا استجابة لرغائب امتكم المخلصة الوفية في استرجاع السيادة التونسية بكامل حقوقها ومميزاتها (1) . وكان بو رقيبة خبيرا بافكار صالح بن يوسف الذي حضر مؤتمر ليلة القدر 1946 وصادق على وثيقة الاستقلال وهو متشبث بمبدإ الاستقلال الداخلي كخطوة اولى نحو السيادة الكاملة وبالتالي مشاركته في المفاوضات ستكون على اساس :

1) تشكيل حكومة متجانسة وارجاء النظر في وزارة المالية الى مرحلة ثالثة في المفاوضات .
2) الغاء منصب الكاتب العام للحكومة وتعويضه بموظف تونسي .
3) الغاء الاشراف الفرنسي على ميزانية الدولة .
4) الغاء الدرك الوطني الفرنسي .
5) الغاء خطة المراقبين المدنيين الفرنسيين .
6) تشكيل مجالس بلدية مزدوجة عرب ـ فرنسيين .
7) انتخاب مجلس وطني تونسي توكل اليه مهمة اعداد الدستور للبلاد .

هذا البرنامج مستمد كليا من "النقاط السبع" التي طرحها بو رقيبة على الرأي العام الفرنسي في افريل 1950 وهو في الحقيقة احياء مطالب قديمة . جديدة تحوم حول الحكم الذاتي" وبهذا يهدف الى تنقية معاهدة باردو 1881 من التجاوزات التي الحقت بها نتيجة العقود المكملة ، ويمكن ان نلاحظ ان هذا البرنامج قد اعاد صياغة برنامج الحزب الدستوري

---

1) صحيفة النهضة : 18 أوت 1950 .

التونسي القديم في سنة 1920 بل نلمس فيه اعتدالا مفرطا الى حد اقرار ما لم تقره لا معاهدة باردو ولا اتفاقية المرسى و هي تلك المجالس البلدية المزدوجة (عرب ـ فرنسيين) كما نلاحظ ان به تراجعا عما كانت تطالب به الحركة الوطنية التونسية منذ مطلع القرن اللغة العربية التي يجب ان تكون اللغة الرسمية للبلاد التونسية مع توفر كامل الحرية لوجود لغات اخرى (1) . فهذه النقطة التي تشكل حجر الزاوية في المطالب التونسية نجدها غائبة في هذا البرنامج ولعل ذلك يمكن ان نفسره بأن هذه المطالب ليست فعلا برنامجا سياسيا متكاملا يحدد ملامح الحكم الذاتي المنشود وانما هي بسط خطوط عريضة دون التعمق في " الاصول " فما بالك بالتفاصيل ! " فجاءت كانها عملية جس نبض اكثر من ان تكون برنامجا نهائيا " (2) . ولذا يبدوا واضحا تجنب ما يثير الاختلافات الجوهرية حتى لا يقبل بالرفض .

ويمكن ان نذهب الى ابعد من هذا لنقول ان بورقيبة الذي رفضت الحكومة الفرنسية بباريس التفاوض معه في افريل 1950 لانه لا يحمل صفة تمثيل الشعب التونسي فهو " شخصية تونسية مجردة من كل وظيفة رسمية " (3) . وجد في الوزارة التفاوضية الصيغة القانونية والشرعية لطرح برنامجه ذي " السبع نقاط " من جديد على الرأي العام الفرنسي وخاصة على مائدة الحكومة الفرنسية نفسها لمناقشته ولعل هذا ما جعله يتوارى وراء صالح بن يوسف الذي دخل المفاوضات مباشرة في حين بقي بورقيبة خارجها لمراقبتها وتتبع تطوراتها مع اسداء توجهاته لكن دون ان يكون المسؤول المباشر عما قد ينجر عنه .

وبعد لنا ان نتساءل لماذا قبل بن يوسف المشاركة في وزارة شنيق ونظام الحماية قائم على حاله ؟ اليس في هذه المشاركة تنكرا للوائح مؤتمر ليلة القدر 1946 او خيانة لقضية المغرب العربي فميثاق لجنة التحرير للمغرب العربي ؟ او انه استبدل فكرة الاستقلال بفكرة اصلاحات ترجع ترجع بالبلاد الى 1922 ؟ وان تعوزنا البيانات الشافية الصادرة عن حضرة المجاهد الاصغر

---

1) مصدر سابق : Mahjoubi(Ali) : les Origines...Op,Cit;P: 225.

2) من مقال لفرنسي يقيم بتونس كان قد شغل خطة مراقب مدني سابقا ثم اصبح مراسلا لصحيفة " لومند تحت عنوان تونس في مفترق الطرق ـ نشر 15 ، 16 ، 17 ، 18 جويلية بالصحيفة المذكورة

3) مصدر سابق : تاريخ الحركة الوطنية التونسية : ص146 .

والرئيس المتواضع (1) وهي القاب تبدو ملائمة لمكانة بن يوسف اذاك داخل حزبه الذي هو امين عام له ـ فيمكننا ان نقربان بن يوسف لا يخالف حزبه في ضرورة المشاركة في وزارة شنيي باعتبارها تشكيلة انتقالية " وعليها ان تقود البلاد في اجل مناسب نحو" الحكم الذاتي " اي ارساء السيادة التونسية من جديد في الميدان الداخلي بكل حقوقها وامتيازاتها مبتدئة بتخليص السلطة التنفيذية التونسية من كل القيود وانواع الرقابة التي تضيق عليه الخناق. (2)

لقد اغتنم الحزب الدستوري الجديد من وصول الاشتراكيين الى الحكم في فرنسا فاخذ يلطف من لهجته ويعدّل من مواقفه لعله يحظى بتأيدهم وابدى ثقته في السلط الفرنسية بتونس على اساس ما صرح به السيد " شومان من ضرورة وضع نهاية للادارة المباشرة التي لا توافق روح المعاهدات (3) واكده السيد بيريلي يوم 13 جوان 1950 " ولكن من الانصاف ان تسير البلاد التونسية بواسطة تغييرات تدريجية في مؤسساتها نحو حكم ذاتي داخلي هو في الحقيقة يتماشى مع روح تلك المعاهدات فبين يوسف مثل رئيسه بورقيبة يؤمن بسياسة المراحل (4) ويقنع باصلاحات في نطاق روح معاهدة بارد وكما يساند الفكرة القائلة بان الجغرافيا تحكم التاريخ ، اذ اعلن في حفلة 27 رمضان التي اقيمت لاحياء ذكرى ميثاق ليلة القدر بارتباط تونس بفرنسا في السياسة الخارجية وقال : "اننا جغرافيا (5) من اروبا فلا ممدوحة لنا من الدخول فيما دخلت فيه فرنسا ، اذن دخل الحزب الدستوري الجديد الوزارة التفاوضية بكاتبه العام صالح بن يوسف الذي تقلد خطة وزير العدل في التفاوض مع فرنسا حول "اصلاحات لا تخرج عن الوضع التعاقدي الذي الذي يجمع تونس وفرنسا . اما الجانب الفرنسي فقد سعى الى تشكيل وزارة جديدة برئاسة شخصية تونسية معروفة بخدماتها الوطنية في عهد الانصاف باي وهو

1) صحيفة الارادة : 15 أوت 1950 : محي الدين القليبي ينكرون اليوم ما عملوا بالامس.
2) صحيفة : ميسون : 18 اوت 1950 : الهادي نويرة "استقلال تونس هدفنا".
3) مصدر سابق :
B) Bourguiba et la Tunisie. P: 240.
4) صحيفة : النهضة : 13 جوان 1950 : تصريح المقيم العام الجديد باذاعة تونس.
5) مصدر سابق : صحيفة : الارادة : 15 اوت 1950.

محمد شنيق في 17 اوت 1950 و تشكلت هذه الوزارة طبقا للاصلاحات 1949 (المرفوضة) بمعنى ستة وزراء فرنسيين و ستة تونسيين و هم" حضرات اصحاب المعالي :

- صالح بن يوسف وزير العدلية التونسية .
- محمد المطري وزير الدولة .
- محمد الصالح مزالي وزير التجارة والصناعة .
- محمد بن صالح وزير الصحة .
- محمد بدرة وزير الشؤون الاجتماعية .
- محمد سعد الله وزير الفلاحة .

و هذه الوزارة في نظر المقيم العام وزارة اتحادية ترجح عن اغلب النزاعات و هي في الحقيقة لا تضم ممثلين عن مختلف الاحزاب والمنظمات في البلاد الا بعض العناصر من النخبة المثقفة رأت السلط الفرنسية فائدة من وراء تشريكهم في ادارة شؤون بلادهم مشاركة متدرجة " في نطاق تدريبهم لتحقيق حسن سير المصالح العمومية على اختلاف درجاتها (1) .

اما مهمة هذه الوزارة فقد تحدث السيد بيريلي" في تبادل وجهات النظر بشأن الاصلاحات التي تهتزم حكومة الجمهورية الفرنسية القيام بها والمتمثلة فيما يلي :

1)تدعيم ذاتية الحكومة التونسية و ذلك بتمكين الوزراء من نفوذ اوسع ومسؤوليات اكبر تتماشى والمشاكل الهامة الواجب حلها (مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية) .

2) اصلاح الوظيفة العمومية بهدف فتح المجال اوسع للتونسيين لتبوء مختلف الوظائف.

3) الاصلاح البلدي الذي سيسمح بانتخاب من يتولون ادارة شؤون البلاد .

و هذا يمكن ان نلاحظ ان النقاط الثلاثة تسير في اتجاه معاكس لاتجاه" النقاط السبع" منذ البداية وان رأينا هدف المفاوضين التونسيين الغاء "العقود اللاحقة" لمعاهدة باردو فالفرنسيون يتمسكون بهذه العهود" لقد اضاف الى معاهدة باردو واتفاقية المرسى ما اصطلح على تسميته بالعقود اللاحقة التي اكملت وعدلت المعاهدتين . وهو اوامر ختمها سمو الباي واصدرها المقيم العام "فمن وجهة نظر

1) مصدر سابق : صحيفة النهضة : 13 جوان 1950 تصريح المقيم العام الجديد .

الفرنسيين سيكون التفاوض حول اصلاحات في ظل الرقابة الفرنسية دون الخروج عن اهداف مهام المقيم العام الفرنسي التي حددها في تصريح 3 جوان 1950 و هي :

- انماء الروابط الثقافية .
- اعداد مراحل تطورات المؤسسات .
- و السهر في نطاق روح هذه المبادئ على تواصل قيام فرنسا بمهامه الربوع.

ففرنسا لوحت بشعار" التفاوض المباشر "في فترة حاسمة من تاريخ الشعوب المستعمرة و خاصة شعوب شمال افريقيا في ظل امتداد " الحرب الباردة" واهتمام الرأي العام الدولي في اسيا وافريقيا وحتى اوروبا بقضية المغرب العربي وفي الوقت الذي كانت فيه الجامعة العربية تعد عدتها لعرض قضية تونس و بقية قضايا المغرب العربي علي هيئة الامم المتحدة (1)و خاصة وان ليبيا على ابواب الاستقلال ولاستقلالها محط امال الحركات الوطنية لاقطار المغرب العربي حيث اثبتت الحركة الوطنية في ليبيا انها على استعداد للقيام بالواجب نحو اخوانهم و مساعدتهم على تحرير بلدانهم من الاستعمار الفرنسي (2)وكانت الحكومة الفرنسية تكره اولا : القومية" باعتبار ان القومية لم تعد الا نظرية اكل عليها الدهر و شرب ولذلك فهي من عالم مضى و انصرم فكيف يمكن للبلاد التونسية ان تتمسك بقومية ضيقة النطاق اوبائدة ؟" (3).

ثانيا :الاضطرابات والكفاح المسلح :فهي مظاهر تنم عن عدم "النضج الفكري ولا السياسي اذ يقول السيد بيريلي في تصريح 13 جوان 1950 : "فاذا مالت البلاد الى الفوضى فذلك دليل على أنها لم تحصل على النضج السياسي اللازم لهضم الاصلاحات المعلن عنها ."

ثالثا :عرض القضية التونسية على منبر الامم المتحدة باعتبارها قضية داخلية وليس لمنظمة الامم المتحدة الحق في التطرق اليها لذا سعت من خلال فتح باب التفاوض مع التونسيين اولا لحل الاشتراكين بفرنسا على مناقشة مشروع اصلاح القانون الانتخابي بمواقفها على توصية مؤتمرهم المنعقد في 28و 29 ماي 1950بشأن تونس." يطالب المؤتمر بفتح مفاوضات

1) بيان من الاستاذ يوسف الرويسي عضو المكتب السياسي للحزب الدستوري الجديد و رئيس مكتب لجنة تحرير المغرب العربي في دمشق ورد هذا البيان في كتاب الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية التونسية :صص 111 ـ 116 .

2) مصدر سابق :الطاهر عبد الله : الحركة الوطنية .. صص 89 ـ 90 .

3) صحيفة النهضة 13 جوان 1950 :تصريح المقيم العام الجديد .

عاجلة بين الحكومة والممثلين الاكفاء للامة التونسية " .

ثانيا : الحيلولة دون سقوط الحركة الوطنية التونسية في احضان الاتحاد السفياتي او لجوئها الى منظمة الامم المتحدة في صورة عدم تعهد فرنسا بتقديم اصلاحات جديدة الى تونس " فالرأي العام التونسي مصاب بحمى الاصلاحات " (1) .

ثالثا : ضرب التحام الحركات الوطنية في المغرب العربي التي كانت قد صادقت على مقررات مؤتمر القاهرة 1947 و ذلك بتشجيع الحزب الدستوري المشارك في الوزارة التفاوضية على الاخلال بهذه المقررات و ذلك " بالانفراد في مفاوضة الاستعمار الفرنسي والبحث عن حل انفرادي للقضية التونسية " قصد عزل الحركة الوطنية التونسية عن نضالات المغرب العربي و تكريس الجهود لمحاصرة الحركة الوطنية في المغرب اذ كانت فرنسا عازمة على فصلها بالقوة . و من هنا يمكن ان نستنتج ان تجربة التفاوض" ولدت ميتة و هي لا تخرج عن السياسة العامة للاستعمار الفرنسي ذات الوجهين .

1) وجه " الادماج " والتلويح باصلاحات مخلة مثلما اسفرت عليه مفاوضات 1950 ـ 1951 .

2) وجه التصلب عند ما تريد فرض هيمنتها واخضاع الاصوات المعارضة مثلما هو الحال ما بين 1952 و 1954 .

لقد انطلقت المفاوضات الفرنسية التونسية في 1 اكتوبر 1950 وكل طرف له تصور لهذه المفاوضات فالوفد التونسي يعتقد انه سيناقش ملامح الحكم الذاتي التي ستوضع لتنقية معاهدة بارد و من التجاوزات التي الحقت بها من طرف الادارة الفرنسية المباشرة و هذا ما تلخصه مذكرة البار في 31 اكتوبر 1951 و التي جاء فيها حسب التقرير الذي اعده السيد "ايف بيرو سال" (Yves Perrussel) بتاريخ 16 فيفري 1952 (2) .

ان هذه المذكرة قد تناولت تحديد مفهوم الحكم الذاتي الذي هو مفهوم . بقي ضبابيا في نظر التونسيين والفرنسيين على حد السواء لترفع كل التباس يوحي بازدواجية السيادة من ذلك :

---

1) مصدر سابق : عن صحيفة " لوموند " : 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 جويلية 1950 .

2) مصدر سابق : الارشيف الوطني 0.54.D3,72p

1) ـ على الصعيد الحكومي والاداري :

ـ تأسيس حكومة تونسية بحتة .
ـ الغاء المراقبين الفرنسيين والمقيم العام ما هو الا مجرد قنصل .
ـ الغاء الموظفين الفرنسيين .

2) ـ على الصعيد التشريعي :

ـ الغاء كل مشاركة فرنسية في صياغة النصوص واصدارها .
ـ احداث مجلس وطني تونسي بحت .
الغاء الامر الرئاسي المؤرخ في 10 نوفمبر 1884 والذي يخضع قرارات الباي لتأشيرة المقيم العام الفرنسي .

3) ـ على الصعيد المدني :

ان الاستقلال الداخلي "يعني ان التونسيين وحدهم هم الذين لهم الحق في الانتخاب والترشح للمجلس الوطني ،اما الفرنسيون فلهم صفة "جالية اجنبية" وهذا ما يفسر رد فعل "المفاوضين" الذي كان عنيفا وقاطعا من خلال مذكرة بعثوا بها الى السيد روبار شومان (R.Chauman) وزير الشؤون الخارجية الفرنسية بتاريخ 26 نوفمبر 1951 "ان فرنسي تونسي لم يرضوا قط بعبارة " الاستقلال الداخلي" التي استعملتموها انتم بالذات لان هذه العبارة اذا وضعناها في الجو المحلي وفي الجو الدولي الحالي ،معناها ان تونس للتونسيين دون سواهم " (1) .

اما الطرف الفرنسي فقد دخل في " المحادثات" (2) على اساس منح بعض الاصلاحات لتخفف من وطأة الرقابة الفرنسية وتفتح المجال اكثر امام مشاركة التونسيين في تسيير شؤونهم بصفة تدريجية وبعد تدرب (فني) وهذا ما لخصته اصلاحات 8 فيفري 1951 (3) .

ـ الغاء المستشارين الفرنسيين لدى الوزراء التونسيين .
ـ عدم رئاسة مجلس الوزراء من طرف المقيم العام واعادتها للوزير الاول .
ـ الغاء تاشيرة الكاتب العام للحكومة واسناد الرقابة الى المقيم العام .

1) المعركة الحاسمة 18 جانفي 1952 نشر كتابة الدولة للاخبار والارشاد :ص40
2) وهي الكلمة التي القاها بن يوسف على تلك المفاوضات نظرا لما لمسه من الطرف الفرنسي من تهاون وعدم جدية تناولهم لملفها .
3) انظر الكامل [illegible]

بتحديد انتداب الموظفين الفرنسيين في الوظيفة العمومية .

فيما يخص المترشحين ذوي الجنسية الفرنسية نصف البقاع في المناظرات المفتوحة للانخراط في سلك وظائف الصنف (أ) والصنف (ب) وثلث البقاع في المناظرات المفتوحة للانخراط في سلك وظائف الصنف (ج) وربع البقاع في المناظرات التي تخول الانخراط في سلك وظائف (د) .

احداث لجنة عليا تجتمع عند الضرورة برئاسة المقيم العام (الفصل 77 الجديد) تفصل اللجنة العليا للميزانية المسائل المعروضة عليها حسب اغلبية الاصوات وفي صورة تعادلها يكون صوت الرئيس مرجحا .

وقد علق المقيم العام السيد بيريلي في تصريح له عبر الاذاعة بتونس في 9 فيفري 1951 عن هذه الاصلاحات بقوله : "ان الاصلاحات التي تمت اخيرا هي بمثابة انجاز لوعد وهذا الوعد يتمثل في تنمية شخصية الحكومة التونسية وتوسيع نطاق مسؤولياتها في ادارة شؤون البلاد وتمكين التونسيين الاكفاء من الانخراط في الوظائف العمومية بصفة اوسع من ذي قبل" (1) .

لقد جاءت هذه الاصلاحات المتواضعة مخيبة الامال من علق عليها الامل ولنا ان نتساءل لماذا وافق عليها الوفد التونسي المفاوض ،كما وافق عليها الباي رغم انها دون ما يطلبونه بكثير ؟ايدخل ذلك ضمن سياسة المراحل "وشعار خذ وطالب" ؟او خوفا من الحملات الثأرية الفرنسية" التي ستنالهم لو رفضوا هذه الاصلاحات ؟الا تقفوا وراء هذه الوزارة التفاوضية قوة شعبية برهنت من خلال احداث النفيضة في 21 نوفمبر 1950 على انها على استعداد للتضحية "بالدم" من اجل مطالبها ؟اليس صالح بن يوسف ممثلا لحزب يضم 150 الف منخرطا ؟ وعلى كل يمكن ان نستنتج ان الطرف التونسي المفاوض اندفع الى المحادثات وهو لا يملك ادنى الضمانات سوى ما صرح به السيد شومان (Chomane) في 9 جوان 1950 او ما وعد به لويس بيريلي في 03 جوان 1950 لذا كان جانبه ضعيفا فأمكن للطرف الفرنسي تحويل المفاوضات حسب وجة نظره واملاء شروطه على الطرف المقابل وبذلك ضربت الحكومة الفرنسية "عصفورين بحجر واحد" فقد ظهرت امام الرأي العام الدولي وخاصة امام الولايات المتحدة الامريكية بوجه ليبرالي متفهم

(1) عن جريدة النهضة : 10 فيفري 1951 .